www.ibtesama.com

الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز

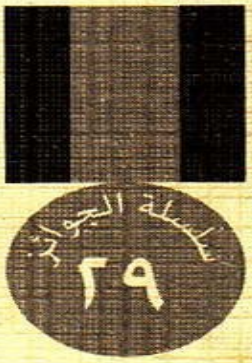

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

رواية

ج. م. كوتسي

إليزابيث كستلو

ترجمة : عبد المقصود عبد الكريم

www.ibtesama.com

ج. م. كوتسى روائى وناقد وأكاديمى ومترجم من جنوب إفريقيا.

ولد فى ١٩٤٠ فى كيب تاون بجنوب إفريقيا. قام بتدريس الإنجليزية والأدب فى جامعة ولاية نيويورك. وجامعة جون هوبكنز وجامعة هارفارد.

من أعماله الروائية "في انتظار البرابرة"، "فو"، "عصر الحديد"، "قلب البلاد"، "سيد بطرسبرج"، "الرجل البطىء". وسيرته الذاتية "الصبا"/ "الشباب".

المؤلف الوحيد الذي حصل على جائزة "البوكر" مرتين. مرة عن روايته "حياة مايكل وأوقاته" عام ١٩٨٤. والأخرى عن روايته "العار" عام ١٩٩٩. وتوجت جوائزه بالحصول على جائزة نوبل عام ٢٠٠٣.

مجلة ابتسامة
www.ibtesama.com

الجائزة: جائزة نوبل فى الآداب

أكبر جائزة فى العالم، وأعلى مرتبة من جميع التقديرات، تمنح فى فروعها المختلفة كل عام فى العاشر من ديسمبر، وهو تاريخ وفاة صاحبها الصناعى السويدى ومخترع الديناميت "ألفريد نوبل" الذى أسسها عام ١٨٩٥. كدعوة لتحقيق السلام فى العالم.

ومنذ عام ١٩٠١ أصبح العالم كله ينتظر توزيع الجائزة على الأدباء والعلماء ودعاة السلام، الذين يقومون بإنجازات أدبية وعلمية وخدمات اجتماعية نبيلة تهدف إلى رقى الإنسانية وتطورها.

وجائزة نوبل فى الآداب هى أرفع جائزة أدبية فى العالم، وهى تمنح لقمم الإبداع فى فروعه المختلفة: رواية.. شعر.. مسرح، وأول من حصل عليها من العالم العربى الكاتب المصرى "نجيب محفوظ" عام ١٩٨٨.

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

إليزابيث كستلو

www.ibtesama.com

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير	دكتور: ناصر الأنصارى
نائب رئيس مجلس الإدارة	دكتور: وحيد عبدالمجيد
نائب رئيس التحرير	دكتور: سهير المصادفة
الإشراف التنفيذى	السيد أبو شادى
مدير التحرير	السماح عبدالله
سكرتير التحرير	وردة عبدالحليم
التصميم الجرافيكى	دكتور: مدحت متولى
الإخراج الفنى	صبرى عبدالواحد
	على أبوالخير

كوتسى، ج. م.، ١٩٢٨ - ....

إليزابيث كستلو: ثمانية دروس/ ج. م. كوتسى؛ ترجمة عبد المقصود عبد الكريم. - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.

٣٤٤ ص ؛ ١٢ × ٢٠ سم .- (سلسلة الجوائز) .

تدمك ٤ ٢٦٥ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - القصص الإنجليزية .

(أ) - عبد الكريم، عبد المقصود (مترجم).

(ب) - العنوان . (ج) - السلسلة .

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٥٤٥/ ٢٠٠٨

I.S.B.N -978- 977 - 420 - 265 - 4

ديوى٨٢٣

www.ibtesama.com

إليزابيث كستلو

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

رواية

ج . م . كوتسى

ترجمة : عبدالمقصود عبدالكريم

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٨

www.ibtesama.com

● الكتاب: إليزابيث كستلو

Elizabeth Costello

● الكاتب: ج. م. كويتسى J. M. Coetzee

● ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم

● يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من الناشر الأصلى للهيئة المصرية العامة للكتاب.

● جميع حقوق الإصدار باللغة العربية محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب فى مصر والخارج.

● جميع الحقوق الأخرى محفوظة للمؤلف والناشر الأصلى:

Copyright © J. M. Coetzee, 2003 "by arrangement with peter Lampack agency, Inc. 551 Fifth Avenue, Suite 1613 New York, Ny 10176 - 0187 USA."

● الطبعة الأولى ٢٠٠٨.

● طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

www.ibtesama.com

«سلسلة الجوائز»

مازال أمام سلسلة الجوائز الكثير من الأحلام الكبرى، التى تعمل بدأب على تحقيقها، فلقد شهدت السنوات الأخيرة احتفاءً غير مسبوق بالأعمال الأدبية فى شتى أنحاء العالم، وزادت أعداد الجوائز المهمة وأشكال تكريم المبدعين، فازدادت بالتالى الروائع الأدبية، التى تنتظر الترجمة والنشر فى سلسلة الجوائز.

ولأننا نضع نصب أعيننا قطع المسافة بين الواقع والمأمول.. بين الممكن والمستحيل فقد قطعنا خطوات كبيرة وجادة للتغلب على التحديات التى تواجه عملية الترجمة بداية من احترام حقوق الملكية الفكرية للمؤلف ومرورًا بتطوير شكل الكتاب، ووصولاً إلى قناعة بأن النصوص الأدبية لها وضعها الخاص باعتبارها مؤلفات جمالية متفردة ومن ثم تكون ترجمتها إبداعًا موازيًا يتحمل المترجم وحده عبء النهوض به. كما أننا استحدثنا «ذاكرة الجوائز» كرافد للسلسلة لتقديم الآثار الأدبية، التى شكلت ذروة خالدة

www.ibtesama.com

فى مسيرة الإبداع العالمى ولم تترجم بعد، أو أنها ترجمت ونفدت طبعاتها، إيمانًا من السلسلة بأن الأعمال الأدبية يكون لها دائمًا تأثير لا يمحى بمرور زمنها وحتى يتسنى للأجيال الجديدة قراءتها.

لقد انطلقنا من نجاحات تحققت فى مجال ترجمة الأدب فى مصر والعالم العربى، ولذا شرعنا فى تأسيس بنك معلومات رأينا أن الترجمة بحاجة إليه، ويشمل هذا البنك كل الأعمال الأدبية التى حازت جوائز دولية أو محلية فى كل أنحاء العالم، أو حققت أصداء قوية، وأثرت فى وجدان مجتمعاتها بشكل يؤهلها للحصول على جوائز أكبر، كما أنه يوفر قاعدة بيانات كبيرة عن كل المترجمين من كل اللغات، لكى يتابع القارئ العربى ما تم إنجازه والمهمات التى تنتظر السلسلة.

إن الترجمة كانت وستظل هى الحل السحرى للعديد من مشكلات الاختلاف بين الشرق والغرب، وهى وسيلة التواصل والحوار، وترجمة الأدب بالذات هى الجسر، الذى تعبر عليه أفكار الشعوب وعاداتها ومعارفها بدون قيود، فالأدب كان وسيظل أساس التقدم والخير والحق والحرية والجمال.

ولذا ستسابق سلسلة الجوائز الزمن لتحتفى بأكبر قدر ممكن من حائزى الجوائز فى العالم، تلك الجوائز التى حققت مصداقية كبيرة وسمعة حسنة حتى يتوفر للقارئ المصرى والعربى عمل اتفقت على جودته لجان

www.ibtesama.com

متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتّاب.

ولسوف تتنوع اللغات المُتَرجم عنها فى أعداد السلسلة القادمة، ولسوف تقتحم سلسلة الجوائز جوائز جديدة. وأصواتًا لم يتعرف إليها بعد القارئ العربى، وذلك بفضل زخم الأعمال الإبداعية فى العالم وبفضل تنوع الجوائز المستحدثة، التى لاقت اختياراتها ترحيبًا واحترامًا من النقاد والمتابعين للمشهد الإبداعى.

د. ناصر الأنصارى

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الفهرس

١ : الواقعية..... ١١

٢ : الرواية فى إفريقيا..... ٥٩

٣ : حياة الحيوان

١ ـ الفلاسفة والحيوانات ٩٣

٤ : حياة الحيوان

٢ ـ الشعراء والحيوانات ١٣٩

٥: الإنسانيات فى إفريقيا..... ١٧٥

٦ : مشكلة الشر ٢٢٩

٧ : إيروس..... ٢٦٧

٨ : على البوابة ٢٨٣

حاشية: رسالة إليزابيث، ليدى كندوس ٣٢١

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

(١)
الواقعية

هناك، بداية، مشكلة الافتتاحية، كيف ننطلق من مكاننا، المكان الذى لم يوجد بعد، إلى الضفة البعيدة. إنها مشكلة بسيطة عابرة، مشكلة أن نسير معًا على جسر. يحل الناس مثل هذه المشاكل يوميًا. يحلونها، ويواصلون حلها.

لنفترض أنها تُحَل، بصرف النظر عن الطريقة التى تُحل بها. لنسلِّم بأن ذلك الجسر شُيِّد وعُبِر، بحيث يمكن ألا تتشغل به عقولنا. وقد تركنا خلفنا المقاطعة التى كنا فيها. إننا فى مقاطعة بعيدة، حيث نود.

إليزابيث كُسْتِلُّو كاتبة، ولدت عام ١٩٢٨،أى أنها بلغت السادسة والستين، وفى طريقها إلى السابعة والستين. كتبت تسع روايات، وديوانين، وكتابا عن حياة الطيور، ووثيقة عن الصحافة. أسترالية بالميلاد. ولدت فى ملبورن ومازالت تعيش هناك، إلا أنها قضت السنوات من ١٩٥١ إلى ١٩٦٣ بعيدا عنها، فى إنجلترا وفرنسا. تزوجت مرتين. لها طفلان، واحد من كل زيجة.

www.ibtesama.com

حققت إليزابيث كُسْتِلُّو شهرتها مع روايتها الرابعة، "**منزل فى شارع إيكلز**" (١٩٦٩)، والشخصية الرئيسية فيها هى ماريون بلوم، زوجة ليوبولد بلوم، الشخصية الرئيسية فى رواية أخرى، "عوليس" (١٩٢٢) جيمس جويس. وقد نشأت حولها، فى العقد الأخير، صناعة نقدية صغيرة؛ توجد حتى جمعية إليزابيث كُسْتِلُّو، تأسست فى البوكيرك، فى نيو مكسيكو، تصدر نشرة فصلية عن **أخبار إليزابيث كُسْتِلُّو**.

سافرت إليزابيث كُسْتِلُّو فى ربيع ١٩٩٥ أو تسافر (صيغة المضارع بداية من هنا)، إلى وليمز تاون، فى بنسلفانيا، إلى ألتونا كوليج، لاستلام جائزة ستوى. والجائزة تمنح سنويًا لكاتب عالمى كبير، تختاره لجنة من النقاد والكُتَّاب. وتبلغ قيمتها ٥٠٠٠٠ دولار، ممولة بوصية من ممتلكات ستوى، وميدالية ذهبية. وهى إحدى الجوائز الأدبية الكبرى فى الولايات المتحدة.

تصطحب إليزابيث كُسْتِلُّو (كُسْتِلُّو اسمها قبل الزواج) ابنها جون فى زيارتها لبنسلفانيا. يدرِّس جون الفيزياء والفلك فى كلية فى مَسيشوسيتس(*) لكنه فى إجازة لمدة عام بناء على رغبته. ضعفت إليزابيث إلى حد ما: لم تكن، بدون مساعدة ابنها، لتقطع هذه الرحلة الشاقة عبر نصف العالم.

(*) مَسيشوسيتس: ولاية فى شمال شرق الولايات المتحدة. عاصمتها بوسطن.

www.ibtesama.com

نقفز. وصلا إلى وليمز تاون وانتقلا إلى الفندق، بناية كبيرة مدهشة فى مدينة صغيرة، مرتفعة وسداسية، برخام قاتم فى الخارج وكريستال ومرايا فى الداخل. يدور حوار فى غرفتها.

يسأل الابن: "ستكونين على راحتك؟"

ترد: "أنا متأكدة من أننى سأكون على راحتى". الغرفة فى الطابق الثانى عشر، تطل على ملعب جولف، ومن خلفه تلال مليئة بالأشجار.

"لماذا لا تستريحين إذًا؟ سيأتون إلينا فى السادسة والنصف. سأتصل بك قبلها ببضع دقائق."

تتكلم، وهو على وشك المغادرة.

"جون، ماذا يطلبون منى بالضبط؟"

"الليلة؟ لا شىء. مجرد تناول العشاء مع أعضاء اللجنة. لن نجعلها تتحول إلى أمسية طويلة. سأذكرهم بأنك مرهقة."

"وغدًا؟"

"غدًا حكاية أخرى. عليك أن تتأهبى للغد، إننى خائف."

"نسيتُ ما جعلنى أوافق على الحضور. تبدو محنة رهيبة أن يورط المرء نفسه بدون سبب وجيه. كان علىَّ أن أطلب منهم التغاضى عن الاحتفال وإرسال الشيك فى البريد."

www.ibtesama.com

تتأمل عمرها بعد رحلة طويلة فى الطيارة. لم تهتم أبدا بمظهرها؛ اعتادت أن تَفْلت منه؛ يظهر الآن. عجوز ومرهقة.

"أخشى يا أمى أن الأمور لا تسير على هذا النحو. إذا قبلتِ الفلوس، فعليك أن تكملى الحكاية."

تهز رأسها. مازالت ترتدى سترة المطر، سترة قديمة ارتدتها فى المطار. يبدو شعرها مزيتًا وبلا حياة. لم تحاول فتح حقائبها. إذا تركها الآن، فماذا تفعل؟ تتمدد فى سترة المطر والحذاء؟

إنه هنا، معها، بدافع الحب. لا يستطيع أن يتخيلها تمر بهذه التجربة ولا يكون بجانبها. إنه يقف بجانبها؛ لأنه ابنها، ابنها الحبيب. لكنه أيضا على وشك أن يصبح ـ يا لها من كلمة منفرة ـ مدرِّبها.

يفكر فيها كفقمة فقمة(*) عجوز مرهقة فى سيرك. مرة أخرى لابد أن تتربع على كاهله، مرة أخرى تظهر أنها تستطيع حفظ اتزان كرة على أنفها. عليه أن يقنعها، من كل قلبه، بتنفيذ البرنامج.

يقول بأرقِّ ما يستطيع: "هذه هى طريقتهم الوحيدة. إنهم معجبون بك، ويريدون تكريمك. ويعتقدون أن هذه أفضل طريقة لتحقيق ذلك. يعطونك فلوسًا. يذيعون اسمك. يستخدمون أمرًا لتحقيق الآخر."

(*) فقمة: من الثدييات البحرية آكلة اللحوم، لها أطراف تشبه الزعانف، وفرو سميك.

www.ibtesama.com

تقف بجانب طاولة كتابة من الطراز الإمبراطورى، تتصفح كتيبات تخبرها بمكان التسوق، ومكان العشاء، وكيفية استخدام التليفون، ترمقه بنظرات سريعة ساخرة مازالت قادرة على استثارة دهشته، لتذكره من هى. تهمهم: "أفضل طريقة؟"

يطرق الباب فى السادسة والنصف. إنها جاهزة ومنتظرة، مفعمة بالشكوك لكنها مستعدة لمواجهة الخصم. ترتدى بدلتها الزرقاء وسترة من الحرير، زى سيدة روائية، وحذاء أبيض لا غبار عليه إلا أنه يجعلها إلى حد ما تبدو مثل ديزى دَك[1] غسلتْ شعرها وسرحته إلى الخلف. لكنه مازال يبدو مزيتًا، مثل شعر حفار أو ميكانيكى. على وجهها نظرة سلبية، إن رأيتها على وجه فتاة، لوصفتها بالانعزالية. وجه بلا شخصية، من النوع الذى يحاول المصورون توضيح معالمه. يفكر: مثل كيتس، المؤيد العظيم لاستقبال خاوٍ.

الملابس الزرقاء والشعر الدهنى من تفاصيل الواقعية المعتدلة وعلاماتها. إن تقديم الخصائص يجعل الدلالات تنبثق تلقائيًا. إجراء كان رائده دانيل ديفوى[2] ينظر روبنسون كروزو حوله، ملقيًا نظرة على الشاطئ، بحثًا عن زملائه الملاحين. لكنه لا يجد أحداً. يقول: "لم أرهم أبداً فيما بعد، ولا أية علامة

(١) ديزى دَك Daisy Duck : إحدى شخصيات والت ديزنى، ظهرت أول مرة عام ١٩٣٧.

(٢) دانيال ديفوى (١٦٦١ ـ ١٧٣١): كاتب وصحفى وجاسوس بريطانى، اكتشب شهرته من روايته روبنسون كروزو، ويعتبر من مؤسسى الرواية الإنجليزية.

www.ibtesama.com

تدل عليهم، سوى ثلاث قبعات وكاب، وفردتين من حذاءين مختلفين." فردتان كل فردة بشكل: حين تختلف الفردتان، لا تكون الأحذية شيئًا يلبس فى القدم، تصبح دليلا على الموت، وقد مزقتها البحار الثائرة من أقدام رجال غرقوا وقذفت بها إلى الشاطئ. لا كلمات كبرى، لا يأس، قبعات وكابات وأحذية فقط.

بقدر ما يمكن أن يتذكر، رتبت أمه نفسها للكتابة فى أوقات الصباح. لا شىء يثنيها مهما تكن الظروف. اعتاد أن يرى نفسه ابنًا سيىء الحظ، وحيدا غير محبوب. اعتاد هو وأخته حين كانا يأسفان على نفسيهما أن ينسحبا خارج الباب المغلق ويصدرا أصوات أنين واهية. كانا يشعران، حين يتحول الأنين إلى ترنيم أو غناء، أنهما أفضل وينسيان الإهمال الذى يتعرضان له.

تغير المشهد الآن. كبر. إنه ليس خارج الباب بل داخله، يراها وهى تجلس، ظهرها للنافذة، وأمامها، يومًا بعد يوم وعامًا بعد عام وشعرها يتحول ببطء من الأسود إلى الرمادى، صفحة بيضاء. يفكر، يا له من عناد! لاشك فى أنها تستحق الميدالية، هذه الميدالية وأكثر من ذلك بكثير.

حدث التغير وهو فى الثالثة والثلاثين. لم يكن، حتى ذلك الوقت، قد قرأ كلمة مما كتبتْ. كان هذا رده عليها، انتقامه منها لتركه خارج الباب المغلق. تجاهلتْه

www.ibtesama.com

فتجاهلها. وربما رفض أن يقرأ لها ليحمى نفسه. ربما كان ذلك هو الدافع الأعمق: أن يتجنب الضربة الخاطفة. وذات يوم، ودون كلمة مع أحد، وحتى دون كلمة مع نفسه، تناول أحد كتبها من المكتبة. وبعد ذلك قرأ كل شىء، يقرأ علنا، فى القطار، وعلى طاولة الغداء. "ماذا تقرأ؟" "كتابًا من كتب أمى."

إنه، أو بعضه، فى كتبها. وأناس آخرون، يعرفهم؛ ولابد أن هناك كثيرين لا يعرفهم. تكتب عن الجنس، وعن العاطفة والغيرة والحسد، ببصيرة ترجُّه. خروج إيجابى على الآداب العامة.

إنها ترجُّه؛ وهو ما يفترض أنها تفعله مع القراء الآخرين أيضًا. وما يفترض أنه سبب وجودها، عموما. يا لها من جائزة غريبة لحياة بطولها من رج البشر: أن تُنقَل إلى هذه البلدة فى بنسلفانيا وتُعطَى فلوسًا! لأنها ليست بحال من الأحوال كاتبة مريحة. ربما حتى تكون قاسية، بالطريقة التى قد تكون عليها امرأة ومن النادر أن يحتملها الرجال. أى نوع من الكائنات، حقا؟ ليست فقمة: ليست لطيفة بما يكفى لذلك. لكنها أيضا ليست سمكة قرش. قطة. إحدى القطط الضخمة التى تتوقف وهى تنزع أحشاء ضحيتها وترمقك، عبر البطن الممزق المفتوح، بنظرة صفراء باردة.

هناك امرأة فى انتظارهما تحت، الشابة ذاتها التى اصطحبتهما من المطار. اسمها تريزا. وهى

www.ibtesama.com

مدرِّسة فى ألتونا كوليج، لكنها تؤدى مختلف المهام فى جائزة ستوى، مرمطون، وهى عمومًا شخصية بسيطة.

يجلس فى مقدمة السيارة بجوار تريزا، وتجلس أمه فى المؤخرة. تريزا مستثارة، مستثارة حتى أنها تثرثر بشكل إيجابى. تحدثهما عن الأحياء التى يمرون بها، وعن ألتونا كوليج وتاريخها، عن المطعم الذى يتجهون إليه. فى منتصف الثرثرة تماما تفسح مجالا لهجمتين سريعتين من هجمات بلدتها التى تشبه هجمات الفئران. تقول: "كانت عندنا أ. س. بيات[1] هنا فى الخريف الماضى. ما رأيك فى أ. س. بيات، مسز كستلو؟" وبعد ذلك: "ما رأيك فى دوريس ليسنج [2] مسز كستلو؟" تؤلف كتابا عن الكاتبات والسياسيَّات؛ تقضى فصول الصيف فى لندن للعمل فيما تسميه بحثا؛ وما كان ليندهش لو اكتشف أنها تضع شريط تسجيل فى السيارة.

لدى أمه كلمة لوصف هذا النمط من الناس. تسميهم السمكة الذهبية. وتقول إنها تعتقد أنهم صغار ولا ضرر منهم، لأن كلا منهم لا يريد أكثر من قضمة ضئيلة من اللحم، مجرد نصف نصف ملليجرام. تتلقى منهم رسائل أسبوعية، عن طريق ناشرها. اعتادت قديما أن ترد: أشكرك على

(١) أ. س. بيات A.S. Byatt (١٩٣٦ ـ): كاتبة وشاعرة بريطانية.
(٢) دوريس ليسنج Doris Lessing (١٩١٩ ـ) اشتهرت بسلسلة من خمسة أجزاء بعنوان «أطفال العنف» (١٩٥٢ ـ ١٩٦٩)، «المفكرة الذهبية» (١٩٦٢). حصلت على جائزة نوبل فى الأدب عام ٢٠٠٧ .

www.ibtesama.com

اهتمامك، لكننى لسوء الحظ مشغولة جدا بحيث لا أستطيع الرد على رسالتك بما تستحق. ثم أبلغها صديق بأن رسائلها تعرض فى سوق المخطوطات، فتوقفت عن الرد.

رقائق صغيرة من الذهب تحيط بالحوت المحتضر، فى انتظار فرصة لتندفع وتقضم قضمة سريعة.

يصلون إلى المطعم. يتساقط مطر خفيف. تنزلهم تريزا أمام الباب، وتذهب لتركن السيارة. يمكثان لحظة وحيدين على الرصيف. يقول: "يمكننا أن نتهرب. الوقت لم يفت. يمكن أن نستقل تاكسى إلى الفندق ونلتقط أشياءنا، ونكون فى المطار فى الثامنة والنصف، ونقلع فى أول طائرة. سنختفى من المشهد بوصول رجال البوليس."

يبتسم. تبتسم. سينفذان البرنامج، هذا ما يمكن أن يقال. لكن اللعب على الأقل بفكرة الهروب ممتع. نكات، أسرار، تواطؤ: لمحة هنا، كلمة هناك: تلك طريقتهما حين يكونان معا، وحين يفترقان. سيكون حامل دروعها، وتكون فارسه. يحميها بقدر ما يستطيع. ثم يساعدها فى وقايتها، ويحملها إلى جوادها، ويضع ترسها على ذراعها، ويضع رمحها فى يدها، ويسير وراءها.

ثمة مشهد فى المطعم، حوار أساسًا، سنتجاهله. نعود إلى الفندق، حيث تطلب إليزابيث كستلو من ابنها أن يسرد عليها قائمة بالناس، الذين التقوا بهما.

www.ibtesama.com

يطيع، ذاكرًا اسم كل شخص ووظيفته، كما فى الحياة. مضيفهما، وليم بروتجام، عميد الآداب فى ألتونا. منسق اللجنة، جُردون ويتلى، كندى، بروفيسور فى ماكجيل، كتب عن الأدب الكندى وعن وِيلسون هَرِيس[١] وتلك التى يدعونها تونى، التى تحدثت إليها عن هنرى هندل ريتشاردسون [٢]من ألتونا كوليج. متخصصة فى استراليا، وقامت بالتدريس هناك. تعرف بولا ساتشز. الرجل الأصلع، كريجان، روائى، أيرلندى بالميلاد، ويعيش الآن فى نيويورك. العضو الخامس فى اللجنة، التى كانت تجلس بجانبه، اسمها مُبيوس. تدرِّس فى كاليفورنيا وتحرر جريدة. نشرت أيضًا بعض القصص.

تقول أمه: "كنتَ أنت وهى رأسا فى رأس تمامًا[٣]جميلة، أليس كذلك؟"

"أظن ذلك."

تفكرُ. "لكن، كمجموعة، ألا يصدمونكَ كأشخاص... نوعًا ما."

"خفاف الوزن نوعًا ما؟"

---

(١) ويلسون هريس Wilson Harris : (١٩٢١ ـ): كاتب من جوانا Guyana (بلد يقع شمال شرق أمريكا الجنوبية على المحيط الأطلنطى، كان مستعمرة بريطانية من ١٨١٤ إلى ١٩٦٦)، بدأ بكتابة الشعر، واشتهر كروائى.

(٢) هنرى هندل ريتشاردسون Henry Handel Richardson (١٨٧٠ ـ ١٩٤٦): روائى إنجليزى ولد فى أستراليا.

(٣) بالفرنسية فى الأصل.

www.ibtesama.com

تومئ.

"حسن، إنهم كذلك. ثقال الوزن لا يتورطون فى عروض من هذا النوع. ثقال الوزن يصارعون مشاكل من الوزن الثقيل."

"لستُ ثقيلة الوزن بما يكفيهم؟"

"لا، أنت ثقيلة الوزن تمامًا. ما يعوقك هو أنك لست مشكلة. ما كتبتِه لم يُصوَّر على أنه مشكلة بعد. بمجرد أن تقدمى نفسك كمشكلة، ربما انضممت إلى بلاطهم. لكنك حاليًا لستِ مشكلة، مجرد نموذج."

"نموذج لماذا؟"

"نموذج للكتابة. نموذج للطريقة التى يكتب بها شخص فى منزلتك ومن جيلك وأصولك. حالة."

"حالة؟ هل يُسمَح لى بكلمة اعتراض؟ بعد كل الجهد الذى أبذله لكى لا أكتب مثل أى شخص آخر؟"

"أمى، ليس هناك ما يستدعى الشجار معى. لستُ مسئولا عن الطريقة التى تراك بها الأكاديمية. لكن من المؤكد أنك لابد أن تعترفى أننا نتكلم فى مستوى معين، ومن ثم نكتب، مثل الآخرين. وإلا كنا جميعا نتكلم ونكتب بلغة خاصة. ليس عبثاً- أليس كذلك؟- أن يهتم المرء بما يشترك فيه الناس أكثر من اهتمامه بما يفرقهم."

فى الصباح التالى يجد جون نفسه متورطاً فى نقاش أدبى آخر. يلتقى جُردون ويتلى، رئيس اللجنة،

www.ibtesama.com

فى قاعة الرياضة بالفندق. يدور بينهما حديث بصوت مرتفع وهما متجاوران على دراجتين للتدريب. يخبر ويتلى- ليس بجدية تامة ـ أن أمه سيخيب أملها إذا عرفتْ أن جائزة ستوى من نصيبها، لأن هناك قرارًا بأن يكون عام ١٩٩٥ عام أستراليشيا(*).

يرد ويتلى بصوت مرتفع: "ماذا تريد أن تكون؟"

يرد: "أن تكون الأفضل. فى الرأى الصادق للجنتكم. ليست أفضل أسترالى، ليست أفضل أسترالية، الأفضل فقط."

يقول ويتلى: "بدون اللانهاية لا يكون لدينا رياضيات. لكن ذلك لا يعنى أن اللانهاية موجودة. اللانهاية مجرد تصور، تصور إنسانى. نجزم بالطبع أن إليزابيث كستلو الأفضل. لكن علينا أن ندرك بوضوح ما تعنيه عبارة من هذا القبيل، فى عصرنا.

لا معنى عنده للقياس على اللانهاية، لكنه لا يتابع الموضوع. يتمنى أن يكون ويتلى لا يكتب بالرداءة التى يفكر بها.

لم تتلاءم الواقعية أبدًا مع الأفكار. لا يمكن أن تكون غير ذلك: تتأسس الواقعية على فكرة أن الأفكار ليس لها وجود مستقل، لا يمكن أن توجد إلا فى الأشياء. ولذا حين يتطلب الأمر مناقشة الأفكار، كما يحدث هنا، فإن الواقعية تُدفَع إلى ابتكار مواقف-

(*) أستراليشيا: جزر جنوب المحيط الهادى وتضم أستراليا ونيوزيلاند وغينيا الجديدة.

www.ibtesama.com

التمشية فى الريف، التحدث- حيث تصدر الشخصيات الأصوات لتتبارى الأفكار وتتجسد بمعنى ما. ويتضح أن مفهوم "التجسيد" محورى. لا تنطلق الأفكار فى هذه المناقشات حرة ولا يمكن: إنها مقيدة بالمتحدثين الذين ينطقونها، وتتخلق من أرضية الاهتمامات الفردية، التى يعمل ناطقوها طبقا لها فى العالم- على سبيل المثال، اهتمام ابن بألا تُعامَل أمه وكأنها كاتبة ميكى ماوس ما بعد الكولونيالية، أو اهتمام ويتلى بألا يبدو عبثيًا من طراز عتيق.

ينقر فى الحادية عشرة على باب غرفتها. أمامها يوم طويل: لقاء، جلسة فى محطة راديو الكلية، وفى المساء حفل تقديم والكلام الذى يجرى فيه.

استراتيجيتها مع المحاورين هى التحكم فى التبادل، تقدم لهم قوالب من الحوار تم التدريب عليها حتى أنه كثيرًا ما كان يستغرب، لأنها لم ترسخ فى ذهنها وتصبح نوعًا من الحقيقة. فقرة طويلة عن الطفولة فى ضواحى ملبورن (صراخ الببغاوات فى قاع الحديقة) مع فقرة فرعية عن الخطر المحدق بسلامة مخيلة الطبقة الوسطى. فقرة عن موت والدها بحمى معوية فى مالايا. وأمها فى مكان ما فى الخلفية تعزف فالسات شوبان على البيانو، ثم سلسلة مما يبدو أنها تأملات مرتجلة عن تأثير الموسيقى على وضعها. فقرة عن قراءتها فى فترة المراهقة (شرهة، عشوائية)، ثم قفزة إلى فرجينيا وولف، التى قرأتها أول مرة وهى طالبة، وتأثير وولف عليها. ومقطع عن

www.ibtesama.com

افتتانها بمَدْرسة الفن، وآخر عن عام ونصف قضته فى كمبريدج بعد الحرب ("ما أتذكره أساساً هو الصراع للحفاظ على الدفء")، وآخر عن سنواتها فى لندن ("لم أستطع كسب قوتى من الترجمة، على ما أظن، لكن الألمانية كانت لغتى المفضلة، ولم تكن الألمانية تحظى بشعبية فى تلك الأيام، كما يمكن أن تتخيل"). روايتها الأولى، التى تستخف بها إلى حد ما، مع أنها كرواية أولى خارج المنافسة، ثم سنواتها فى فرنسا ("أوقات اندفاع")، ولمحة عابرة عن زواجها الأول. ثم عودتها إلى أستراليا مع ابنها الصغير. هو.

هذا كل شىء، يحكم، مُنصتًا، بأداء بارع، إذا كان للمرء أن يستخدم هذه الكلمة، يستمتع طوال الساعة تقريبا، كما نوى، تاركا بضع دقائق ليتجنب الأسئلة التى بدايتها "ما رأيك فى...؟" ما رأيها فى الليبرالية الجديدة، قضية المرأة، حقوق السكان الأصليين، الرواية الأسترالية المعاصرة؟ عاش بجانبها حوالى أربعة عقود، بشكل متقطع، لكنه ليس متأكدا من رأيها فى المسائل الكبرى. ليس متأكدا وهو ممتن، عموما، لأنه ليس عليه أن يسمع. لأن أفكارها قد تكون، كما يتوقع، غير مهمة كأفكار معظم الناس. إنها كاتبة، ليست مفكرة. الكُتَّاب والمفكرون: الطباشير والجبن. لا، ليس الطباشير والجبن: السمك والدجاج. لكن من هى، السمكة أم الدجاجة؟ ما وَسَطُها: الماء أم الهواء؟

محاوِرة الصباح، التى أتت من بوسطُن لهذه المناسبة، شابة، وأمه متساهلة دائمًا مع الشباب. لكن

www.ibtesama.com

هـذه الشـابة سـميكة الجلد وتـرفض أن تُغَـش. تسـأل بـإلحـاح: "مـاذا تـقـولـين عـن رسـالـتـك الـرئيسـية؟"

"رسالتى؟ هل أنا مرغمة على حمل رسالة؟"

ليست مواجهة قوية؛ تؤكد المحاوِرة تميزها. "ترفض شخصيتك الأساسية، ماريون بلوم، فى **'منزل فى شارع إكليز'** ممارسة الجنس مع زوجها حتى طور من نفسه. على النساء أن ينئين بأنفسهن حتى يطور الرجال هوية جديدة بعد بطريركية؟"

ترمقه أمه بنظرة. **النجدة!** هذا ما تقصده، بطريقة طريفة.

تهمهم: "فكرة مثيرة. بالطبع فى حالة زوج ماريون هناك حدة معينة فى الإلحاح على أن يطور هوية جديدة، حيث إنه رجل ذو- ماذا أقول؟- هوية متقلبة، بأشكال متعددة".

"**منزل إكليز**" رواية عظيمة؛ سوف تبقى، ربما، مثل "**عوليس**"؛ ستبقى بالتأكيد فترة طويلة بعد أن تُوارى كاتبتُها الثرى. لم يكن إلا طفلا حين كتبتْها. يقلق ويحتار حين يفكر أن من ولدتْ "شارع إكليز" هى نفسها من ولدتْه. حان الوقت ليتدخل، لينقذها من التحقيق الذى ينذر بأن يصبح مضجرًا. ينهض. يقول: "أمى، أخشى أن علينا أن نتوقف. سيصطحبوننا إلى جلسة الراديو." وإلى المحاوِرة: "أشكرك، لكن علينا أن نتوقف هنا."

www.ibtesama.com

تعبس المحاورة منزعجة. هل ستجد جزءًا له فى الحكاية التى تحفظها فى ملف: الروائية خائرة القوى وابنها المتسلط؟

يتم الفصل بينهما فى محطة الراديو. يفرجونه على كابينة التحكم. يندهش حين يجد أن المحاوِرة الجديدة هى السيدة مبيوس الرائعة التى جلست بجانبه على العشاء. تقدم: "هذه سوزان مبيوس، فى برنامج كتَّاب يعملون، ونتحدث اليوم مع إليزابيث كستلو"، وتواصل بمقدمة فضفاضة. تستمر: "روايتك الجديدة، 'النار والثلج ?'التى تدور أحداثها فى أستراليا فى الثلاثينيات، قصة شاب يصارع ليشق طريقه كرسام أمام معارضة الأسرة والمجتمع. هل كان فى ذهنك شخص معين حين كتبْتِها؟ هل تعتمد على حياتك المبكرة؟"

"لا، كنتُ ما أزال طفلة فى الثلاثينيات. إننا نعتمد، بالطبع، على حياتنا طوال الوقت- إنها ذخيرتنا الأساسية، ذخيرتنا الوحيدة بمعنى ما. لكن لا، النار والثلج ليست سيرة ذاتية. إنها قصة. صنعتُها."

"لابد أن أقول لمستمعينا إنه كتاب قوى. لكن هل تجدين الكتابة على لسان رجل سهلة؟"

سؤال معتاد، يفتح الباب لفقرات معتادة. ومما يثير دهشته أنها لم تستغل فتحه.

"سهلة؟ لا. لو كانت سهلة لما كانت جديرة بالكتابة. اختلاف يمثل التحدى. اختلاق شخص آخر

www.ibtesama.com

غير نفسك. اختلاق عالم يتحرك فيه. اختلاق أستراليا.

"هل هذا ما تفعلينه فى كتبك، كما قلتِ: اختلاق أستراليا؟"

"نعم، أظن ذلك. لكن هذا ليس سهلا فى هذه الأيام. هناك مقاومة أكبر، قيمة أستراليا التى اختلقها أناس آخرون، التى عليك دفعها من أمامك. هذا ما نقصده بالتراث، بدايات التراث."

"أود أن أعود إلى **'منزل فى شارع إكليز'** وهو الكتاب الذى يقف وراء شهرتك فى هذه البلاد، كتاب يمثل انطلاقة، وشخصية مولى بلوم، ركز النقاد على الطريقة التى ادعيت بها، أو استخلصتِ بها، مولى من جويس، ونسبتِها لنفسك. أندهش إذا كنت قد علَّقتِ على نواياك فى هذا الكتاب، خاصة فى تحدى جويس، أحد آباء الأدب الحديث، على أرضه."

فتح آخر واضح، تستغله هذه المرة.

"نعم، إنها شخصية جذابة، أليست كذلك، مولى بلوم- أعنى بلوم جويس. تترك أثرها عبر صفحات عوليس كما تترك بغى رائحتها فى الحر. لا يمكن وصفها بالإغواء: إنها أكثر فجاجة. يلتقط الرجال الرائحة ويشمونها ويحومون حولها ويتشابكون، حتى لو لم تكن مولى فى المشهد.

"لا، لا أرى أننى أتحدى جويس. لكن هناك كتبا معينة خلاقة بسخاء تخلف مادة خصبة فى النهاية،

www.ibtesama.com

مادة تكاد تدعوك لأخذها واستخدامها لبناء شيء يخصك."

"لكنك، إليزابيث كستلو، أخرجتِ مولى من المنزل - إذا كان لى أن أستمر مع استعارتك - أخرجتِها من المنزل فى شارع إكليز حيث حاصرها زوجها وعشيقها وبمعنى ما مؤلفتها، حيث حولوها إلى نوع من ملكات النحل، عاجزة عن الطيران، أخذتموها وأطلقتموها فى شوارع دبلن. ألا ترين فى ذلك تحديا لجويس من جانبك، استجابة؟"

"ملكة نحل، بغى... لنراجع الشخصية وندعوها لبؤة، تجوب الشوارع، تشم الروائح وترى المناظر. وحتى باحثة عن فريسة. نعم، أردتُ أن أحررها من ذلك المنزل، وخاصة من غرفة النوم، بسريرها وسوسته التى تصدر صريرا، وأطلقها- كما تقولين- فى دبلن".

"إذا رأيتِ مولى - مولى جويس - سجينة فى المنزل فى شارع إكليز، هل ترين النساء عموما سجينات الزواج والحياة العائلية."

"لا يمكن أن تقصدى نساء اليوم. لكن نعم، مولى إلى حد ما سجينة الزواج، الزواج الذى كان معروضا فى أيرلندا فى ١٩٠٤ وزوجها ليوبولد سجين أيضا. إذا كان بيت الزوجية مغلقاً عليها، فالخارج كان مغلقا عليه. لدينا أوديسيوس يحاول الدخول وبِنلوب(*)

(*) أوديسيوس Odysseus: بطل الأوديسة، وبنلوب Penelope زوجة أوديسيوس التي تبقى مخلصة له طوال عشرة أعوام قضاها فى حروب طروادة.

www.ibtesama.com

تحاول الخروج. تلك هى الكوميديا، الأسطورة الكوميدية، التى نقدرها أنا وجويس بطريقتين مختلفتين."

لأن المرأتين تضعان سماعتين، وتخاطبان الميكروفون أكثر مما تخاطب كل منهما الأخرى، فمن الصعب عليه أن يرى كيف تجرى الأمور بينهما. لكنه متأثر، كالعادة، بالشخصية التى تحاول أمه أن تصورها: حس عام لطيف، خالية من الحقد، لكنها حادة الذكاء أيضًا.

تواصل المحاورة (يفكر: صوت بارد، امرأة باردة، قادرة، ليست خفيفة الوزن على الإطلاق): "أريد أن أخبرك بمدى تأثير 'منزل فى شارع إكليز' حين قرأتها أول مرة فى السبعينيات. كنتُ طالبة، درستُ كتاب جويس، تشبعتُ بالفصل الشهير عن مولى بلوم وبالأرثوذكسية النقدية التى جاءت معها، أقصد هنا أن جويس حرر الصوت الأصيل للأنوثة، الحقيقة الحسية للمرأة...إلخ. وفى ذلك الوقت قرأتُ كتابك وأدركتُ أن مولى ما كان لها أن تكون محدودة بالطريقة التى رسمها جويس لها، يمكن أن تكون فى الوقت نفسه امرأة ذكية لها اهتمام بالموسيقى ودائرة خاصة من الأصدقاء وابنة تشاركها الثقة- كانت إلهامًا، كما أقول. وبدأتُ أحتار بشأن النساء الأخريات اللائى نفكر فى أن الكُتَّاب الذكور منحوهن صوتًا، باسم ليبراليتهم، ولكن ذلك، فى النهاية، ليس إلا لتعزيز

www.ibtesama.com

فلسفة ذكورية وخدمتها. أفكر فى نساء د.هـ. لورانس بشكل خاص، ولكن إذا رجعنا أكثر ربما يشملن تس سليلة آل دربرفيل [١] وأنا كارنينا [٢] إذا اكتفينا بذكر اثنتين. إنها مسألة هائلة، لكننى أتساءل عما إذا كان لديك ما تقولين عنها - ليس عن ماريون بلوم والأخريات فقط ولكن عن مشروع استخلاص حياة النساء عموماً."

"لا، لا أظن أن هناك ما أريد قوله، أظن أنك عبَّرتِ عنه بشكل كامل. سيكون على الرجال، بالطبع، عدل العدل، أن يبدءوا استخلاص هيثيكليف[٣] وروشستر [٤] من النمطية الرومانسية أيضا، إذا تجاهلوا كزوبون [٥] العجوز البائس المغبر. سيكون ذلك مشهدًا عظيمًا. لكننا، بجدية، لا يمكن أن نواصل التطفل على الكلاسيكيات إلى ما لانهاية. لا أستثنى نفسى من المسئولية. علينا أن نبدأ القيام ببعض الابتكارات بأنفسنا."

ليس هذا فى المخطوطة على الإطلاق. رحيل آخر. إلى أين يؤدى؟ لكن للأسف، لم تلتقطه السيدة مبيوس (التى تحدق الآن فى ساعة الأستوديو).

---

(١) تس سليلة آل دربرفيل: بطل رواية توماس هاردى التى تحمل اسمها، وقد صدرت عام ١٨٩١.

(٢) أنا كارنينا: بطلة رواية تولستوى التى تحمل اسمها، صدرت بين عام ١٨٧٣ وعام ١٨٧٧.

(٣) هيثيكليف: بطل رواية «مرتفعات وذرينج»، إميلى برونتى (١٨٤٧).

(٤) روشستر: بطل رواية «جين إير»، شارلوتى برونتى (١٨٧٩).

(٥) كَزَبون: بطل رواية «منتصف مارس» جورج إليوت (١٨٧١).

www.ibtesama.com

"عدتِ فى رواياتك الأحدث إلى المَشاهِد الأسترالية. هل يمكن أن تقولى شيئًا عن رؤيتك لاستراليا؟ ماذا يعنى لك أن تكونى كاتبة أسترالية؟ تبقى استراليا بلدًا بعيدًا جدًا على الأقل بالنسبة للأمريكان. هل ذلك جزء من وعيك وأنت تكتبين: أنك تروين من الأطراف النائية؟"

"الأطراف النائية. إنه تعبير شيق. لن تجدى كثيرًا من الأستراليين فى الوقت الحاضر على استعداد لقبوله. سيقولون: ناء عن ماذا؟ وهو مع ذلك له معنى معين، حتى لو كان معنى دسه التاريخ علينا. لسنا بلد الأطراف- أقول إننا على المحيط الهادى- لكننا بلد التطرف. عشنا تطرفنا لأنه لا يوجد قدر كبير من المقاومة فى أى اتجاه. ليس هناك الكثير مما يوقفكِ إذا بدأتِ السقوط."

يعودان إلى الأشياء المعتادة، على أرضية مألوفة. يمكن أن يتوقف عن الاستماع.

نتغاضى عن المساء، وننتقل إلى الحدث الرئيسى، تسليم الجائزة. يجد نفسه كابنٍ ورفيق للمتحدثة فى الصف الأول من الحضور، بين الضيوف المتميزين. تقدم المرأة التى على يساره نفسها. تقول: "ابنتنا فى ألتونا. تكتب أطروحتها عن أمك. إنها مولعة بها. جعلتنا نقرأ كل شىء." تربتُ على رسغ الرجل الذى بجانبها. يبدو عليهما الثراء، الثراء القديم. متبرعان، بلا شك. "الناس معجبون كثيراً بأمك فى هذه البلاد، وخاصة الشباب. أتمنى أن تبلغها ذلك."

www.ibtesama.com

تكتب الشابات، عبر أمريكا كلها، أطروحات عن أمه. معجبون وأتباع وأنصار. هل تسعد أمه إذا عرفت أن لها أنصارًا بين الأمريكان؟

نتغاضى عن مشهد التسليم نفسه. إن قطع السرد كثيرا ليس فكرة طيبة، لأن حكى القصة يؤثر بهدهدة القارئ أو المستمع فى حالة تشبه الحلم حيث يسحب زمن العالم الواقعى وفضاؤه ويحل محلهما زمن الحكاية وفضاؤها. إن اقتحام الحلم يلفت الانتباه إلى بناء القصة، ويدمر الوهم الواقعى. ولكن بدون التغاضى عن بعض المشاهد سنكون هنا بعد الظهيرة. التغاضى ليس جزءا من النص، إنه جزء من الأداء.

تُترَك أمه وحدها على المنصة، وقد منحت الجائزة، لتقدم كلمة قبول الجائزة، وعنوانها فى البرنامج "ما الواقعية؟". حان الوقت لها لتعرض براعتها.

تضع إليزابيث كستلو نظارة القراءة على عينيها. تقول: "سيداتى سادتى"، وتبدأ القراءة.

"نشرتُ كتابى الأول عام ١٩٥٥ كنتُ أعيش فى لندن، وكانت فى ذلك الوقت العاصمة الثقافية العظيمة لسكان الطرف الآخر من الكرة الأرضية. أتذكر بوضوح يوم وصول الرزمة فى البريد، نسخة أولى للمؤلف. كان من الطبيعى أن أنتشى وأنا أمسك به فى يدىَّ، مطبوعًا ومجلدًا، الشىء الحقيقى، لا يمكن إنكاره. لكن شيئاً ما كان يزعجنى. تناولتُ

www.ibtesama.com

التليفون واتصلتُ بالناشرين. سألتُ: 'هل تم إيداع النسخ؟ 'ولم أشعر بالراحة حتى أكدوا لى أنها ستُرسَل بالبريد بعد ظهيرة اليوم نفسه إلى إسكتلندا ومكتبة البودلين [١] إلخ، ولكن الأهم من هذا كله إلى المتحف البريطانى. كان أقصى طموحى: أن يكون لى موضع على رفوف المتحف البريطانى، جنبًا إلى جنب مع الأسماء الأخرى التى تبدأ بحرف السى [٢] الأشخاص العظام: كارليل وتشوسر وكولريدج وكونراد. (النكتة أنه تبين أن أقرب جيرانى الأدبيين هى مارى كوريلى.)

"يبتسم المرء الآن من هذه السذاجة. إلا أنه كان وراء استفسارى القِلِق شىء خطير، ووراء تلك الخطورة بدورها شىء مثير للشفقة الاعتراف به أقل سهولة.

"دعونى أوضح. تجاهل كل نسخ الكتاب الذى كتبْتَه التى فى طريقها للهلاك- التى ستُسحق لأنه لا يوجد مشترٍ لها، التى ستفتح وتقرأ ومن صفحة أو

(١) مكتبة البودلين: المكتبة الرئيسية للبحث فى جامعة أكسفورد، واحدة من أقدم المكتبات فى أوروبا، وهى ثانية أكبر المكتبات فى إنجلترا بعد المكتبة البريطانية.

(٢) حرف السى: إشارة إلى الحرف الأول من اسم البطلة Costello، وكل الأسماء الواردة تبدأ بحرف السى؛ كارليل Carlyle (١٧٩٥ ـ ١٨٨١): مؤرخ إنجليزى؛ وتشوسر Chaucer (١٣٤٠ ـ ١٤٠٠): من أعظم الشعراء الإنجليز فى العصور الوسطى؛ وكولريدج Coleridge (١٧٧٢ ـ ١٨٣٤): شاعر وناقد إنجليزى؛ وكونراد Conrad (١٨٥٧ ـ ١٩٢٤) : روائى إنجليزى ولد فى بولندا؛ وكوريلى Corelli (١٦٥٣ ـ ١٧١٣): موسيقى إيطالى.

www.ibtesama.com

اثنتين يتثاءب قارئها ويتركها إلى الأبد، التى ستترك فى الفنادق المطلة على البحار أو فى القطارات - تجاهل كل تلك النسخ الضائعة، لابد أن نكون قادرين على الشعور بأن هناك نسخة على الأقل لن تُقرَأ فقط ولكنها ستقرأ بعناية، وتمنح بيتًا، تمنح مكانًا على الرفوف التى ستكون لها دائمًا. كان يكمن وراء اهتمامى بنسخ الإيداع الرغبة فى أن يكون لهذا الوليد الأول، حتى لو صدمتنى أنا نفسى سيارة فى اليوم التالى، بيت يمكن أن يغفو فيه، إذا شاء القدر، لمائة سنة قادمة، ولا يأتى أحد لينخسه بعصا ليرى ما إن كان لا يزال على قيد الحياة.

"كان هذا جانبًا من مكالمتى التليفونية: إذا كنتُ، هذه المحارة الهالكة، سأموت، فلأعش على الأقل خلال إبداعاتى."

تواصل إليزابيث كستلو تأمل سرعة زوال الشهرة. نتغاضى عن ذلك فورًا.

"لكن المتحف البريطانى بالطبع أو المكتبة البريطانية (الآن) لن تدوم إلى الأبد. سوف تنهار هى الأخرى أو تضمحل، وتسحق الكتب التى على رفوفها. وقبل هذا اليوم، على أية حال، بفترة طويلة، يأكل الحمض فى الورق، وتزداد الحاجة لمساحة، ستُنقَل الكتب البشعة التى لا تقرأ وغير المطلوبة بوسيلة أو أخرى وتُلقَى فى فرن، وسوف يمحى كل أثر لها من الكتالوج الرئيسى. وكأنها لم توجد أبدا.

www.ibtesama.com

"تلك رؤية بديلة لمكتبة بابل، أكثر إزعاجا لى من رؤية جورج لويس بورخيس(*) ليست مكتبة تتجاور فيها كل الكتب التى يمكن تصورها فى الماضى والحاضر والمستقبل، بل مكتبة تغيب عنها كتب تم تصورها وكتابتها ونشرها حقًا، تغيب حتى عن ذاكرة العاملين فى المكتبة.

"كان ذلك، إذًا، الجانب الآخر الأكثر مدعاة للشفقة من مكالمتى التليفونية. لا يمكن أن نعتمد على المكتبة البريطانية أو مكتبة الكونجرس أكثر من اعتمادنا على السمعة نفسها لحفظنا من النسيان. علىَّ أن أذكِّر نفسى بذلك، وأذكركم أيضًا، فى ليلتى هذه التى تدعو للزهو فى ألتونا كوليج.

"لأعد الآن إلى موضوعى، 'ما الواقعية؟'

"هناك قصة لفرانز كافكا ـ ربما تعرفونها ـ يلقى فيها قرد، تأنق لمناسبة، بكلمة لمجتمع متعلم. إنها كلمة، لكنها اختبار أيضاً، امتحان، امتحان شفوى. ليس على القرد أن يبين فقط قدرته على الكلام بلغة مستمعيه لكن عليه أيضاً أن يبين براعته فى أساليبهم وحواراتهم، وجدارته بأن يكون عضواً فى المجتمع.

"لماذا أذكركم بقصة كافكا؟ هل أنا بصدد التظاهر بأننى قردة، مقتلعة من وسطى الطبيعى، ومضطرة للتمثيل أمام جمع من الغرباء المنتقدين؟ آمل

(*) بورخيس Jorge Luis Borges (١٨٩٩ ـ ١٩٨٦): كاتب أرجنتينى اشتهر بقصصه القصيرة التى تحمل صبغة خيالية ميتافيزيقية.

www.ibtesama.com

ألا يكون الأمر كذلك. أنا واحدة منكم، لستُ من نوع مختلف.

"إذا كنتم تعرفون القصة فسوف تتذكرون أنها مكتوبة على شكل مونولوج، مونولوج لقرد. ليست هناك وسيلة فى هذا الشكل لرؤية المتحدث أو المستمعين بعين خارجية. وكما نعرف جميعًا، قد لا يكون المتحدث 'فى الواقع' قردًا، قد يكون ببساطة إنسانا يقدم نفسه، بسخرية شديدة، لأغراض بلاغية، كقرد. ويصح بالمثل، ربما لا يكون المستمعون، كما قد نتخيل، رجالا حمر الوجوه بشوارب وقد خلعوا سترات الأحراش والخوذات وارتدوا ملابس السهرة، بل جمهورا من الرفاق القرود، مدرَّب، إن لم يكن بمستوى متحدثنا، الذى يستطيع التفوه بجمل ألمانية معقدة، فعلى الأقل بمستوى أن يجلس بهدوء ويستمع؛ أو، إن لم يكن مدرَّبا إلى تلك الدرجة فسيكون مقيدًا بمقاعده ومدرَّبا على ألا يثرثر ويلتقط البراغيث ويقضى حاجته علانية.

"لا نعرف. لا نعرف ولن نعرف أبدًا، بالتأكيد، ما يحدث حقًا فى هذه القصة: إن كانت عن رجل يتحدث إلى رجال أم عن قرد يتحدث إلى قرود أم عن قرد يتحدث إلى رجال أم عن رجل يتحدث إلى قرود (مع أن هذا الاحتمال الأخير، على ما أعتقد، غير وارد) أم حتى عن ببغاء تتحدث إلى ببغاوات.

"اعتدناً أحيانًا أن نعرف. اعتدنا أن نصدق حين قال النص، 'ثمة كوب من الماء على المائدة، هناك

www.ibtesama.com

مائدة، عليها كوب من الماء، وليس علينا إلا أن ننظر فى مرآة كلمات النص لنرى.

"لكن ذلك كله انتهى. انكسرت مرآة الكلمات، بشكل لا يمكن إصلاحه، على ما يبدو. تخمينكم عما يدور حقًا فى قاعة المحاضرات رائع مثل تخمينى: رجال ورجال، رجال وقرود، قرود ورجال، قرود وقرود. قد لا تكون قاعة المحاضرات نفسها سوى حديقة حيوانات. لم تعد الكلمات تقف على الصفحات وتُعَدُّ، كل كلمة تعلن 'أعنى ما أعنى!' والمعجم الذى اعتاد أن يقف بجوار الكتاب المقدس وأعمال شكسبير على الموقد، حيث تُحفَظ الآلهة المنزلية فى بيوت الرومان الأتقياء، صار مجرد كتاب للشفرة بين كتب كثيرة.

"هذا هو الموقف الذى أظهر فيه أمامكم. لستُ، على ما آمل، أسىء للامتياز الذى تمنحه لى هذه المنصة بنكات عدمية سخيفة عن هويتى، قردة أم امرأة، وهويتكم، أيها المستمعون. ليست هذه قضية القصة، كما أقول، وأنا، مع ذلك، لستُ فى موقع أقرر فيه قضية القصة. اعتدنا أحيانًا أن نصدق حين نستطيع أن نقول من نحن. والآن نحن مجرد ممثلين نؤدى أدوارنا. غارَ القاعُ. كان يمكننا أن نفكر فى ذلك باعتباره تحولا تراجيديًا للأحداث، ولم يكن ذلك يعنى أنه من الصعب تقدير القاع الذى غار مهما يكن- يبدو لنا الآن وكأنه وهم، أحد تلك الأوهام التى لم تستقر

www.ibtesama.com

إلا بالتحديق المركَّز لكل من فى الغرفة. لا تحدقوا ولو لحظة، تسقط المرآة على الأرض وتتحطم.

"هناك إذًا سبب كافٍ يجعلنى أشعر بأننى أقل يقينًا بشأن نفسى وأنا أقف أمامكم. برغم تلك الجائزة المرموقة، التى أمتن لها امتنانًا عميقًا، برغم الوعد الذى تقدمه بأننى، وقد انضممتُ للمجموعة الشهيرة ممن حصلوا عليها قبلى، بعيدة عن قبضة الزمن الحسود، التى نعرفها جميعا، إذا كنا واقعيين، ليست سوى مسألة وقت قبل أن يكف الناس، وسيكفون فى النهاية، عن قراءة الكتب التى تقدرونها، وكان لى دور فى خلقها. الأمر كذلك حقًا. لابد أن يكون هناك حدٌّ لعبء التذكر الذى نفرضه على أبنائنا وأحفادنا. سيكون لهم عالمهم الخاص، سنكون فيه جزءا يقل تدريجيًا. شكرًا لكم."

يبدأ التصفيق بتردد، ثم مدويًا. تخلع أمه نظارتها وتبتسم. ابتسامة فاتنة: تبدو مستمتعة باللحظة. يُسمَح للممثلين بالانغماس فى التصفيق- من لا يستحقونه أو من يستحقونه- الممثلين والمطربين وعازفى الكمان. لماذا لا تكون لأمه أيضا لحظة من لحظات المجد؟

يخفت التصفيق. ينحنى العميد بروتجام على الميكروفون. "هناك بعض المرطبات-"

"معذرة!" تقاطع صوت العميد شابةٌ بصوت واضح مفعم بالثقة.

www.ibtesama.com

ثمة اضطراب فى صفوف الجمهور. تلتفت الرءوس.

"هناك بعض المرطبات فى الاستراحة ومعزض لكتب إليزابيث كستلو. التحقوا بنا هناك من فضلكم. يبقى لى - "

"معذرة!"

"نعم؟"

"عندى سؤال." ·

تقف المتحدثة: شابة فى بلوزة باللونين الأبيض والأحمر، زى ألتونا كوليج. واضح أن بروتجام ليس راضيًا. كما فقدت أمه ابتسامتها. يعرف هذا المنظر. تحملتْ ما يكفى، تريد أن تتصرف.

يقول بروتجام: "لستُ متأكدًا"، عابسًا ومتلفتًا طلبا للدعم. "خطتنا اليوم لا تسمح بطرح أسئلة. أود أن أشكر-"

"معذرة! عندى سؤال للمتحدثة. هل لى أن أخاطب المتحدثة؟"

يسود صمت. كل العيون على إليزابيث كستلو. تحدق بعيدا ببرود.

يقحم بروتجام نفسه معهما. "أود أن أشكر مسز كستلو، التى اجتمعنا الليلة لتكريمها. من فضلكم التحقوا بنا فى الاستراحة. أشكركم." ويغلق الميكروفون.

www.ibtesama.com

ثمة همهمة بكلام وهم يغادرون القاعة. حادثة، لا أقل. يستطيع أن يرى الفتاة التى ترتدى بلوزة باللونين الأبيض والأحمر أمامه فى الحشد. تسير متخشبة ومنتصبة وتبدو غاضبة. ما السؤال التى كانت ستطرحه؟ ألم يكن من الأفضل أن يجعلها تنفس عما بداخلها؟

يخشى أن يتكرر المشهد نفسه فى الاستراحة. لكن ليس هناك مشهد. غادرت الفتاة، خرجت فى الليل، ربما اندفعت إلى الخارج. إلا أن الحادث يترك مذاقًا سيئًا؛ إنه، مهما يكن، أفسد الأمسية.

ما السؤال الذى كانت ستطرحه؟ يتشاور الناس همسا. يبدو أن لديهم فكرة لاذعة. لديه هو الآخر فكرة لاذعة. شىء مرتبط بما كان متوقعًا أن تقوله إليزابيث كستلو الكاتبة الشهيرة فى مثل هذه المناسبة، ولم تقله.

يستطيع أن يرى العميد بروتجام وآخرين يفرطون فى إطراء أمه الآن، محاولين تلطيف الأمور. بعد أن استثمر الجميع المناسبة، يريدونها أن تعود إلى بلادها وهى تظن بهم وبالكلية ظنًا حسنًا. لكن عليهم أن يتطلعوا أيضا إلى عام ١٩٧٧ آملين أن تأتى لجنة ١٩٩٧ بفائز آخر.

نتغاضى عن بقية مشهد الاستراحة، وننتقل إلى الفندق.

تنسحب إليزابيث كستلو طوال الليلة. يشاهد ابنها التليفزيون فى غرفته لبعض الوقت. يشعر

www.ibtesama.com

بالتوتر وينزل إلى البهو، وكانت المرأة التى حاورت أمه فى الراديو، سوزان مبيوس، أول من يرى. تلوِّح له. معها رفيق، لكن الرفيق يرحل بسرعة، تاركًا الاثنين وحدهما.

يجد سوزان مبيوس جذابة. ترتدى ملابس أنيقة، أفضل مما تسمح به تقاليد الأكاديمية عادة. شعرها طويل ذهبى فاتح؛ تجلس معتدلة فى مقعدها، رافعة كتفيها؛ وهى تهز شعرها تأتى الحركة بشكل ملكى تماماً.

يتجنبان أحداث الأمسية. ويتحدثان بدلا من ذلك عن إحياء الراديو كوسيط ثقافى. يقول جون: "كان لقاؤك مع أمى شيقًا. أعرف أنك كتبتِ كتابًا عنها، لم أقرأه لسوء الحظ. هل لديك أفكار طيبة تطرحينها عنها؟"

"أؤمن بذلك. إليزابيث كستلو كاتبة رئيسية فى عصرنا. كتابى ليس عنها وحدها، لكنها ممثَّلة فيه بقوة."

"كاتبة رئيسية... هل قلتِ إنها كاتبة رئيسية بالنسبة لنا جميعًا، أم بالنسبة للنساء فقط؟ انتابنى إحساس أثناء اللقاء أنك ترينها فقط كامرأة كاتبة أو كاتبة للمرأة. هل كنت تعتبرينها كاتبة رئيسية إذا كانت رجلا؟"

"إذا كانتْ رجلا؟"

"أجل: إذا كنتِ رجلا؟"

www.ibtesama.com

"إذا كـنتُ رجلا؟ لا أعـرف. لم أكن رجلا أبـدًا. سوف أخبرك حين أحاول ذلك."

يبتسمان. من المؤكد أن هناك شيئاً ما فى الجو.

يؤكد: "لكن أمى كانت رجلا. وكانت كلبًا أيضًا. يمكنها أن تفكر بطريقتها فى الآخرين، فى الكائنات. قرأتُها. أعرف. يمكنها ذلك. أليس هذا أكثر أهمية بالنسبة للقصة: أن تأخذنا خارج أنفسنا، إلى حيوات أخرى؟"

"ربما. لكن تبقى أمك امرأة مع ذلك. مهما تفعل، تفعله كامرأة. تسكن شخصياتها كما تفعل امرأة، لا كما يفعل رجل."

"لا أرى ذلك. أجد رجالها قابلين للتصديق تماماً."

"لا ترى لأنك لا ترى. لا يمكن أن ترى إلا امرأة. إنه شىء بين النساء. إذا كان رجالها قابلين للتصديق، رائع، أنا سعيدة بسماع ذلك، لكنها محاكاة فى النهاية. النساء بارعات فى المحاكاة، أبرع من الرجال. حتى فى المحاكاة الساخرة. لمستنا أخف."

تبتسم مرة أخرى. يبدو أن شفتيها، شفتيها الرقيقتين، تقولان: **انظر كيف يمكن أن تكون لمستى خفيفة.**

يقول: "إذا كان لديها محاكاة ساخرة، أعترف بأنها أرق من أن أدركها." صمت طويل. يقول فى

www.ibtesama.com

النهاية: "هذا ما تعتقدين إذًا، إننا، رجالا ونساء، نعيش حيوات متوازية، أى إننا لن نلتقى أبدا فى الحقيقة."

تغير مغزى الحديث. ما عادا يتحدثان عن الكتابة، إن كانا قد تحدثا عنها على الإطلاق.

تقول: "ماذا تعتقد؟ ماذا تقول لك خبرتك؟ وهل مثل هذا الاختلاف أمر سيئ؟ إذا لم يكن هناك اختلاف، ماذا يحدث للرغبة؟"

تنظر فى عينه بشكل صريح. حان وقت الانصراف. يقف؛ تضع كوبها، وببطء تقف أيضاً. أخذها من كوعها وهى تمر به، ومع اللمسة تسرى رعدة فى جسده، تربكه. الاختلاف؛ إ ان المتضادان. منتصف الليل فى بنس يا: ما الوقت فى ملبورن؟ ماذا يفعل فى هذه القارة الغريبة؟

وحدهما فى المصعد. ليس المصعد الذى استخدمه هو وأمه. ما الشمال وما الجنوب فى هذا الفندق سداسى الشكل، خلية النحل هذه؟ يضغط المرأة إلى الحائط، يقبلها، ويتذوق الدخان فى نفَسها. بحث: هل سيكون ذلك اسمها فيما بعد؟ **مستخدمًا مصدرًا ثانويًا**؟ يقبلها مرة أخرى، تقبله بدورها، تقبيل اللحم للحم.

إنهما فى الطابق الثالث عشر؛ يتبعها فى الممر، تنحرف يمينًا ويسارًا حتى يتوه. جوهر الخلية: هل هذا ما يبحثان عنه؟ غرفة أمه ١٢٥٤ غرفته ١٢٢٠

www.ibtesama.com

غرفتها ١٣٠٧ . يندهش لوجود رقم كهذا. كان يعتقد أن الطابق الرابع عشر يلى الطابق الثانى عشر، وأن ذلك هو نظام عالم الفنادق. أين الغرفة ١٣٠٧ بالنسبة للغرفة ١٢٥٤ :شمال، جنوب، غرب، شرق؟

نتغاضى عن ذلك فورا، نتغاضى عن هذا الوقت فى النص وليس فى الأداء.

حين يستعيد التفكير فى تلك الساعات، تعود لحظة بقوة مفاجئة، اللحظة التى تزل فيها ركبتها تحت ذراعه وتنثنى تحت إبطه. ومما يثير الفضول أن تسيطر لحظة واحدة على ذكرى مشهد كامل، لحظة ليست كبيرة الأهمية، إلا أنها واضحة حتى أنه يكاد يشعر بشبح الفخذ على جلده. هل يفضل العقل بطبيعته الأحاسيس على الأفكار، الملموس على المجرد؟ أم أن انثناء ركبة امرأة مجرد محفز للذاكرة، منه تتكشف بقية الليلة؟

يتمددان فى الظلام متلاصقين، فى نَصِّ الذاكرة، يتحدثان.

تسأل: "هكذا: هل كانت زيارة ناجحة؟"

"فى رأى من؟"

"رأيك."

"رأيى لا يهم. جئتُ من أجل إليزابيث كستلو. المهم رأيها. نعم، ناجحة. ناجحة بما يكفى."

"هل أتبين لمسة مرارة؟"

www.ibtesama.com

"لا. أنا هنا للمساعدة- هذا كل ما فى الأمر."

"هذا رائع منك. هل تشعر أنك مدين لها بشىء؟"

"نعم. واجب الابن. شعور طبيعى تمامًا بين البشر."

تعبث فى شعره. تقول: "لا تمانع."

"لا أمانع."

تزحف بجانبه، تداعبه. تهمهم: "ناجحة بما يكفى- ما معنى ذلك؟" ليست مستسلمة. لابد من دفع ثمن لهذا الوقت فى سريرها، لما يعتبر غزوًا.

"لم ينجح الحديثُ. إنها خائبة الرجاء نتيجة لذلك. بذلتِ جهدًا كبيرًا فيه."

"لم يكن هناك عيب فى الحديث نفسه. لكن العنوان لم يكن مناسبًا. وكان عليها ألا تعتمد على كافكا فى التوضيحات. هناك نصوص أفضل."

"هناك؟"

"نعم، أفضل، وأكثر ملاءمة. هذه أمريكا التسعينيات. لا يريد الناس أن يسمعوا أعمال كافكا مرة أخرى."

"ماذا يريدون أن يسمعوا؟"

تهز كتفيها. "شيئًا شخصيًا أكثر. ليس من الضرورى أن يكون حميمًا. لكن الجمهور لم يعد يتفاعل جيدًا مع تحصن الذات بهذا الشكل التاريخى الكثيف. قد يقبلونه من رجل على مضض، لكنهم لا

www.ibtesama.com

يقبلونه من امرأة. ليس على المرأة أن تلبس كل تلك الدروع."

"ويلبسها رجل؟"

"قلْ لى. إذا كانت مشكلة، فهى مشكلة ذكورية. لم نمنح الجائزة لرجل."

"هل وضعتم فى الاعتبار احتمال أن أمى ربما تجاوزت مسألة الرجل-المرأة؟ ربما استكشفتها بكل أبعادها، وهى الآن تسعى إلى مباراة أكبر؟"

"مثل؟"

تتوقف اليد التى كانت تداعبه. اللحظة مهمة، يستطيع أن يشعر بها. إنها فى انتظار إجابته، المدخل المفضل الذى يَعِد به. يستطيع أيضًا أن يشعر برجفة اللحظة، كهربية، متهورة.

"مثل مقارنة نفسها بالموتى البارزين. مثل دفع إتاوة للقوى التى تحييها. على سبيل المثال."

"هل هذا ما تقوله؟"

"ألا تعتقدين أن ذلك ما كانت تفعله طوال حياتها: مقارنة نفسها بالأساتذة؟ أليس هناك أحد فى مهنتك يعرف ذلك؟"

يجب ألا يتكلم بهذه الطريقة. عليه ألا يتدخل فى شئون أمه. إنه فى سرير هذه الغريبة ليس لجمال عينيه الزرقاوين ولكن لأنه ابن أمه. إلا أنه هنا يفشى السر بسذاجة! لابد أن الجاسوسات يعملن على هذا

www.ibtesama.com

النحو. لا لبس فى ذلك. لا يتم إغواء الرجل لأن له إرادة تقاوم هذه السيطرة البارعة، ولكن لأن استسلامه للإغواء متعة فى ذاتها. يذعن المرء من أجل الإذعان.

يستيقظ مرة فى الليل، غارقًا فى الحزن، حزن عميق يمكن أن يجعله يصرخ. يلمس بخفة الكتف العريان للمرأة التى بجواره، لكنها لا تستجيب. يمرر يده على جسدها: ثديها، خصرها، وركها، فخذها، ركبتها. بارعة فى كل شىء، لا شك فى ذلك، لكن بطريقة مكشوفة لم تعد تحركه.

يرى أمه فى سريرها الكبير الذى يسع شخصين، جاثمة، وركبتاها إلى أعلى، وظهرها مكشوف. من ظهرها، من اللحم المغضن لعجوز، تبرز ثلاث إبر: ليست إبرا ضئيلة من التى يستخدمها أخصائى العلاج بالإبر أو طبيب الودونية (*) لكنها إبر رمادية سميكة، من الصلب أو البلاستيك: إبر خياطة. لم تقتلها الإبر، لا حاجة للقلق بشأن ذلك، إنها تتنفس بانتظام فى نومها. إلا أنها ترقد مطوَّقة.

من فعلها؟ من قد يكون فعلها؟

يفكر، مثل هذه الوحدة، يرفرف بالروح على المرأة العجوز فى غرفتها العارية. قلبه يتحطم: يتدفق الحزن مثل شلال رمادى خلف عينيه. كان عليه ألا

(*) الودونية Voodoo, voodooism: دين منتشر فى دول الكاريبى وخاصة هايتى ويعتمد فى الأساس على السحر والعرافة.

www.ibtesama.com

يأتى إلى هنا أبدًا، إلى الغرفة ١٢ مهما تكن. نقلة خطأ. عليه أن ينهض فى الحال، يتسحب خارجًا. لكنه لا يفعل. لماذا؟ لأنه لا يريد أن يكون وحيدًا. ولأنه يريد أن ينام. يفكر: ينام، ذلك يرفو كمَّ الرعاية المنسول. يا لها من طريقة غريبة فى التعبير عن الأمر! لا يمكن أن تأتى كل قرود العالم التى تنقر الآلات الكاتبة طوال حيواتها بمثل تلك الكلمات بذلك الترتيب. ينبثق من الظلام، من حيث لا أحد يعرف: ليس هناك فى البداية، ثم هناك، مثل طفل حديث الولادة، القلب يعمل، المخ يعمل، كل عمليات تلك المتاهة الكهربية الكيميائية المعقدة. معجزة. يغلق عينيه.

فجوة.

إنها، سوزان مبيوس، هناك بالفعل حين ينزل لتناول الإفطار. ترتدى ملابس بيضاء، تبدو مستريحة ومطمئنة. ينضم إليها.

تأخذ شيئًا من محفظتها وتضعه على الطاولة: ساعته. تقول: "مقدِّمة ثلاث ساعات."

يقول: "ليست ثلاث. إنها خمس عشرة. توقيت كَنبرَّا" (*)

تستقر عيناها فى عينيه، أو عيناه فى عينيها. خضراوين منقطتين. يشعر بصراع. قارة غير مكتشفة، يوشك أن يغادرها! ينطلق فى أعماقه ألم، ألم بسيط نتيجة الفقد. ألم لا يفتقر إلى لذة، مثل مستويات

(*) كنبرا: مدينة تقع فى جنوب شرق استراليا.

www.ibtesama.com

معينة من ألم الأسنان. يمكن أن يتصور شيئًا خطيرًا تمامًا فى هذه المرأة، التى من المحتمل ألا يراها مرة أخرى.

تقول: "أعرف فيما تفكر. تفكر فى أننا لن نلتقى مرة أخرى. تفكر فى أنه استثمار ضائع."

"ماذا تعرفين أيضًا؟"

"تفكر فى أننى أستغلك. تفكر فى أننى كنتُ أحاول الوصول إلى أمك عن طريقك."

تبتسم. ليست حمقاء. لاعبة قديرة.

يقول: "نعم، لا." يسحب نفَسًا عميقًا. "أقول لك فيما أفكر حقًا. أفكر فى أن السر الإلهى فى الإنسان، حتى لو لم تعترفى بذلك، يحيرك. تعرفين أن هناك شيئًا خاصًا عن أمى- هذا ما يشدك إليها- إلا أنك حين تقابلينها ترين أنها مجرد عجوز عادية. لا يمكنك التوفيق بين الأمرين. تريدين تفسيرًا. تريدين مفتاحا، علامة، منى إن لم يكن منها. هذا ما يجرى. حسنا، لا أبالى."

كلمات غريبة تقال أثناء الإفطار، أثناء تناول القهوة والتوست. لم يعرف أن هذه الأمور فى رأسه.

"أنت ابنها حقا، أليس كذلك. هل تكتب أيضًا؟"

"تقصدين، هل يمسنى الإله؟ لا. لكن نعم، أنا بنها. لستُ لقيطًا، ولستُ ابنها بالتبنى. أتيتُ من حدها حقًا، مواء."

www.ibtesama.com

"ولك أخت؟"

"أخت غير شقيقة، من المكان نفسه. الشيء الحقيقي، كلانا. لحم من لحمها، ودم من دمها."

"ولم تتزوج أبدًا."

"خطأ. متزوج وغير متزوج. ماذا عنك؟"

"لى زوج. زوج، وطفل، وزواج سعيد."

"هذا رائع إذًا."

لم يعد هناك ما يقال.

"هل ستسنح لى فرصة لتوديع أمك؟"

"يمكنك لقاؤها قبل اللقاء التليفزيونى. فى العاشرة، فى قاعة الرقص."

فجوة.

اختار مسئولو التليفزيون قاعة الرقص بسبب الستائر المخملية الحمراء. وضعوا لأمه أمام الستائر مقعدًا مزخرفًا إلى حد ما، ومقعدًا أكثر بساطة للمرأة التى ستحاورها. على سوزان، حين تأتى، أن تقطع الغرفة بطولها. إنها مستعدة للسفر؛ على كتفها حقيبة من الجلد؛ مشيتها بسيطة وواثقة. مرة أخرى، يأتى الألم، ألم الفقد القادم، خفيفًا مثل لمسة فرشاة من الريش.

تقول سوزان، وهى تصافح يد أمه: "كان شرفًا عظيمًا أن أتعرف عليك، مسز كستلو."

www.ibtesama.com

تقول أمه: "إليزابيث. مع الاعتذار للعرش."

"إليزابيث."

تقول سوزان: "أريد أن أقدم لك هذا"، وتخرج كتابًا من حقيبتها. على الغلاف صورة لامرأة فى ثياب إغريقية قديمة، فى يدها لفافة. عنوانه: **استقراء التاريخ: النساء والذاكرة**. بقلم سوزان كيى مبيوس.

تقول أمه: "أشكرك، أتطلع لقراءته."

يبقى من أجل اللقاء، يجلس فى ركن، يشاهد أمه وهى تتحول إلى الشخصية التى يريدها التليفزيون. كل الغرائب التى رفضت التفوه بها فى الليلة الماضية يُسمَح لها بالخروج: التحولات الحادة، قصص الطفولة فى المناطق الاسترالية النائية ("عليك أن تدركى مدى اتساع أستراليا. إننا مجرد براغيث على ظهر أستراليا. نحن المستوطنين الجدد")، قصص عن عالم السينما، عن الممثلين والممثلات التى التقت بهم، عن معالجات كتبها وما تعتقده بشأنها ("الفيلم وسيط تبسيطى. تلك طبيعته؛ ربما تعلمتِ أيضًا أن تتقبليها. إنه يؤثر على نطاق واسع"). ويلى ذلك نظرة على العالم المعاصر ("يسعدنى أن أرى عددًا كبيرًا من الشابات القويات من حولنا يعرفن ما يردن"). تذكر حتى مشاهدة الطيور.

يُترك كتاب سوزان مبيوس خلفها بعد اللقاء. هو الذى يلتقطه من تحت المقعد.

تهمهم: "أتمنى ألا يعطينى الناس كتبًا. أين أجد مكانًا لها؟"

www.ibtesama.com

"لدىَّ مكان."

"تأخذه إذًا. احتفظ به. أنت الشخص الذى كانت تسعى وراءه حقًا، لا أنا."

يقرأ الإهداء: "إلى إليزابيث كستلو، مع الامتنان والإعجاب". يقول: "أنا؟ لا أظن ذلك. كنتُ مجرد"- يتلعثم صوته بوضوح- "بيدق فى المباراة. تحبك أنت وتكرهك أنت."

يتلعثم بوضوح؛ لكن أول كلمة تبادرت إلى ذهنه لم تكن "بيدق"، كانت "قلامة". قلامة ظفر إصبع القدم، يسرقها المرء ويلفها فى منديل ويأخذها بعيدا، لأغراضه الخاصة.

أمه لا ترد. لكنها تبتسم له، ابتسامة سريعة ومفاجئة، ابتسامة- لا يستطيع أن يراها بشكل آخر- انتصار.

تنتهى مهامهما فى وليمز تاون. يحزم طاقم التليفزيون أدواته. فى نصف ساعة سيأخذهما التاكسى إلى المطار. فازت، إلى حد ما. على حلبة أجنبية أيضًا. فازت خارج ملعبها. يمكنها أن تعود إلى بلادها بذاتها الحقيقية سليمة، مخلفة وراءها صورة، زائفة، مثل كل الصور.

ما حقيقة أمه؟ لا يعرف، ولا يريد، على أعمق مستوى، أن يعرف. إنه هنا، ببساطة، ليحميها، ليسد الطريق على صيادى التذكارات والأجلاف والحجاج العاطفيين. له آراؤه الخاصة، لكنه لا يفصح عنها. قد

www.ibtesama.com

يقول إذا كان له أن يفصح: **هذه المرأة، التى تتعلقون بكلماتها كما لو كانت عرافة، هى المرأة ذاتها التى اختفت، منذ أربعين عامًا، يومًا بعد يوم فى غرفتها فى هَمْبستيد(*) باكية على نفسها، وزاحفة فى الأمسيات إلى الشوارع المعتمة لتشترى السمك والشيبسى، التى كانت تعيش عليهما، ويغلبها النوم وهى فى ملابسها. إنها المرأة ذاتها التى أثارت بعد ذلك عاصفة فى المنزل فى ملبورن، وشعرها يطير فى كل الاتجاهات، صارخة فى طفليها، 'تقتلاننى! تمزقان اللحم من جسدى!'** رقد بعد ذلك فى الظلام مع أخته، يهدئها وهى تنشج بالبكاء؛ كان فى السابعة؛ كان إحساسه الأول بالأبوة.) **هذا هو العالم السرى للكاهنة. كيف تأملون فى فهمها قبل أن تعرفوا حقيقتها؟**

لا يكره أمه. (وهو يفكر فى هذه الكلمات، يتردد صدى كلمات أخرى فى ذهنه: كلمات إحدى شخصيات وليم فوكنر، يؤكد بتكرار جنونى أنه لا يكره الجنوب. شخصية مَنْ؟) على العكس تمامًا. لو كرهها لابتعد عنها تمامًا منذ زمن. لا يكرهها. يقوم بالخدمة على مزارها، يطهر ما حدث من اضطراب بعد اليوم المقدس، يكنس البتلات، ويجمع القرابين، ويضع قروش الأرامل معا، جاهزة للبنك. قد لا يشارك فى نوند. لكنه يتعبد أيضًا.

---

* همبستيد Hampstead: ضاحية من ضواحى لندن يسكنها عدد كبير من الأثرياء.

www.ibtesama.com

محامٍ من أجل المقدَّس. لكن "عرافة" ليست الكلمة المناسبة لوصفها. ولا "الكاهنة". إنهما كلمتان إغريقيتان رومانيتان جدًا. ليست أمه فى القالب الرومانى الإغريقى. التبت أو الهند أقرب إليها: إله تجسد فى طفل، يتحرك على عجلات من قرية إلى قرية ليتلقى التحية والتبجيل.

إنهما فى التاكسى، يقطعان شوارع لها نكهة شوارع على وشك أن تنسى.

تقول أمه: "هكذا. فرار نظيف."

"أؤمن بذلك. هل حصلتِ على الشيك فى أمان؟"

"الشيك والميدالية وكل شىء."

فجوة. إنهما فى المطار، على البوابة، فى انتظار الإعلان عن الطائرة التى ستقلهما إلى المرحلة الأولى من رحلتهما إلى بلادهما. تُعزف شاحبة على رأسيهما، مع صوت المحركات الفجة، نسخة من **سرينادا بسيطة**(*) تجلس أمامهما امرأة تأكل فشارًا من علبة من الورق، بدينة لدرجة أن أصابع قدميها تصل إلى الأرض بالكاد.

يقول: "هل يمكن أن أسألك عن شىء؟ لماذا تاريخ الأدب؟ ولماذا هذا الفصل المقيت فى تاريخ الأدب؟ الواقعية: لا أحد فى هذا المكان يريد أن يسمع شيئًا عن الواقعية."

تعبث فى محفظتها، ولا يصدر عنها أى رد.

(*) سرينادا بسيطة (السرينادا لحن يعزف ليلاً فى الهواء الطلق): من أشهر مؤلفات موتسارت (١٧٨٧)، بالألمانية فى الأصل.

www.ibtesama.com

يواصل: "حين أفكر فى الواقعية، أفكر فى فلاحين تجمدوا وتحولوا إلى كتل من الثلج. أفكر فى النرويجيين، الذين تنبعث روائح كريهة من ملابسهم الداخلية. ما سبب اهتمامك بها؟ وأين موضع كافكا منها؟ ما علاقة كافكا بهذا كله؟"

"بماذا؟ بالملابس الداخلية التى تنبعث منها روائح كريهة؟"

"نعم. بالملابس الداخلية التى تنبعث منها روائح كريهة. بالناس الذين يحفرون فى أنوفهم. ألا تكتبين عن شىء من هذا القبيل. لم يكتب كافكا عنه."

"لا، لم يكتب كافكا عن ناس يحفرون فى أنوفهم. لكن كافكا كان لديه وقت ليتساءل أين وكيف كان قرده المسكين المتعلم سيعثر على رفيقته. وعن معنى أن تحمله فى الظلام فى حيرة أنثى شبه خجولة أرسلها رعاته من أجله. قرد كافكا منغمس فى الحياة. الانغماس هو المهم، لا الحياة نفسها. قرد منغمس مثلما نحن منغمسون، أنتَ فىَّ، وأنا فيك. يتم تتبع ذلك القرد إلى النهاية، النهاية المريرة التى لا تقال، سواء تُركتْ آثار على الصفحة أم لم تُترَكْ. يبقى كافكا مستيقظا أثناء الفجوات التى ننام أثناءها. ها هنا موضع كافكا منها."

تنظر المرأة البدينة إليهما مباشرة، تتنقل عيناها الصغيرتان بينهما: المرأة العجوز بمعطف المطر والرجل الأصلع بعض الشىء الذى يمكن أن يكون به. يتشاجران بلهجة مضحكة.

www.ibtesama.com

يقول: "حسنًا، إذا كان ما تقولين صحيحًا، فهو بغيض. حراسة حديقة حيوانات، ليست كتابة."

"ماذا تفضل؟ حديقة حيوانات بدون حراس، حيث تغرق الحيوانات فى غيبوبة وأنت تنظر إليها؟ حديقة حيوانات أفكارٍ. قفص غوريلا فيه فكرة غوريلا، قفص فيل فيه فكرة الفيلة؟ هل تعرف كم كيلوجرام من المخلفات الصلبة يخرجها فيل فى أربع وعشرين ساعة؟ إذا أردتَ قفصا لفيل حقيقى به فيلة حقيقية فستحتاج حارس حديقة حيوانات لينظف وراءها."

"تخرجين على الموضوع يا أمى. لا تثورى هكذا." يتحول إلى المرأة البدينة: "نتناقش فى الأدب، دعاوى الواقعية مقابل دعاوى المثالية."

تبعد المرأة البدينة عينيها عنهما بدون أن تتوقف عن المضغ. يفكر فى اجترار الذرة المهروسة واللعاب فى فمها ويرتجف. أين ينتهى هذا كله؟

يبدأ من جديد: "هناك فرق بين التنظيف وراء الحيوانات ومشاهدتها وهى تؤدى دورها، أسأل عن الأخيرة، لا الأولى. هل تستحق الحيوانات حياة خاصة بقدر ما نستحقها؟"

تقول: "لا إذا كانت فى حديقة حيوانات، لا إذا كانت فى عرض. بمجرد أن تكون فى عرض، لا تكون لك حياة خاصة. على أية حال، هل تطلب إذنا من النجوم قبل أن ترصدها بتليسكوبك؟ ماذا عن الحياة الخاصة للنجوم؟"

www.ibtesama.com

"أمى، النجوم كتل من الصخور."

"هل هى كذلك؟ اعتقدتُ أنها كانت آثار ضوء عمرها ملايين السنين."

يقول صوت فوق رأسيهما: "ستقلع الآن على الخطوط الجوية المتحدة الرحلة رقم ٣٢٢ ولن تتوقف حتى لوس أنجلوس. على الركاب الذين يحتاجون إلى مساعدة والأسر التى معها أطفال أن يتقدموا."

تمس طعامها بالكاد على الطائرة. تطلب كأسين من البراندى واحدة بعد الأخرى، وتستغرق فى النوم. لا تزال نائمة حين تبدأ الطائرة الهبوط إلى لوس أنجلوس بعد ساعات. "ماما، حزام المقعد." لا تتحرك. يتبادلان النظرات، هو ومراقب الرحلة. ينحنى ويربط الحزام على بطنها.

تستلقى مائلة بعمق فى مقعدها. رأسها على جانب، وفمها مفتوح. تصدر شخيرًا واهيًا. يومض الضوء من النوافذ والطائرة تميل، الشمس رائعة على جنوب كاليفورنيا. يستطيع أن يرى أعلى منخريها، وداخل فمها، حتى خلف حنجرتها. وما لا يستطيع رؤيته يتخيله: المرىء، وردى بشع، ينقبض وهى تبلع، مثل ثعبان، ساحبا الأشياء إلى كيس البطن الذى يشبه الكمثرى. يبتعد، يربط حزامه، يجلس، متطلعًا إلى الأمام. يقول لنفسه: لا، لم آت من هنا، ليس من هذا البطن.

●●●

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

(٢)
الرواية فى إفريقيا

تقابلُ، فى حفل العشاء، (س) الذى لم تره منذ سنوات. تسأل، هل مازال يدرِّس فى جامعة كوينزلاند[١] يرد، لا، تقاعد وهو الآن يشغِّل يعمل على سفن سياحية، يسافر عبر العالم، ويشاهد الأفلام القديمة، ويحدث المتقاعدين عن برجمان[٢] وفلّينى[٣] لم يندم على التنقل أبدا. "الأجر جيد، ترين العالم، وأناسا ـ تعرفين ماذا؟ ـ يشيخون، يستمعون حقا لما تقولين؟" يحثها على المحاولة: "أنت شخصية بارزة، كاتبة شهيرة. سفن الرحلات التى أعمل لها ستنتهز فرصة لاصطحابك عليها. ستكونين ريشة فى قبعتهم. انطقى ولو بكلمة وسأحل المسألة مع صديقى مدير.

---

١ كوينزلاند Queensland: ولاية أسترالية، تحتل الركن الشمالى الشرقى من القارة.

٢ برجمان Ingram Bergman (١٩١٨ ـ ٢٠٠٧) مخرج سينمائى ومسرحى سويدى، له تأثير كبير على السينما العالمية.

٣ فلّينى Federico Fellini (١٩٢٠ ـ ١٩٩٣) مخرج إيطالى، من كبار صناع السينما تأثيرا وتبجيلا فى القرن العشرين.

www.ibtesama.com

يجذبها العرض. كانت آخر مرة على سفينة فى١٩٦٣ حين عادت إلى وطنها من إنجلترا، من الوطن الأم. وبعد ذلك مباشرة بدءوا يتخلون عن السفن الكبيرة التى كانت تقطع المحيطات بانتظام، واحدة بعد الأخرى، ويحولونها إلى خردة. نهاية عصر. لم تهتم بأن تفعل ذلك ثانية، أن تسافر بحرًا. تود أن تزور جزيرة عيد الفصح (١) وسانت هيلانة (٢) حيث أصاب نابليون الوهن. تود أن تزور أنتركتيكا (٣) لا لترى فقط بعينيها تلك الآفاق الرحبة، تلك الأرض القاحلة، ولكن لتضع قدمها على سابع القارات وآخرها، وتشعر بما يشعر به كائن حى يتنفس فى فضاءات برد غير إنسانى.

(س) طيب مثل كلمته. يأتى فاكس من مركز قيادة خطوط سكاندیا فى استكهولم. ستبحر "الأضواء الشمالية" فى ديسمبر من كريستشارش (٤)

---

(١) جزيرة عيد الفصح :Easter Island تقع فى جنوب المحيط الهادى، وتتبع شيلى، وتشتهر بالتماثيل الحجرية بطول شواطئها.

(٢) جزيرة سانت هيلانة :St. Helena Island تقع فى المحيط الأطلنطى، على بعد ١٩٣٠ كم من الساحل الجنوبى الغربى لإفريقيا، وقد قضى فيها نابليون سنواته الأخيرة (١٨١٥ - ١٨٢١).

(٣) أنتركتيكا Antarcticaأو القارة القطبية الجنوبية: سابعة القارات، تقع على القطب الجنوبى، خامسة القارات مساحة (أكبر من أوروبا وأكبر من آسيا). يغطى الجليد حوالى ٩٨٪ من مساحة القارة، بسمك يصل إلى ١٢ ألف قدم.

(٤) كريستشارشChristchurch: مدينة ساحلية فى نيوزيلاند، أكبر مدن الجزيرة الجنوبية.

www.ibtesama.com

فى رحلة تستغرق خمسة عشر يوما إلى الروس آيس شيلف[1] ومن هناك إلى كيب تاون. هل تستمتع بمرافقة مجموعة التعليم والترفيه؟ المسافرون على سفن رحلات سكاندیا، كما تعبر الرسالة، "أشخاص متميزون يهتمون براحتهم". سيركز برنامج الرحلة على رسالة فى علم الطيور وإيكولوجيا[2] المياه الباردة، لكن مما يسعد سكاندیا أن تجد الكاتبة المرموقة إليزابيث كستلو الوقت لتقديم دروس قصيرة عن الرواية المعاصرة، على سبيل المثال. وفى المقابل، ولجعلها قريبة من المسافرين، ستمنح غرفة فى الدرجة الأولى، بكل التكاليف، ورحلتين بالطيران إلى كريستشارش ومن كيب تاون، بالإضافة إلى مكافأة شرفية قيمة.

عرض لا يمكن أن ترفضه. تركب السفينة فى صباح العاشر من ديسمبر فى ميناء كريستشارش. تجد كابينتها صغيرة لكنها مُرْضية تماما؛ الشاب منسق الترفيه وبرنامج التنمية الذاتية شخص محترم؛ المسافرون الذين يجلسون على طاولتها وقت الغداء، أناس معظمهم متقاعدون، أناس من جيلها، لطاف ومتبسطون.

فى قائمة المحاضرين المشاركين لا يوجد سوى اسم واحد تعرفه: إيمانويل إجودو، كاتب من نيجيريا.

---

[1] روس آيس شيلف Ross Ice Shelf: منطقة واسعة فى أنتركتيكا على بحر روس (لسان فى جنوب المحيط الهادى).

[2] إيكولوجيا ecology: علم دراسة العلاقة بين الكائنات وبيئاتها.

www.ibtesama.com

تعارفا منذ سنوات أبعد من أن تهتم بتذكرها، فى مؤتمر الكُتَّاب فى كوالالامبور. كان إجودو صارخًا ونارياً وسياسيًا؛ كان انطباعها الأول أنه مدَّعٍ. ولم تغير رأيها بقراءته بعد ذلك. لكنها تتساءل الآن، مدَّعٍ: ما معنى ذلك؟ الشخص الذى يبدو على غير حقيقته؟ من منا يبدو على حقيقته، هل تبدو على حقيقتها؟ وعلى أية حال، قد تكون الأمور مختلفة فى إفريقيا. فى إفريقيا، قد يكون ما يعتبره المرء تكلفًا، وما يعتبره تفاخرًا، مجرد رجولة. مَن هى لتحكم؟

تلاحظ أنها تصبح، كلما كبرت، ألطف تجاه الرجال، بما فيهم إجودو. غريب، لأنها صارت فى نواحٍ أخرى (تختار الكلمة بعناية) لاذعة أكثر.

تقابل إجودو فى حفل الكوكتيل الذى أقامه الكابتن (صعد متأخرا). كان يرتدى داشيكى(*) أخضر فاقعًا، وحذاء إيطاليًا أنيقًا؛ لحيته بها نقط رمادية، لكنه مازال صورة رائعة لرجل. يبتسم لها ابتسامة عريضة، ويضمها فى عناق. يتعجب: "إليزابيث! رائع أن أراك! لم أكن أعرف! لدينا الكثير مما ننهمك فيه!"

يبدو أننا ننهمك فى قاموسه نعنى الحديث عن أنشطته. يخبرها بأنه لم يعد يقضى وقتا طويلا فى وطنه. صار، بتعبيره، "معتادا على المنفى، مثل المعتاد على الجريمة". حصل على أوراق أمريكية؛ يكسب قوته من حلقات المحاضرات، حلقات يبدو أنها امتدت

(*) داشيكى: رداء إفريقى فضفاض زاهى اللون يغطى الجزء العلوى من الجسم.

www.ibtesama.com

لتشمل سفن الرحلات. هذه رحلته الثالثة على "الأضواء الشمالية". يجدها مريحة حقًا؛ يسترخى فيها تمامًا. يقول، من كان يخمن أن ولدًا قرويًا من إفريقيا ينتهى به الحال إلى مثل هذا، فى حضن الرفاهية؟ يبتسم لها، مرة أخرى، ابتسامته الكبيرة، الابتسامة المميزة.

تود لو تقول: **أنا نفسى فتاة قروية**، لكنها لا تقول، مع أن هذا صحيح، جزئيًا. **لا امتياز فى أن تكون قرويًا**.

يتوقع من كل عضو فى لجنة الترفيه أن يلقى كلمة قصيرة على الملأ. "مجرد أن تقول من أنت، ومن أين تأتى"، يشرح المنسق الشاب فى إنجليزية يختارها بعناية. اسمه مايكل؛ طوله رائع، أشقر، بالطريقة السويدية، لكنه كالح، كالح جدًا بالنسبة لذوقها.

يُعلَن عن كلمتها بعنوان "مستقبل الرواية"، وعن كلمة إجودو بعنوان "الرواية فى إفريقيا". من المقرر أن تلقى كلمتها فى صباح اليوم الأول فى البحر؛ وكلمته بعد ظهيرة اليوم نفسه. وفى المساء "حياة الحيتان"، فى تسجيلات صوتية.

يقوم مايكل نفسه بالتقديم. يدعوها "الكاتبة الإسترالية الشهيرة، مؤلفة '**منزل فى شارع إيكلز**' وروايات أخرى كثيرة، التى نتشرف حقًا بوجودها بيننا." يغيظها أن تُعرَّف مرة أخرى بأنها مؤلفة كتاب ألفته منذ زمن بعيد، لكن لا حيلة لها فى الأمر.

www.ibtesama.com

"مستقبل الرواية" كلمة قدمتها من قبل، مرات كثيرة فى الحقيقة، موسعة أو مختصرة حسب المناسبة. لاشك أن هناك نسخًا موسعة ومختصرة من الرواية فى إفريقيا وحياة الحيتان أيضًا. اختارت النسخة المختصرة للمناسبة الحالية.

تبدأ، محاولة أن تصدم مستمعيها: "مستقبل الرواية ليس الموضوع الذى أهتم به كثيرًا. المستقبل عمومًا لا يعنينى كثيرًا. أليس المستقبل، رغم كل شىء، مجرد بنية من الآمال والتوقعات؟ يقيم فى العقل؛ ليس له وجود حقيقى.

"قد تردون، بالطبع، وتقولون إن الماضى بالمثل حكاية. الماضى تاريخ، وما التاريخ إلا قصة من الانطباعات نحكيها لأنفسنا؟ إلا أن هناك شيئًا عجيبًا فى الماضى يفتقر إليه المستقبل. العجيب فى الماضى أننا نجحنا- يعلم الرب وحده كيف- فى نسج آلاف وملايين من القصص الفردية، قصص يبتكرها أفراد من الجنس البشرى، مترابطة معًا بما يكفى لتعطينا ما يبدو وكأنه ماضٍ عام، قصةٌ مشتركة.

"المستقبل مختلف. لا نملك قصة مشتركة عن المستقبل. يبدو أن ابتكار الماضى استنفد طاقاتنا الجماعية الخلاقة. قصتنا عن المستقبل، مقارنة بقصتنا عن الماضى، سطحية بلا دماء، بالشكل الذى تميل إليه رؤى الفردوس. رؤى الفردوس وحتى رؤى الجحيم."

تواصل القول، الرواية، الرواية التقليدية، محاولة لفهم قدر الإنسان، حالة فى كل مرة، لفهم كيف يتأتى

www.ibtesama.com

لرفيق، كانت نقطة بدايته (أ) وجرب النقطة (ب) والنقطة (ج) والنقطة (د)، وينتهى إلى النقطة (ى). إن الرواية بهذه الطريقة، مثل التاريخ، تمرينٌ لجعل الماضى مترابطًا. تستكشف، مثل التاريخ، المساهماتِ الخاصةَ للشخصية والظروف فى تشكيل الحاضر. توحى الرواية، وهى تفعل ذلك، بالطريقة التى قد نستكشف بها قوة الحاضر لننتج المستقبل. لهذا وجد هذا الشىء، هذه المؤسسة، هذا الوسط الذى يدعى الرواية.

ليست متأكدة، وهى تسمع صوتها، إن كانت تؤمن حتى تلك اللحظة بما تقول. لابد أن أفكارًا من هذا القبيل كان لها تأثير عليها حين كتبتها منذ سنوات، لكنها بعد كثير من التكرار صارت بالية وغير مقنعة. وهى، من ناحية أخرى، ما عادت تؤمن بقوةٍ بالإيمان. تعتقد الآن أن الأفكار يمكن أن تكون صحيحة حتى لو لم يكن المرء يؤمن بها، والعكس صحيح. قد لا يكون الإيمان، فى النهاية، أكثر من مصدر للطاقة، مثل البطارية التى يوصلها المرء فى فكرة ليجعلها تعدو. وهو ما يحدث حين يكتب المرء: يؤمن بما يؤمن به مهما يكن لينجز عمله.

إن كانت تعانى من إيمان مضطرب فى المناقشة، فهى تعانى من اضطراب أكبر فى منع عدم الاقتناع من الظهور فى صوتها. مع أنها المؤلفة المرموقة لكتاب، كما يقول مايكل، "منزل فى شارع إيكلز" وكتب أخرى، مع أن جمهورها فى معظمه من جيلها ومن ثمة

www.ibtesama.com

لابد أنه يشاركها فى ماضٍ عامٍّ، إلا أن التصفيق فى النهاية يفتقر إلى الحماس.

تجلس بشكل غير واضح فى الصف الخلفى لحضور كلمة إيمانويل. تناولوا أثناء ذلك غداء طيبًا؛ يبحرون جنوبًا فى بحار مازالت هادئة. هناك فرصة كاملة لأن يغفو بعض هذا الجمع الطيب من الجمهور- عدده، كما قد تخمن، خمسون تقريبًا. فى الحقيقة، من يعرف، ربما تغفو هى نفسها؛ على أية حال من الأفضل أن يتم ذلك دون أن يُلاحَظ.

يبدأ إيمانويل، بصوته الجهورى دون جهد: "ستتعجبون حين تعرفون السبب الذى جعلنى أختار موضعى عن الرواية فى إفريقيا. ماذا يميز الرواية فى إفريقيا؟ ماذا يجعلها مختلفة، مختلفة بما يكفى للفت انتباهنا اليوم؟

"حسنًا، لنرَ. نعرف جميعًا، بداية، أن الأبجدية، فكرة الأبجدية، لم تنشأ فى إفريقيا. نشأت أشياء كثيرة فى إفريقيا، أكثر مما تعتقدون، لكن لم تكن الأبجدية من بينها. كان لابد من جلب الأبجدية، فى البداية على أيدى العرب، ثم مرة أخرى على أيدى الغربيين. الكتابة نفسها فى إفريقيا، إذا تناسينا كتابة الرواية، مسألة حديثة.

"هل الرواية ممكنة بدون كتابة الرواية، قد تسألون؟ هل كانت لنا فى أفريقيا رواية قبل أن يظهر أصدقاؤنا المستعمرون على عتبات ديارنا؟ دعونى، لكى لا أطيل عليكم، أطرح السؤال فقط. قد أعود إليه فيما بعد.

www.ibtesama.com

"ملاحظة ثانية: إن القراءة ليست وسيلة استجمام إفريقية نموذجية. الموسيقى، نعم؛ الرقص، نعم؛ الأكل، نعم؛ الكلام، نعم ـ كثير من الكلام. لكن القراءة، لا، وخاصة قراءة الروايات الدسمة. صدمتنا القراءة نحن الأفارقة ـ دائمًا كعمل انعزالى غريب. تزعجنا. حين نزور نحن ـ الأفارقة ـ المدن الأوروبية الكبيرة مثل باريس أو لندن، نلاحظ كيف يخرج الناس فى القطارات الكتب من حقائبهم أو جيوبهم وينسحبون إلى عوالم منفردة. فى كل مرة يَخرج فيها كتابٌ يكون مثل لافتة مرفوعة. تقول اللافتة: اتركنى وحدى، أنا أقرؤه. ما أقرأه أكثر جاذبية من جاذبيتك المحتملة.

"حسنا، لسنا كذلك فى إفريقيا. لا نحب الانفصال عن الآخرين والانسحاب إلى عوالم خاصة. ولم نألف انسحاب جيراننا إلى عوالم خاصة. إفريقيا قارة يتشارك الناس فيها. أن تقرأ كتابًا بنفسك ليس عملا مشتركًا. إنه يشبه الأكل وحدك أو الكلام وحدك. ليس أسلوبنا. نراه جنونًا إلى حد ما."

تفكر: نحن، نحن، نحن، ليس أسلوبنا. لم تحب "نحن" أبدًا فى صيغة الاستبعاد. ربما كبر إيمانويل، ربما اكتسب تمجيد الأبحاث الأمريكية، لكنه لم يتغير. الأفارقة: هوية خاصة، مصير خاص.

زارتْ إفريقيا: مرتفعات كينيا، زيمبابوى، مستنقعات أوكافَنْجو(*) رأتْ أفارقة يقرءون، أفارقة

(*) أوكافنجو Okavango: نهر فى جنوب غرب وسط إفريقيا، يبلغ طوله حوالى ألف ميل، من وسط أنجولا إلى حوض أوكافنجو، منطقة مستنقعات فى شمال بتسوانا.

www.ibtesama.com

عاديين، على محطات الأتوبيس، فى القطارات. لم يكونوا يقرءون روايات، فى الحقيقة، كانوا يقرءون الصحف. لكن أليست الصحيفة، مثل الرواية، طريقا إلى عالم خاص؟

يواصل إجودو: "فى المقام الثالث، كان الفقر فى النظام العالمى الكبير الخيِّر الذى نعيش فى كنفه الآن، من نصيب إفريقيا. لا يملك الأفارقة أموالا للرفاهية. فى إفريقيا، لابد أن يقدم لك الكتاب مقابلا للمال الذى تنفقه عليه. سيسأل الإفريقى، ما الذى أتعلمه من قراءة هذه القصة؟ كيف تساهم فى تقدمى؟ ربما نستهجن وضع الإفريقى، سيداتى سادتى، لكننا لا نستطيع غض الطرف عنه. علينا أن نتناوله بجدية ونحاول فهمه.

"إننا، بالطبع، نؤلف كتبًا عن إفريقيا. لكن الكتب التى نؤلفها كتب للأطفال، كتب تعليمية بأبسط معنى. إذا أردت أن تكسب مالا من نشر الكتب فى إفريقيا فلابد أن تنشر كتبًا تُخصَّص للمدارس، كتبا تباع بكميات كبيرة للمؤسسة التعليمية لتُقرَأ وتُدرَّس فى الفصل. إنها لا تدفع مقابلا لنشر أعمال الكُتَّاب ذوى الطموح الكبير، الكُتَّاب الذين يكتبون عن الراشدين والقضايا التى تهم الراشدين. على مثل هؤلاء الكُتَّاب أن يتطلعوا لمكان آخر من أجل خلاصهم.

"ما أقدمه هنا اليوم، سيداتى سادتى على **'الأضواء الشمالية'** ليس بالطبع الصورة الكاملة. قد يستغرق الأمر فترة بعد الظهيرة بطولها لأقدم لكم الصورة الكاملة. لا أقدم إلا صورة أولية سريعة.

www.ibtesama.com

ستجدون بالطبع ناشرين فى إفريقيا، واحدًا هنا، وآخر هناك، يدعمون الكُتَّاب المحليين حتى لو لم يربحوا أموالا أبدًا. لكن حكى القصص، عمومًا، لا يقدم ما يعيل الناشرين أو الكُتَّاب .

"قدمنا تعميمات كثيرة قد تكون محبطة. والآن لنحول انتباهنا إلى أنفسنا، إليكم وإلىَّ. أنا هنا، تعرفون من أنا، كما يقال لكم فى البرنامج: إيمانويل إجودو، من نيجيريا، مؤلف روايات وقصائد ومسرحيات، والفائز أيضًا بجائزة الكومنولث الأدبية (القسم الإفريقى). وأنتم هنا مجموعة من الأثرياء، أو على الأقل من المستريحين ماديًا، كما تقولون (لستُ مخطئًا، هل أنا مخطئ؟)، من أمريكا الشمالية وأوروبا وبالطبع لا ننسى ممثلة أستراليا بيننا، وربما هُمِستْ كلمة يابانية غريبة فى الدهاليز، فى رحلة على هذه السفينة الفاخرة، فى طريقكم لرؤية ركن ناء من الكرة الأرضية، لإلقاء نظرة عليه، وربما لوضع إشارة أمامه فى قوائمكم. أنتم هنا، بعد غداء طيب، لتسمعوا كلمة هذا الرفيق الإفريقى.

"أتخيلكم تتساءلون، لماذا يبحر هذا الرفيق الإفريقى على سفينتنا؟ لماذا لا يعود إلى طاولته فى الأرض التى ولد فيها ويهتم بمهنته، إذا كان كاتبًا حقًا، يكتب كتبًا؟ لماذا يواصل الحديث عن الرواية الإفريقية، الموضوع الذى يخرج تمامًا عن نطاق اهتماماتنا؟

"الإجابة المختصرة، سيداتى سادتى، هى أن الرفيق الإفريقى يكسب قوت يومه. لا يستطيع فى

www.ibtesama.com

بلاده، كما حاولتُ أن أشرح، أن يكسب قوته. إنه فى بلاده (لن أحمل القضية. أذكرها فقط لأنها تبدو حقيقية لعدد كبير من الرفاق من الكُتَّاب الأفارقة) أقل من أن يكون موضع ترحيب. يوصف فى بلاده بالمثقف المعارض، ولابد أن يتحسس المثقفون المعارضون خطاهم حتى فى نيجيريا الجديدة.

"لذا فهو هنا، خارج الوطن فى العالم الرحب، يكسب قوت يومه. يكسب جزءًا من قوت يومه من كتابة الكتب التى ينشرها ويقرؤها ويراجعها ويتحدث عنها، غالبا، غرباء. ويكسب بقية قوت يومه من الأرباح المفاجئة لكتابته. إنه يراجع فى صحف أوروبا وأمريكا، على سبيل المثال، كتبا يكتبها كُتَّاب آخرون. يدرِّس فى كليات فى أمريكا، متحدثًا لشباب العالم الجديد عن الموضوع الغريب الذى هو خبير فيه كما يكون بها الفيل خبيرًا بالفيلة: الرواية الإفريقية. يتحدث فى مؤتمرات؛ يبحر على سفن سياحية. يعيش، وهو مشغول على هذا النحو، فيما يسمى مساكن مؤقتة. عناوينه كلها مؤقتة؛ ليس له مسكن ثابت.

"ما مدى سهولة أن يكون هذا الرفيق كما تعتقدون، سيداتى سادتى، صادقًا مع جوهره ككاتب حين يوجد كل هؤلاء الغرباء ليرضيهم شهرا بعد شهر- من الناشرين والقراء والنقاد والدارسين، لا يحارب كل منهم بأفكاره حول ماهية الكتابة أو ما يجب أن تكون عليه، وحول ماهية الرواية أو ما يجب أن تكون عليه، وحول ماهية إفريقيا أو ما يجب أن تكون عليه فقط، ولكن أيضًا حول ماهية ما يُرضِى أو

www.ibtesama.com

ما يجب أن يكون؟ هل تعتقدون أن هذا الرفيق يمكن أن يبقى دون أن يتأثر بالضغوط التى تقع عليه ليُرضِى الآخرين، أن ينتج لهم ما يعتقدون أن عليه أن ينتجه؟

"ربما لم يعد الأمر يثير انتباهكم، لكن لسانى زل، منذ برهة، بكلمة كان يجب أن تشد أسماعكم. تكلمت عن جوهرى وأن أكون صادقًا مع جوهرى. هناك الكثير مما يمكن أن أقول عن الجوهر وتشعبه؛ لكن المناسبة ليست ملائمة. إلا أنه لابد أنكم تتساءلون، كيف يمكن، فى هذه الأيام المعادية للجوهر، هذه الأيام ذات الهويات الزائلة التى نلتقطها ونلبسها ونخلعها مثل الملابس، أن أبرر حديثى عن جوهرى ككاتب إفريقى؟

"علىَّ أن أذكركم بأن هناك تاريخًا طويلاً من الاضطراب فى التفكير الإفريقى حول الجوهر والنزعة الجوهرية. ربما سمعتم عن حركة الزنوج [1] فى الأربعينيات والخمسينيات. إن الزنوج، طبقا لمؤسسى الحركة، هى الأساس الجوهرى الذى يربط الأفارقة معًا ويجعلهم أفارقة متميزين- ليس فقط أفارقة إفريقيا بل أفارقة الشتات الإفريقى العظيم فى العالم الجديد والآن فى أوروبا.

"أريد أن أقتبس لكم بعض كلمات الكاتب والمفكر السنغالى شيخ حميدو كان[2] كان .محاورًا أوروبيًا يستجوب الشيخَ حميدو؛ قال المحاور إننى متحير من

(١) حركة الزنوج négritude: مفهوم ثقافى وأيديولوجى يؤكد على الطبيعة المستقلة لثقافة الزنوج.

(٢) شيخ حميدو كان (١٩٢٨ - كاتب سنغالى اشتهر بسيرته الذاتية الروائية بعنوان "المغامرة الغامضة" وقد حصدت العديد من الجوائز، وهى عن التفاعل بين الثقافتين الغربية والإفريقية.

www.ibtesama.com

مديحك لبعض الكُتَّاب باعتبارهم أفارقة حقيقيين. من منظور أن هؤلاء الكُتَّاب يكتبون بلغة أجنبية (خاصة الفرنسية) وتنشر معظم أعمالهم وتُقرَأ فى بلاد غريبة (خاصة فرنسا)، هل يمكن وصفهم حقا بأنهم كُتَّاب أفارقة؟ أليس من الأوقع وصفهم بأنهم كتاب فرنسيون؟ أليست اللغة منشأ أكثر أهمية من الميلاد؟

"وفيما يلى رد الشيخ حميدو: 'الكتاب الذين أتحدث عنهم أفارقة حقًا؛ لأنهم ولدوا فى إفريقيا، ويعيشون فى إفريقيا، وحسهم إفريقى... ما يميزهم يكمن فى خبرة الحياة وفى الحساسيات وفى الإيقاع وفى الأسلوب. 'ويواصل: «الكاتب الفرنسى أو الإنجليزى وراءه تراث مكتوب يمتد إلى آلاف السنين... ونحن من ناحية أخرى ورثة تراث شفاهى.»

"لا شىء مبهم فى رد شيخ حميدو، لا شىء ميتافيزيقى، لا شىء عنصرى. إنه فقط يعطى وزنًا حقيقيًا لتلك الأمور غير الملموسة فى الثقافة، وهى أمور لا تُلاحَظ غالبًا لأنه ليس من السهل تدوينها فى كلمات. الطريقة التى يعيش بها الناس فى أبدانهم. الطريقة التى يحركون بها أيديهم. الطريقة التى يمشون بها. الطريقة التى يبتسمون بها أو يعبسون. خفة كلامهم. الطريقة التى يغنون بها. نبرة أصواتهم. الطريقة التى يرقصون بها. الطريقة التى يتلامسون بها؛ كيف تتردد اليد؛ إحساس الأصابع. الطريقة التى يمارسون الحب بها. الطريقة التى يستلقون بها بعد ممارسة الحب. الطريقة التى يفكرون بها. الطريقة التى ينامون بها.

www.ibtesama.com

"يمكن للروائيين الأفارقة تجسيد هذه الخصائص فى كتاباتنا (ودعونى أذكركم هنا أن كلمة 'رواية' حين دخلت لغات أوروبا، كان معناها مبهمًا للغاية: كانت تعنى شكل الكتابة التى بلا شكل، التى لا قواعد لها، التى تخلق قواعدها الخاصة وهى تتشكل)- يمكن لنا نحن - الروائيين الأفارقة - أن نجسد هذه الخصائص بطريقة لا يمكن أن تتوفر لشخص آخر؛ لأننا لم نفقد التَّماس مع الجسد. إن الرواية الإفريقية، الرواية الإفريقية الحقيقية، رواية شفهية. إنها خاملة على الصفحة، شبه حية فقط؛ تستيقظ حين ينفخ الصوت، من أعماق الجسد، الحياة فى الكلمات، وينطقها بصوت مرتفع.

"وهكذا تكون الرواية الإفريقية، كما قد أزعم، فى وجودها الحقيقى، وقبل أن تُكتَب الكلمة الأولى، نقدًا للرواية الغربية، التى قطعت شوطًا بعيدًا فى التحرر من الجسد- تذكروا هنرى جيمس، تذكروا مارسيل بروست - حيث الطريقة الملائمة، والطريقة الوحيدة فى الحقيقة، لامتصاصها هى فى الصمت والوحدة. وسأنتهى من هذه الملاحظات، سيداتى سادتى- أرى وقتى يجرى - باقتباس، لدعم وضعى ووضع شيخ حميدو، ليس من إفريقى، ولكن من رجل من الأراضى الثلجية فى كندا، معلم الشفهية العظيم بول زمثور(*).

(*) بول زمثور Paul Zumthor أستاذ فخرى فى جامعة مونتريال ومؤلف العديد من الكتب من بينها "نحو شعرية العصور الوسطى".

www.ibtesama.com

"يكتبُ زمثور: 'انتشرت أوروبا عبر العالم، منذ القرن السابع عشر، مثل السرطان. خلسة فى البداية، ثم فى سباق جماعى، وهى حتى اليوم تتلف أشكال الحياة، الحيوانات والنباتات والبيئات واللغات. تختفى عدة لغات مع كل يوم يمر، تُرفَض وتُخنَق... كان ما ندعوه الأدب أحد أعراض المرض بلا شك منذ البداية؛ وقد دعم الأدب نفسه، وازدهر، وصار ما هو عليه ـ أحد أضخم أبعاد الجنس البشرى- بإنكار الصوت... حان الوقت لنتوقف عن تفضيل الكتابة... ربما ستجد إفريقيا العظيمة التعيسة، وقد أفقرتها إمبرياليتنا الصناعية والسياسية، لأنها تعرضت لتأثير الكتابة بشكل أقل خطورة، ستجد نفسها أقرب إلى الهدف من القارات الأخرى.'"

التصفيق مرتفع وحيوى حين ينتهى إجودو من كلمته. تكلم بقوة، وربما حتى بانفعال؛ وقف لنفسه، لبراعته، لشعبه؛ لماذا يجب ألا يحصل على جائزته، حتى لو كان ما يقوله لا علاقة له بحياة جمهوره؟

إلا أن هناك شيئًا فى الحديث لا تحبه، شيئًا يرتبط بالشفهية وروحانية الشفهية. تعتقد أن الجسد يتم التركيز عليه دائمًا ودفعه إلى الأمام، وأن الصوت، الجوهر المعتم للجسد، ينبع منه. الزنوج: فكرتُ فى أن إيمانويل ينطلق من تلك الفلسفة الزائفة. من الواضح أنه لم ينطلق منها. من الواضح أنه قرر الاحتفاظ بها كجزء من أسلوبه المهنى. حسنًا، حظ سعيد له. يتبقى وقت، عشر دقائق على الأقل، للأسئلة. تأمل أن تكون الأسئلة ثاقبة، أن تكشفه.

www.ibtesama.com

السائلة الأولى، إذا كان لها أن تحكم من اللهجة، من وسط غرب الولايات المتحدة. تقول المرأة إن أول رواية قرأتها فى حياتها لإفريقى، منذ عدة عقود، كانت من تأليف أموس توتولا(*) تنسى اسمها. (يقترح إجودو "شارب العرقى"، فترد المرأة، نعم إنها هى.) وقد فتنتها. اعتقدت أنها كانت مبشرة بأشياء عظيمة ستأتى. ولذا فقد خاب أملها، خاب بشكل رهيب، حين تسمع أن توتولا لم يكن يلقى التقدير فى بلاده، وأن النيجيريين المتعلمين استخفوا به ورأوا أنه لا يستحق شهرته التى حظى بها فى الغرب. هل هذا صحيح؟ هل كان توتولا من الروائيين الشفهيين الذين تحدث عنهم محاضرنا؟ ماذا حدث لتوتولا؟ هل تُرجِمتْ له كتب أخرى؟

يرد إجودو، لا، لم يترجم توتولا بعد ذلك، لم يترجم فى الحقيقة على الإطلاق، إلى الإنجليزية على الأقل. لماذا لم يترجم؟ لأنه لم يكن فى حاجة إلى أن يُترجَم. لأنه كان يكتب بالإنجليزية دائمًا. "وهذا جذر المشكلة التى تثيرها السائلة. إن لغة أموس توتولا هى الإنجليزية، ليست الإنجليزية الفصحى، ولا الإنجليزية

(*) أموس توتولا Amos Tutuola (١٩٢٠ ـ ١٩٩٧) كاتب نيجيرى اشتهر بكتبه التى تعتمد جزئيًا على الحكايات الفلكلورية. حصل على قسط ضئيل من التعليم وحين مات والده ترك المدرسة ليتدرب على أعمال الحدادة، وعمل بعد ذلك فى عدة أعمال متواضعة. وانتهى من كتابه الأول "شارب العرقى The Palm Wine Drinkard" عام ١٩٤٦ فى عدة أيام، وطُبع الكتاب عام ١٩٥٢.

www.ibtesama.com

التى كان النيجيريون يذهبون إلى المدارس والكليات لتعلمها فى الخمسينيات. لغة كاتب شبه متعلم، رجل لم يحصل على أكثر من التعليم الابتدائى، مفهومة بالكاد لأجنبى، معدَّة لينشرها محررون بريطانيون. حيث كانت كتابات توتولا تنم عن جهل صريح كانوا يصححونها؛ ما كان ينجو من التصحيح هو ما يبدو نيجيريا أصيلا بالنسبة لهم، أى، ما كان يبدو لأسماعهم رائعًا وغريبًا وفلكلوريًا.

يواصل إجودو: "يمكن أن تتخيلى، مما قلتُ منذ قليل، أننى أرفض توتولا تمامًا أو ظاهرة توتولا. الأمر بعيد عن ذلك تمامًا. كان توتولا مرفوضًا من قبل ما يعرفون بالنيجيريين المتعلمين؛ لأنه كان يربكهم- يربكهم أنهم قد يُوضَعون معه كمواطنين لا يعرفون أن يكتبوا إنجليزية صحيحة. بالنسبة لى، أنا سعيد بأن أكون مواطنًا، مواطنًا نيجيريًا، نيجيريًا مواطنًا. أنا إلى جانب توتولا فى هذه المعركة. إن توتولا، أو كان، راوى قصص موهوب. أنا سعيد لأنك تحبينه. كتب عدة كتب أخرى بالإنجليزية، إلا أننى قد أقول إنه ليس من بينها ما هو فى جودة "شارب العرقى". نعم، إنه كاتب من النوع الذى أصفه بأنه كاتب شفهى.

"رددتُ عليك بإسهاب لأن حالة توتولا بالغة الدلالة. ما يجعل توتولا بارزًا أنه لم يكيف اللغة لتوقعات- أو ربما فكر فى أن التوقعات كانت محلية بصورة أقل- الغرباء الذين قرءوه وحكموا عليه. لأنه لم يكن يعرف ما هو أفضل، كان يكتب كما يتكلم. لذا

www.ibtesama.com

كان لابد أن يذعن للتعليب بطريقة بائسة جدا، للغرب، كأعجوبة إفريقية.

"لكن، سيداتى سادتى، مَنْ مِن الكتاب الأفارقة ليس أعجوبة؟ الحقيقة، إننا نحن ـ الأفارقة ـ أعجوبة بكل معنى الكلمة بالنسبة للغرب، إن لم نكن متوحشين ببساطة. هذا قدرنا. حتى هنا، على هذه السفينة التى تبحر باتجاه القارة التى ربما تكون الأكثر غرابة على وجه الأرض، والأكثر وحشية، القارة التى بدون معايير إنسانية على الإطلاق، أستطيع أن أشعر بأننى أعجوبة."

تنفجر موجة من الضحك. يبتسم إجودو ابتسامته العريضة الجذابة التى تبدو تلقائية للجميع. لكنها لا تستطيع أن تصدق أنها ابتسامة حقيقية، لا تستطيع أن تصدق أنها تأتى من القلب، إن كان هذا هو الموضع الذى تأتى منه الابتسامة. إذا كان القدر الذى ارتضاه إجودو لنفسه أن يكون أعجوبة، فيا له من قدر رهيب. لا تستطيع أن تصدق أنه لا يعرف ذلك، لا يعرفه ولا يثور ضده من أعماق قلبه. الوجه الأسود الوحيد فى هذا البحر من الوجوه البيضاء.

يواصل إجودو: "لأعد إلى سؤالك. قرأتِ توتولا، اقرئى الآن مواطنى بن أوكرى(*) حالة أموس توتولا

(*) بن أوكرى Ben Okri (١٩٥٩ ـ) شاعر وروائى نيجيرى، قضى طفولته فى لندن، وعادت أسرته إلى نيجيريا عام ١٩٦٨ ثم عاد إلى لندن وحصل على دكتوراه فخرية من جامعة ويستمنستر (١٩٩٧) ومن جامعة إسيكس (٢٠٠٢) ونال ترحيبًا عالميًا منذ صدور روايته الأولى "الأزهار والظلال" (١٩٨٠) ويوصف غالبًا بأنه أحد الكتاب الأفارقة الكبار. وقد فازت روايته "الطريق الجائع" Famished Road بجائزة البوكر عام ١٩٩١.

www.ibtesama.com

بسيطة جدًا. صارخة جدًا. أوكرى وريث حالة توتولا، أو هما وريثا أسلاف مشتركين. لكن أوكرى يتغلب على عقبة أن يكون نفسه بالنسبة للآخرين (اعذرونى على الرطانة، إنها مجرد استعراض محلى) بطريقة أكثر تعقيدًا بكثير. اقرئى أوكرى تجدى الخبرة واضحة."

كان الهدف من كلمة "الرواية فى إفريقيا" أن تكون، كما يتحدث كل ركاب السفينة، أمرًا خفيفًا. لا شىء فى برنامج السفينة يُقصَد أن يكون أمرًا ثقيلاً. يهدد إجودو، لسوء الحظ، بأن يكون ثقيلا. بإيماءة رصينة، يشير من الكواليس الشاب السويدى الطويل فى زيه الأزرق الطويل؛ وبامتنان يلبى إجودو، وينهى عرضه.

***

طاقم "الأضواء الشمالية" روسى، ومضيفوها أيضا. كل من عليها، فى الحقيقة، باستثناء الضباط ومجموعة المرشدين والمدراء، روس. الموسيقى على السفينة تعزفها أوركسترا بلالايكا(*) خمسة رجال وخمس نساء. الموسيقى المصاحبة للعشاء عاطفية بأكثر مما يستسيغه ذوقها؛ بعد العشاء، تصبح الموسيقى فى صالة الرقص أكثر حيوية.

قائدة الأوركسترا، ومطربتها أحيانا، شقراء فى أوائل الثلاثينيات. تعرف الإنجليزية بشكل بسيط، كافٍ لتعلن: "نعزف مقطوعة معروفة فى الروسية باسم حمامتى الصغيرة. حمامتى الصغيرة." تنطق

(*) بلالايكا balalaika آلة موسيقية روسية شبيهة بالجيتار.

www.ibtesama.com

حمامتى فى تناغم مع موقد لا مع حب (*) تبدو القطعة بارتعاشها وانقضاضها مجرية، تبدو غجرية، تبدو يهودية، تبدو كل شىء إلا أن تكون روسية؛ لكن من هى، إليزابيث كستلو الفتاة القروية، لتتكلم.

إنها هناك مع رفيقين من طاولتها، يشربون. يقولان لها إنهما من مانشستر. إنهما يتطلعان إلى دروسها عن الرواية، التى سجلا اسميهما فيها. الرجل طويل ذو شعر فضى ناعم: تفكر فيه كأوزة بحرية. لا يقول كيف صنع ثروته وهى لا تسأله. المرأة ضئيلة وشهوانية. ليست فكرتها عن مانشستر على الإطلاق. ستيف وشيرلى. تخمن أنهما ليسا متزوجين.

يريحها أن الحديث يتحول بسرعة من الكلام عنها وعن الكتب التى كتبتها إلى موضوع تيارات المحيط. يبدو أن ستيف يعرف كل ما يمكن معرفته، وعن الكائنات الضئيلة، التى توجد منها أطنان فى الميل المربع، وتعتمد حياتها على أن تُجرَف بهدوء فى هذه المياه الثلجية، تأكل وتؤكل، تتكاثر وتموت، ويتجاهلها التاريخ. سائحان مهتمان بالبيئة، هذا ما يصف به ستيف وشيرلى نفسيهما. الأمازون فى السنة الماضية، وهذه السنة فى المحيط الجنوبى.

يقف إجودو فى المدخل، يتلفت حوله. تلوح له فيأتى. تقول: "انضمّ إلينا. إيمانويل. شيرلى. ستيف."

يحييان إيمانويل على محاضرته. يقول ستيف: "شيقة جدا. قدَّمْتَ لى منظورا جديدا تماما."

(*) تنطق حمامتى Dove فى تناغم مع stove (موقد) لا مع love (حب)

www.ibtesama.com

تقول شيرلى بشكل أعمق: "كنتُ أفكر. وأنت تتكلم، لا أعرف كتبك، آسفة أن أقول ذلك، لكنك ككاتب، ككاتب شفهى من النوع الذى وصفْتَه، ربما لا يكون الكتابُ المطبوعُ الوسيطَ الصحيح. هل فكرت فى أى وقت فى التأليف مباشرة على شريط تسجيل؟ لماذا الالتفاف عبر الطباعة؟ لماذا حتى الالتفاف عبر الكتابة؟ احكِ قصتك للمستمع مباشرة."

يقول إيمانويل: "يا لها من فكرة بديعة! لن تحل كل مشاكل الكاتب الإفريقى، لكنها جديرة بالتفكير."

"لماذا لن تحل كل مشاكلك؟"

لأن الأفارقة، آسف لقول هذا، يريدون أكثر من مجرد الجلوس فى صمت يستمعون إلى شريط يلف فى آلة صغيرة. سيكون هذا شبيهًا جدًا بالوثنية. يريد الأفارقة الوجود الحى، الصوت الحى."

تقول، متدخلة للمرة الأولى: "هل أنت واثق من ذلك؟ الأفارقة لا يعترضون على سماع الراديو. الراديو صوت، لكنه ليس صوتًا حيًا، ليس وجودًا حيًا. أظن أن ما تحتاج إليه، يا إيمانويل، ليس مجرد صوت لكنك تحتاج إلى أداء: ممثل حى يؤدى لك النص. وإذا كان الأمر كذلك، إذا كان ذلك ما يحتاجه الإفريقى، أوافقك إذًا، لا يمكن أن يحل التسجيل محله. لكن الرواية لم تكن أبدًا بهدف أن تكون نصًا للأداء. تتمتع الرواية منذ البداية بفضيلة أنها لا تحتاج إلى أداء. إنك لا تستطيع أن تجمع بين الأداء الحى والتوزيع الرخيص المناسب. هذا أو ذاك. إذا كان هذا حقًا ما تريد أن تكون عليه الرواية- كتلة من الورق فى حجم

www.ibtesama.com

الجيب وفى الوقت ذاته كائن حى- فسأوافق على أن الرواية لا مستقبل لها فى إفريقيا."

يقول إجودو بتمعن: "لا مستقبل لها. يبدو ذلك أمرًا كئيبًا، إليزابيث. هل لديك مَخْرج تعرضينه علينا؟"

"مخرج؟ ليس لى أن أعرض عليك مخرجًا. يجب أن أعرض سؤالا. لماذا يوجد عدد كبير من الروائيين الأفارقة ولا توجد رواية إفريقية تستحق الكلام؟ هذا هو السؤال الحقيقى فى رأيى. وأنت نفسك قدمت مفتاحًا للإجابة فى كلمتك. الغرابة. الغرابة وإغراءاتها."

"الغرابة وإغراءاتها؟ إنك تثيرين فضولنا، إليزابيث. أخبرينا بما تقصدين."

إذا كان الأمر يتعلق بها وبإيمانويل فقط لانصرفت عند هذه النقطة. إنها مرهقة من نبرته الخافتة الساخرة، الساخطة.

تقول: "يكتب الرواية الإنجليزية، فى المقام الأول، إنجليز لإنجليز. هذا ما يجعلها رواية إنجليزية. يكتب الرواية الروسية روس لروس. لكن الرواية الإفريقية لا يكتبها أفارقة لأفارقة. قد يكتب الروائيون الأفارقة عن إفريقيا، عن الخبرات الإفريقية، لكن يبدو لى أنهم ينظرون من فوق أكتافهم، طوال الوقت وهم يكتبون، إلى الغرباء الذين سوف يقرءونهم. قبلوا، سواء كانوا يحبون ذلك أو لا يحبونه، دور المفسر،

www.ibtesama.com

مفسرين إفريقيا لقرائهم. لكن كيف تستكشف عالمًا بكل أعماقه إذا كان عليك طوال الوقت أن تشرحه للغرباء؟ إن هذا الوضع يشبه وضع عالِمٍ يحاول أن يوجه تركيزه الخلاق تمامًا إلى أبحاثه وفى الوقت ذاته يشرح ما يفعله لفصل من الطلاب الجهلة. كثير جدًا على شخص واحد، لا يمكن أن يتم، لا يمكن على المستوى الأعمق. هذا، فى رأيى، جذر مشكلتك. عليك أن تؤدى إفريقيتك فى الوقت الذى تكتب فيه."

يقول إجودو: "رائع جدًا، إليزابيث! تفهمين حقًا؛ تعبرين عن الأمر بشكل رائع. المستكشف كشارح." يمد يده ويربت على كتفها.

تفكر: لو كنا وحدنا لصفعته.

"إذا كان صحيحًا أننى أفهم حقًا"- تتجاهل إجودو الآن، وتتحدث إلى الرفيقين من مانشستر- "فإن ذلك يعود فقط إلى أننا فى أستراليا مررنا بمحاولات مماثلة ووصلنا إلى الطرف الآخر. تخلصنا فى النهاية من عادة الكتابة لغرباء حين وصل القارئ الأسترالى الحقيقى لمرحلة النضج، وهو أمر حدث فى الستينيات. القارئ، لا الكاتب- كان موجودًا بالفعل. تخلصنا من عادة الكتابة للغرباء حين قرر سوقنا، سوقنا الأسترالى، أنه يستطيع أن يتحمل دعم الأدب المحلى. هذا هو الدرس الذى يمكن أن نعرضه. هذا ما يمكن أن تتعلمه إفريقيا منا."

إجودو صامت، إلا أنه لم يفقد ابتسامته الساخرة.

www.ibtesama.com

يقول ستيف: "أمر شيق أن أسمع حديثكما. تتعاملين مع الكتابة باعتبارها بيزنس. تحددين سوقًا وتشرعين فى دعمه. كنتُ أتوقع شيئًا مختلفًا."

"حقا؟ ماذا كنت تتوقع؟"

"تعرفين: كيف يحلم الكُتَّاب بشخصياتهم، إلخ، حين يجدون إلهامهم. آسف، لا تبالى بما أقول، إننى مجرد هاوٍ."

إلهام. استقبال الروح فى المرء. يرتبك الآن بمجرد النطق بالكلمة. صمت بشع.

يتكلم إيمانويل: "نرجع أنا وإليزابيث إلى الوراء. بيننا الكثير من الاختلافات حاليًا. هذا لا يغير شيئًا مما بيننا- أليس كذلك، إليزابيث؟ نحن زميلان، كاتبان رفيقان. جزء من أخوة الكتابة العظيمة على مستوى العالم."

أخوة. إنه يتحداها، محاولا أن يستفزها أمام هذين الغريبين. لكنها تشمئز فجأة من هذا كله بدرجة تجعلها لا تقبل التحدى. تفكر: ليسا رفيقين فى الكتابة بل رفيقين فى الترفيه. هل نحن هنا على ظهر هذه السفينة الغالية لسبب آخر، نقدم أنفسنا، كما تنص الدعوة صراحة، لأناس يصيبوننا بالملل وقد بدأنا نصيبهم بالملل؟

ينخسها لأنه متوتر. تعرفه جيدًا بما يكفى لتفهم ذلك. لديه ما يكفى من الرواية الإفريقية، ما يكفى منها ومن أصدقائها، يريد شيئًا، أو شخصًا، جديدًا.

www.ibtesama.com

انتهت مطربتهم من وصلتها. ثمة موجة خفيفة من التصفيق. تنحنى، تنحنى مرة أخرى، تستأنف العزف على البلالايكا. تبدأ الفرقة رقصة قوقازية.

ما يزعجها فى إيمانويل، ما يجعلها تتحلى بحس طيب ولا تستعرض أمام ستيف وشيرلى؛ لأن ذلك سيكون مجرد سلوك غير لائق، هى الطريقة التى يحوِّل بها كل اختلاف إلى مسألة شخصية. كما أنها تجد فكرته عن الرواية الشفهية المحبوبة، التى بنى عليها نشاطه الإضافى كمحاضر، مشوشة من أساسها. تودُّ لو تقول: "رواية عن أناس يعيشون فى ثقافة شفهية، ليست رواية شفهية. بالضبط، كما أن رواية عن النساء ليست رواية نساء."

ترى أن كل حديث إيمانويل عن رواية شفهية، رواية تبقى متماسة مع الصوت الإنسانى ومن ثمة مع الجسد الإنسانى، رواية ليست متحررة من الجسد مثل الرواية الغربية لكنها تعبر عن الجسد وحقيقة الجسد، تراه مجرد طريقة أخرى لدعم روحانية إفريقيا كآخر مستودع للطاقات الإنسانية الأولية. يلوم إيمانويل ناشريه الغربيين وقراءه الغربيين على دفعه إلى جعل إفريقيا أعجوبة؛ لكن إيمانويل يساهم فى جعل نفسه أعجوبة. يتصادف أن تعرف أن إيمانويل لم يكتب كتابا أساسا منذ عشر سنوات. حين تعرفت عليه أول مرة كان لا يزال يعتز بأنه كاتب. يكسب الآن قوته من الحديث. كتبه أوراق اعتماد، ليس إلا. ربما يكون رفيق تسلية؛ لكنه ليس رفيق كتابة، لم يعد. إنه

www.ibtesama.com

فى دائرة المحاضرات من أجل المال، ومن أجل الجوائز الأخرى أيضًا. الجنس، على سبيل المثال. إنه أسود، أعجوبة، متماس مع طاقات الحياة، إذا كان لم يعد شابا، فهو على الأقل يعتنى بنفسه جيدًا، ويستغل سنواته ببراعة. أية فتاة سويدية لا تكون صيدًا سهلا؟

تنتهى من شرابها. تقول: "سأذهب. ليلة طيبة، ستيف، شيرلى. أراكما غدًا. ليلة طيبة، إيمانويل."

***

تستيقظ فى هدوء مطلق. الساعة الرابعة والنصف. توقفت محركات السفينة. تحدق عبر الكوة. فى الخارج ضباب، لكنها تستطيع أن تلمح من بين الغيوم أرضًا على مسافة لا تزيد عن كيلومتر. لابد أنها جزيرة ماكوارى(*) اعتقدت أنهم لن يصلوا إليها قبل ساعات.

ترتدى ملابسها وتخرج فى الدهليز. وفى اللحظة ذاتها يفتح باب الكابينة أ-٢٣٠ وتخرج منها روسية، المغنية. ترتدى الزى الذى كانت ترتديه الليلة السابقة، البلوزة الحمرية والبنطلون الأسود الواسع؛ تحمل حذاءها فى يدها. تبدو، فى الضوء الفظ المنبعث من السقف، أقرب إلى الأربعين منها إلى الثلاثين. تنأى كل منهما بعينيها عن الأخرى وكل منهما تمر بالأخرى.

الكابينة أ ـ٢٣٠ كابينة إيمانويل، تعلم ذلك.

(*) جزيرة ماكوارى Macquarie Island تقع فى الركن الجنوبى الغربى من المحيط الهادى، فى منتصف الطريق بين أستراليا وأنتركتيكا. تتبع أستراليا سياسيا.

www.ibtesama.com

تشق طريقها إلى سطح السفينة. هناك بالفعل حفنة من المسافرين، يرتدون ملابس أنيقة ضد البرد، يسندون على السور وينظرون إلى أسفل.

البحر من تحتهم حى بما يبدو أنه سمك، سمك كبير، ظهره أسود لامع يتمايل ويتشقلب ويقفز بشكل رائع. لم تر من قبل شيئًا كهذا.

يقول الرجل الذى بجوارها: "البطاريق. بطاريق مَلِكٍ. جاءت تحيينا. لا تعرف من نحن."

تقول: "أوه." ثم تقول: "بريئة إلى هذا الحد؟ هل هى بريئة إلى هذا الحد؟"

ينظر إليها الرجل باستغراب، ويعود إلى رفاقه.

المحيط الجنوبى. لم يلق بو نظرة عليه أبدًا، إدجار آلان بو، لكنه اجتازه بذهنه. خرج سكان الجزر السود يجدفون فى قوارب مكتظة للقائه. كانوا يبدون مجموعة عادية "**مثلنا تمامًا**"، لكن حين ابتسموا وكشفوا عن أسنانهم لم تكن الأسنان بيضًا بل سودًا، مما جعله يرتجف حتى النخاع، يرتجف حقًا. تمتلئ البحار بأشياء تبدو مثلنا لكنها ليست مثلنا. زهور البحار التى تفتح أفواهها وتلتهم. أسماك الأنقليس(*) كل منها حويصلة شائكة تتعلق فيها أحشاء. الأسنان للتقطيع، اللسان لتحريك الطعام: هذه حقيقة الشفهى. لابد لأحد أن يخبر إيمانويل. فقط باقتصاد

(*) الأنقليس: أسماك بدون قشور، تشبه الثعابين، لا يوجد لها زعانف خلفية، وتهاجر من المياه العذبة إلى المياه المالحة لوضع البيض.

www.ibtesama.com

بارع، بحدث تطورى، نبدأ أحيانا استخدام عضو من أعضاء البلع للغناء.

سوف يتوقفون عند ماكوارى حتى الظهيرة، وهو وقت كاف للمسافرين الذى يرغبون فى زيارة الجزيرة. سجلتْ اسمها فى قائمة الزائرين.

يغادر القارب الأول بعد الفطور. طريقة الهبوط صعبة، عبر أسرَّة سميكة من رماد عشب البحر وعبر صخور متراصة. فى النهاية على أحد البحارة أن يقدم لها بعض المساعدة للهبوط على اليابسة، يحملها تقريبًا، كما لو كانت امرأة عجوزًا عجوزًا. للبحَّار عينان زرقاوان، وشعر أشقر. من خلال ملابسه الواقية من المياه تشعر بقوة شبابه. تنتقل فى ذراعية وكأنها طفلة. تقول له ممتنة حين ينزلها: "أشكرك!"؛ لكن الأمر لم يكن شيئًا بالنسبة له، مجرد خدمة يدفع له بالدولار مقابل القيام بها، المسألة ليست شخصية، تشبه تمامًا الخدمة، التى تقوم بها الممرضة فى المستشفى.

قرأتْ عن جزيرة ماكوارى. كانت فى القرن التاسع عشر محور صناعة البطاريق. هنا كانت تضرب مئات الألوف من البطاريق حتى الموت وتُرْمَى فى غلايات البخار الحديدية لتتحلل إلى زيت مفيد وبقايا عديمة الفائدة. أو لا تُضرَب حتى الموت، بل تجمع بالعصى على لوح خشبى متحرك وتقاد إلى الحافة لتهبط فى مرجل يغلى.

ومع ذلك لا يبدو أن أحفادها فى القرن العشرين تعلمت شيئًا. مازالت تسبح ببراءة لترحب بالزائرين؛

www.ibtesama.com

مازالت تلقى عليهم التحيات وهم يقتربون من مواضع توالدها (تقول: "هُوّا! هُوّا!" للعالم كله مثل المورِّثات الصغيرة الفظة)، وتسمح لهم بالاقتراب منها ولمسها، والعبث بصدورها الملساء.

ستعود بهم القوارب إلى السفينة فى الحادية عشرة، وهم حتى ذلك الوقت أحرار فى استكشاف الجزيرة. يتم إخبارهم بوجود مستعمرة من القطرس(*) على سفح التل: لا مانع من تصوير الطيور ولكن يجب عدم الاقتراب منها قربًا شديدًا، ويجب عدم تنبيهها. إنه موسم التكاثر.

تتجول بعيدًا عن المجموعة التى هبطت على الجزيرة، وبعد لحظة تجد نفسها على هضبة على الشاطئ، تعبر مساحة مغطاة بالعشب.

فجأة وعلى غير توقع يظهر شىء أمامها. تعتقد فى البداية أنه صخرة ملساء بيضاء منقطة بالرمادى. ثم تكتشف أنه طائر، أكبر من كل الطيور التى سبق أن رأتها. تتعرف على المنقار الطويل المنخفض وعظم الصدر الهائل. قطرس.

ينظر إليها القطرس بثبات ودهشة، هذا ما يبدو لها. يبرز من تحته نسخة أصغر من المنقار الطويل نفسه. الفرخ أكثر عدوانية. يفتح منقاره ويصدر صرخة تحذير، طويلة مكتومة.

هكذا تبقى هى والطائران ينظران إليها وتنظر إليهما.

(*) القطرس: طائر بحرى كبير، له منقار معقوف، وأجنحة طويلة ورفيعة.

www.ibtesama.com

تفكر: "قبل الهبوط. لابد أنها كانت تبدو على هذا النحو قبل الهبوط. يمكن أن أفوت القارب وأبقى هنا. وأطلب من الرب أن يرعانى."

ثمة شخص وراءها، تلتفت، إنها المطربة الروسية، ترتدى الآن معطف مطر أخضر غامقًا والقلنسوة ليست على رأسها، شعرها تحت منديل.

تلفت نظر المرأة بصوت منخفض: "قطرس. هذه هى الكلمة الإنجليزية. لا أعرف ماذا تسمى هذه الطيور نفسها."

تومئ المرأة. ينظر الطائر الكبير إليهما بهدوء، لا ينتابه خوف من الاثنتين أكثر مما كان ينتابه من واحدة.

تقول: "هل إيمانويل معك؟"

"لا. على السفينة."

لا تبدو المرأة متحمسة للكلام. لكنها تؤكد على أية حال: "أعرف أنك صديقته. أنا أيضًا، أو كنتُ، فى الماضى. هل لى أن أسأل: ماذا ترين فيه؟"

سؤال غريب، صلف فى ألفته، إلى درجة الفجاجة. لكن يبدو لها أن أى شىء يمكن أن يقال على هذه الجزيرة، فى زيارة لن تتكرر أبدًا.

تقول المرأة: "ماذا أرى؟"

"نعم. ماذا ترين؟ ماذا تحبين فيه؟ ما مصدر فتنته؟"

تهز المرأة كتفيها. شعرها مصبوغ، تستطيع أن ترى ذلك الآن. أربعون لا تنقص يومًا، ربما تدعم

www.ibtesama.com

عائلة فى وطنها الأصلى، إحدى تلك المؤسسات الروسية؛ حيث الأم معوقة والأب يشرب كثيرًا ويضربها وابن متسكع وابنة برأس حليق تضع أحمر الشفاه الأرجوانى. امرأة يمكن أن تغنى قليلا لكنها فى يوم من تلك الأيام، يوم قريب، ستكون فوق التل. تعزف بلالايكا لغرباء، تغنى هراء روسيًا، وتحصل على البقشيش.

"إنه حر. هل تتحدثين الروسية؟ لا؟"

تهز رأسها.

" الألمانية؟"

"قليلا."

"إنه سخى. رجل متحرر." (١)

سخى(٢) سخى. تنطق حرف جى(٣) بروسية ثقيلة. هل إيمانويل سخى؟ لا تعرف، على أية حال. إلا أنها ليست أول كلمة تخطر على بالها. متحرر، ربما. متحرر فى إيماءاته.

تبدى ملاحظة للمرأة: "لكنه نادرًا ما يصدق(٤) انقضت سنوات على استخدامها اللغة آخر مرة. هل هذا هو ما تحدث عنه الاثنان فى السرير الليلة الماضية: الألمانية، اللسان الليبرالى لأوروبا الجديدة؟ نادرًا ما يصدق(٥) لا يمكن الثقة فى ذلك.

---

(١) (٢) بالألمانية فى الأصل.

(٣) حرف جى وفى gag generous (سخى).

(٤) (٥) بالألمانية فى الأصل.

www.ibtesama.com

تهز المرأة كتفيها مرة أخرى: "لا يمكن للرجل أن يقدم كل ما لديه [1] وقفة. تتحدث المرأتان مرة أخرى. "الصوت أيضًا. ربما تحب الصوت"[2] تفتش عن الكلمة- "رجفة الصوت." [3]

رجفة. (٣٠) رجفة. يرتجف الصوت رجفة. ربما يرتجف، حين يكون المرء صدرًا لصدر معه. يمر بينها وبين الروسية ما قد يكون بداية ابتسامة. بالنسبة للطائر، مكثتا طويلا، وقد فقد الطائر الاهتمام بهما. إلا أن الفرخ، ناظرًا من تحت أمه، مازال حذرًا من الدخيلتين.

هل هى غيورة؟ كيف يمكن أن تكون؟ إلا أنه من الصعب أن تتقبل استبعادها من المباراة. كأنها طفلة مرة أخرى وقد حان وقت نوم الطفلة.

الصوت. تعود أفكارها إلى كوالالامبور، حين كانت شابة، أو شابة تقريبًا، حين قضت ثلاث ليالٍ فى مهمة مع إيمانويل إجودو، وكان حينذاك شابًا أيضًا. قالت له بسخرية: "الشاعر الشفهى. أرنى ماذا يستطيع شاعر شفهى أن يفعل." طرحها ونام فوقها، ووضع شفتيه على أذنيها، فتحهما، ونفث نفَسه فى نفسها ليريها.

●●●

(١) (٢) (٣) بالألمانية فى الأصل.

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

(٣)
حياة الحيوان
١ـ الفلاسفة والحيوانات

ينتظر على البوابة عند وصول طائرتها. مضت سنتان منذ رأى أمه آخر مرة؛ يُصدَم، رغما عنه، حين يرى كم شاخت. شعرها، الذى كان به بعض الخطوط الرمادية، أبيضَّ كله؛ تهدل كتفاها؛ ترهل لحمها.

لم يكونا أبدًا عائلة تصرح بعواطفها. بحضن وهمهمة ببعض الكلمات، تنتهى إجراءات التحية. فى صمت يتبعان مسار المسافرين إلى صالة الحقائب، يلتقط حقيبتها، ويبدأ فى قيادة سيارته تسعين دقيقة.

يبدى ملاحظة: "رحلة طويلة. لابد أنكِ مُنهَكة."

تقول: "جاهزة للنوم"؛ وفى الحقيقة، يغلبها النوم سريعا فى الطريق، رأسها يستند على النافذة.

فى السادسة، والظلام يهبط، يتوقفان أمام بيته فى ضاحية ولتهام (*) تظهر زوجته نورما والأطفال فى الرواق. فى استعراض للعاطفة لابد أنه يكلفها

(*) ولتهام Waltham: مدينة فى شرق مسشوسيتس إلى الغرب من بوسطن.

www.ibtesama.com

كثيرًا تفرد نورما ذراعيها وتقول: "إليزابيث!" تتعانق المرأتان: ثم الأطفال، يتبعهما الأطفال مباشرة بطريقة مهذبة وإن كانت أكثر كبتًا للمشاعر.

ستمكث معهم إليزابيث كستلو الروائية ثلاثة أيام هى فترة زيارتها إلى أبليتون(*) كوليج. ليست وقتا يتطلع إليه. زوجته وأمه لا تتفقان. من الأفضل أن تقيم فى فندق، لكنه لا يجرؤ على اقتراح ذلك.

تجددت العداوات فى الحال تقريبًا. أعدتْ نورما عشاء خفيفا. تلاحظ أمه أن ثلاثة أماكن فقط قد أعدت. تسأل: "ألن يأكل الأطفال معنا؟" تقول نورما: "لا. إنهم يأكلون فى غرفة اللعب." "لماذا؟"

السؤال ليس ضروريًا: لأنها تعرف الإجابة. الأطفال يأكلون منفصلين لأن إليزابيث لا تحب أن ترى لحومًا على المائدة، بينما ترفض نورما أن تغير طعام الأطفال ليتواءم مع ما تدعوه "الأحاسيس الرقيقة لأمك."

"لماذا؟" تسأل إليزابيث كستلو مرة ثانية.

ترمقه نورما بنظرة غاضبة. يتنهد. يقول: "أمى، الأطفال يتناولون دجاجا على العشاء، هذا هو السبب الوحيد."

تقول: "أوه. أرى."

دعيت أمه إلى أبليتون كوليج، حيث يعمل ابنها جون أستاذًا مساعدًا للفيزياء والفلك، لتلقى محاضرة

(*) أبليتون Appleton : مدينة فى الولايات المتحدة تقع شرق ولاية وسكونسين، على نهر فوكس، جنوب غرب الخليج الأخضر.

www.ibtesama.com

جيتس السنوية وتلتقى بطلبة الآداب. وحيث إن كستلو هو اسم أمه قبل الزواج، ولأنه لم ير أبدا سببا لإعلان ارتباطه بها، لم يُعرَف وقت الدعوة أن إليزابيث كستلو، الكاتبة الأسترالية، لها ارتباط عائلى فى مجتمع أبليتون. كان يفضل أن تستمر الأمور كما هى.

دعيت هذه السيدة البدينة ذات الشعر الأبيض لسمعتها كروائية إلى أبليتون لتتحدث عن أى موضوع تختاره: وقد لبت الدعوة واختارت أن تتحدث، ليس عن نفسها أو قصصها، كما يحب دعاتها دون شك، لكن عن موضوع تهواه، عن الحيوانات.

لم يعلن جون برنارد عن ارتباطه بإليزابيث كستلو لأنه يفضل أن يشق طريقه الخاص فى العالم. ليس خَجِلا من أمه. على العكس، إنه فخور بها، برغم أنها تكتب عنه وعن أخته وأبيه الراحل فى كتبها بطرق يراها مؤلمة أحيانًا. لكنه ليس متأكدًا من أنه يريد أن يسمعها تتحدث مرة أخرى عن موضوع حقوق الحيوان، خاصة حين يعرف أنه سيتعرض بعد ذلك، فى السرير، لتعليق ساخر من زوجته.

قابل نورما وتزوجها حين كانا طالبين فى الدراسات العليا فى جون هوبكنز(*) نورما حاصلة على دكتوراه الفلسفة فى الفلسفة وهى متخصصة فى فلسفة العقل. لم تعثر على عمل فى التدريس بعد أن

(*) جامعة جون هوبكنز، تقع فى بلتيمور، ميريلاند. الولايات المتحدة. تأسست عام ١٨٧٦.

www.ibtesama.com

انتقلت معه إلى أبليتون. هذا سبب المرارة التى تشعر بها، وسبب الخلاف بينهما.

لم تحب نورما أمه ولم تحبها أمه أبدًا. ربما لم تكن أمه لتختار أن تحب أية امرأة يتزوجها. ولم تتردد نورما أبدًا فى أن تقول له إن كتب أمه تحظى بأكثر مما تستحق، وأن آراءها عن الحيوانات ووعى الحيوانات والعلاقات الأخلاقية مع الحيوانات ضحلة وعاطفية. وهى تكتب حاليًا مراجعة لمجلة فلسفية عن خبرات تعلم اللغة عند الرئيسات[١] لن يندهش إذا ذُكِرتْ أمه فى هامش استنكارى.

ليس له هو نفسه آراء فى الموضوع بشكل أو آخر. احتفظ وهو طفل ببعض الهمسترات[٢] لوقت قصير. وباستثناء ذلك لا يعرف إلا القليل عن الحيوانات. يريد ولدهما الأكبر جروًا. لكنه يقاوم هو ونورما: لا يهتمان بوجود جرو لكنهما يريان أن كلبًا كبيرًا، بالاحتياجات الجنسية لكلب كبير، لا يمثل إلا مشكلة.

يؤمن بأن لأمه الحق فى قناعاتها. إذا كانت تريد أن تقضى سنواتها الأخيرة فى الدعاية ضد الوحشية تجاه الحيوانات، فهذا من حقها. بعد أيام قليلة،

---

(١) الرئيسات primate : رتبة من الثدييات تشمل الإنسان والقرود، وتتميز بتطور دقيق فى اليدين والقدمين وأنف قصير ودماغ كبير.

(٢) الهمستر hamjster : حيوان من القوارض شبيه بالفأر. يستخدم كحيوان تجارب ويربى فى البيوت. له كيسان فى الخدين يحمل فيهما الحبوب للغذاء فى فترة البيات.

www.ibtesama.com

لحسن الحظ، ستكون فى طريقها إلى وجهتها التالية، وسوف يستطيع العودة إلى عمله.

تنام أمه، فى صباحها الأول فى ولتهام، إلى وقت متأخر. يخرج ليلقى درسًا، يعود وقت الغداء، يأخذها بالسيارة فى جولة حول المدينة. موعد المحاضرة فى وقت متأخر بعد الظهيرة. وسيتبعها عشاء رسمى يقيمه الرئيس، وسيحضره هو ونورما.

تقدم للمحاضرة إيلين ماركس من قسم اللغة الإنجليزية. لا يعرفها لكنه يفهم أنها كتبت عن أمه. يلاحظ، فى مقدمتها، أنها لم تبذل أية محاولة للربط بين روايات أمه وموضوع المحاضرة.

ثم يأتى الدور على إليزابيث كستلو. تبدو له عجوزًا مرهقة. يحاول، وقد جلس فى الصف الأمامى بجانب زوجته، أن يبث القوة فيها.

تبدأ: "سيداتى ساداتى. مضت سنتان منذ آخر مرة تحدثت فيها فى الولايات المتحدة. فى المحاضرة التى ألقيتها حينذاك، كان عندى مبرر للإشارة للقاص العظيم فرانز كافكا، وخاصة إلى قصته «تقرير إلى أكاديمية»، عن قرد متعلم، اسمه رِدْ بيتر، يقف أمام أعضاء مجتمع متعلم يحكى قصة حياته- قصة ارتقائه من الحيوانية إلى شىء قريب من الإنسان. شعرتُ فى تلك المناسبة أننى أنا نفسى أشبه رِدْ بيتر قليلا وقلتُ ذلك. هذا الشعور أقوى اليوم، لأسباب آمل أن تتضح لكم.

www.ibtesama.com

"تبدأ المحاضراتُ غالبًا بملاحظات خفيفة الظل للدخول إلى الجمهور بهدوء. ربما تؤخذ المقارنة التى عقدتها للتو بينى وبين قرد كافكا كملاحظة خفيفة الظل، للدخول إليكم بهدوء، لأقول إننى شخصية عادية، لا جيدة ولا حيوانية. حتى أولئك الذين قرءوا من بينكم قصة كافكا عن القرد الذى يتحدث أمام البشر باعتبارها قصة رمزية لكافكا اليهودى يتحدث للأمميين(*) ربما سامحونى مع ذلك- فى ظل حقيقة أننى لستُ يهودية ـ لعقد مقارنة بالمعنى الظاهرى، أى بشكل تهكمى.

"أود أن أقول بدايةً أن ذلك لم يكن الهدف من ملاحظتى- ملاحظة أننى أشعر وكأننى رِدْ بيتر. لم أقصد ذلك بشكل تهكمى. إنها بالمعنى المباشر. أقول ما أعنى. أنا امرأة عجوز. لم يعد أمامى وقت لأقول ما لا أعنى."

لا تتمتع أمه بأداء جيد. حتى كقارئة لقصصها الخاصة تفتقر للحيوية. كان يحيِّره دائمًا، وهو طفل، أن تلك المرأة التى كتبت كتبًا خالدة سيئة جدًا وهى تحكى قصص ما قبل النوم.

يشعر، بسبب رتابة أدائها ولأنها لا ترفع رأسها عن الصفحة، أن ما تقوله بلا تأثير. إلا أنه يشعر، لأنه يعرفها، بما هى مقبلة عليه. لا يتطلع إلى ما هو آتٍ. لا يود أن يسمع أمه تتحدث عن الموت. بالإضافة

(*) الأمميون Gentiles: الأممى من لا يؤمن باليهودية، أو من ليس يهوديًا.

www.ibtesama.com

إلى أن لديه إحساساً قويًا بأن رغبة جمهورها - الذى يتكون، رغم كل شىء، من الشباب أساسًا - فى الحديث عن الموت ربما تكون حتى أقل من رغبته.

تواصل: "بمخاطبتكم عن موضوع الحيوانات، سأمنحكم شرف تخطى وصف هلع حياتها وموتها. مع أننى ليس لدىَّ سبب يجعلنى أصدق أنكم تضعون فى مقدمة اهتماماتكم ما يحدث للحيوانات فى هذه اللحظة فى وسائل الإنتاج (أتردد فى أن أسميها بعد ذلك مزارع)، فى السلخانات، فى سفن الصيد، فى المختبرات، فى كل أرجاء العالم، سأسلم بأنكم تمنحوننى القوة البلاغية لأثير هذا الهلع وأعيده إليكم بقوة كافية، وأتركه هناك، مذكرة إياكم فقط بأن الهلع الذى أحذفه هنا هو، رغم ذلك، فى مركز هذه المحاضرة.

"بين عام ١٩٤٢ وعام ١٩٤٥وضع عدة ملايين من البشر حتى الموت فى معسكرات الاعتقال فى الرايخ الثالث: فى تربلينكا(*) وحدها أكثر من مليون ونصف وربما يصل العدد إلى ثلاثة ملايين. هذه أرقام تخدر العقل. لدينا مَيْتَةٌ واحدة تخصنا؛ لا نستطيع أن نفهم ميتات الآخرين إلا ميتة فى كل مرة. ربما نستطيع بشكل مجرد أن نعد إلى مليون، لكننا لا نستطيع أن نعد حتى مليون مَيْتة.

(*) تربلينكا Treblinka: معسكر إعدام ألمانى أقيم فى بولندا أثناء احتلالها فى الحرب العالمية الثانية. قتل فيه حوالى ٧٥ ألفا من اليهود وضحايا الهولوكوست الآخرين بين يوليو ١٩٤٢ وأكتوبر ١٩٤٣. وتقع قرية تربلينكا التى أقيم فيها المعسكر على بعد ٨٠ كم شمال شرق وارسو.

www.ibtesama.com

"قال الناس الذين عاشوا فى القرى حول تربلنكا- معظمهم من البولنديين- إنهم لم يعرفوا ما كان يحدث فى المعسكر؛ قالوا ذلك، لكنهم ربما خمنوا عمومًا ما كان يحدث، لم يعرفوا بالتأكيد؛ قالوا ذلك، لكن ربما عرفوا بمعنى ما، وبمعنى آخر لم يعرفوا، لم يتحملوا أن يعرفوا، من أجل أنفسهم.

"لم يكن الناس حول تربلينكا استثناء. كانت هناك معسكرات فى كل أرجاء الرايخ، حوالى ستة آلاف فى بولندا وحدها، وآلاف لا تحصى فى ألمانيا نفسها. عاش قليل من الألمان على بعد يزيد عن بضعة كيلومترات من أحد المعسكرات. لم تكن كل المعسكرات معسكرات للموت، معسكرات مخصصة لإنتاج الموت، لكن الهلع كان ينتشر فيها كلها، هلع أفظع من أن يتحمل المرء معرفته، من أجل نفسه.

"لا يعود ذلك إلى أن الألمان شنوا حربًا واسعة، وخسروها، إلى أن جيلا معينًا منهم مازال يُعتَبَر خارجًا بعض الشىء على الإنسانية، وعليه أن يقوم بعمل شىء متميز أو يكون شيئًا متميزًا قبل أن يكون من الممكن إعادة ضمهم تحت عباءة الإنسانية. فقدوا إنسانيتهم، فى نظرنا، بسبب جهل معين متعمد من جانبهم. تحت ظروف حرب من النوع الذى شنه هتلر، ربما يكون الجهل آلية مفيدة للبقاء، لكن ذلك عذر نرفض قبوله، بصرامة أخلاقية جديرة بالإعجاب. فى ألمانيا، كما نقول، تم عبور خط معين أخذ الناس أبعد من القتل المعتاد ووحشية الحرب إلى حالة لا يمكن إلا

www.ibtesama.com

أن نصفها بالإثم. لم ينهِ ثراء بنود المعاهدة ودفع التعويضات هذه الحالة من الإثم. على العكس، كما قلنا، استمرت علة الروح لتَصِمَ ذلك الجيل. وصمتْ مواطنى الرايخ الذين قاموا بأعمال شريرة، ووصمتْ أيضا أولئك الذين جهلوا، لسبب من الأسباب، تلك الأعمال. وصمتْ، لأغراض خاصة، كل مواطنى الرايخ. لم يكن هناك أبرياء إلا من كانوا فى المعسكرات.

"'سيقوا كالأغنام إلى المذبح.' 'ماتوا كالحيوانات.' 'قتلهم الجزارون النازيون. 'يتردد شجب المعسكرات مليئًا بلغة الحظيرة والمذبح التى أحتاجها لمجرد أن أمهد الأرض للمقارنة التى أنا بصدد عقدها. كانت جريمة الرايخ الثالث، كما يقول صوت الاتهام، معاملة الناس مثل الحيوانات.

"نحن - حتى نحن فى أستراليا- ننتمى إلى حضارة تمتد جذورها بعمق فى الفكر الدينى الإغريقى والمسيحى اليهودى. ربما لا نؤمن، جميعًا، بالتدنيس، ربما لا نؤمن بالإثم، لكننا نؤمن بارتباطاتهما النفسية. نقبل يقينًا أن النفس (أو الروح) التى تماست مع معرفة آثمة لا يمكن أن تكون فى حالة طيبة. لا نقبل أن يكون الناس الذين تجثم الجرائم على ضمائرهم أصحاء وسعداء. ننظر (أو تعودنا أن ننظر) بازدراء لجيل معين من الألمان؛ لأنهم مدنسون، بمعنى ما؛ نرى فى العلامات الحقيقية على حالتهم الطبيعية (شهيتهم المفتوحة، وضحكتهم النابعة من القلب) مدى تعمق التدنيس فيهم.

www.ibtesama.com

"لم يكن من المتصوَّر، وليس من المتصوَّر، أن الناس الذين لم يعرفوا (بذلك المعنى الخاص) شيئًا عن المعسكرات يمكن أن يكون بشرا بمعنى الكلمة. كانوا هم، فى استعاراتنا المختارة، الحيوانيين وليس ضحاياهم. صاروا هم أنفسهم بمعاملة رفاقهم من الكائنات البشرية، الكائنات التى خلقت على صورة الرب، معاملة البهائم، صاروا بهائم.

"أخذتُ فى جولة بالسيارة حول ولتهام هذا الصباح. تبدو بلدة على قدر كافٍ من الجمال. لم أر هلعا، أو معامل تجرى اختبارات على الأدوية، أو مزارع صناعية، أو سلخانات. نعم أن متأكدة من وجودها هنا. لابد أنها موجودة. إنها ببساطة لا تعلن عن نفسها. إنها فى كل مكان حولنا وأنا أتكلم، إلا أننا، بمعنى معين، لا نعرف شيئًا عنها.

"لأقلّ صراحة: إننا محاطون بمشروع انحلال ووحشية وقتل ينافس أى شىء كان الرايخ الثالث قادرًا عليه، ويتفوق عليه حقًا، فى أن مشروعنا مشروع بلا نهاية، يتجدد، يجلب الأرانب والفئران والدواجن والماشية دون توقف إلى العالم لقتلها.

"والمُمَاحَكة في الأمور التافهة، لادعاء أنه لا يوجد وجه للمقارنة، إن تربلنكا كانت إذا جاز التعبير مشروعًا ميتافيزيقيًا لم يكرس إلا للموت والإبادة بينما صناعة اللحوم مكرسة فى النهاية من أجل الحياة (بمجرد موت ضحاياها، رغم كل شىء، لا تحرقها وتحولها إلى رماد أو تدفنها لكنها على العكس

www.ibtesama.com

تقطعها وتثلجها وتعلبها حتى يمكن استهلاكها بسهولة فى بيوتنا) ليست عزاء لتلك الضحايا كما لو كان علينا- معذرة لعدم استساغة ما يلى- أن نطلب من موتى تربلنكا أن يعذروا قتلاهم؛ لأنهم كانوا يحتاجون دهونهم لصناعة الصابون وشعورهم لحشو الفراش.

"سامحونى، أكرر. تلك آخر نقطة مبتذلة أسجلها. أعرف كيف يمكن لحديث من هذا النوع أن يستقطب الناس، وليس لتسجيل نقطة مبتذلة إلا أن يجعله أسوأ. أود أن أعثر على طريقة للتحدث إلى الرفاق من البشر، طريقة باردة لا ساخنة، فلسفية لا انفعالية، طريقة تجلب التنوير لا طريقة تسعى إلى تقسيمنا إلى محقين وآثمين، ناجين وملعونين، خراف وماعز.

"أعرف أن مثل تلك اللغة متاحة لى. إنها لغة أرسطو وبورفيرى، لغة أوجستين والإكوينى، لغة ديكارت وبنتهام، وفى أيامنا، لغة مارى مجلى وتوم ريجان. (*)إنها لغة فلسفية نستطيع بها أن نناقش ونجادل بشأن نوع أرواح الحيوانات، إن كانت تَعْقِل أو

(*) بورفيرى (٢٣٤ ـ ٣٠٥) ولد فى مدينة صور، لبنان، من فلاسفة الأفلاطونية الجديدة. أوجستين((٣٥٤ ـ ٤٣٠قبل الميلاد): فيلسوف وأحد آباء الكنيسة الأوائل. توماس الأكوينى (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) ناسك إيطالى وفيلسوف، طبق المنهج الأرسطى على اللاهوت المسيحى. ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) أحد أكثر الفلاسفة الفرنسيين تأثيرًا، يعرف بأبى الفلسفة الحديثة وأبى الرياضيات الحديثة. بنتهام (١٧٤٨ ـ ١٨٣٢) كاتب ومصلح وفيلسوف بريطانى. مارى مجلى (١٩١٩ ـ) فيلسوفة بريطانية، اشتهرت بأعمالها عن الدين والعلم والأخلاق. توم ريجان (١٩٣٨ ـ) فيلسوف أمريكى، وأحد النشطين فى مجال حقوق الحيوان.

www.ibtesama.com

على العكس تعمل كآلات بيولوجية، إن كانت لها حقوق علينا أم أن لنا فقط واجبات عليها. هذه اللغة متاحة لى وسألجأ إليها فى الحقيقة لبعض الوقت. لكن الحقيقة هى، إذا كنتم قد أردتم شخصًا يأتى إلى هنا ويفرق لكم بين الأرواح الفانية والأرواح الخالدة، أو بين الحقوق والواجبات، لكان عليكم أن تدعو فيلسوفًا، لا شخصية ادعاؤها الوحيد فى نظركم أنها كتبت قصصًا عن أناس مختلقين.

"أستطيع، كما قلتُ، العودة إلى تلك اللغة بطريقة غير أصيلة سبق استخدامها، وهو أفضل ما يمكن أن أقوم به. أستطيع أن أخبركم، على سبيل المثال، بما أعتقده بشأن حجة القديس توماس، لأن الإنسان وحده خُلِق على صورة الرب ويشاطر الرب كينونته، فإن الطريقة التى نعامل بها الحيوانات لا أهمية لها باستثناء أن تعاملنا بوحشية مع الحيوانات قد يعوِّدنا على التعامل بوحشية مع البشر. أستطيع أن أسأل عما يسلِّم القديس توماس بأنه جوهر الرب، وسيرد بأن جوهر الرب هو العقل. وبالمثل أفلاطون، وبالمثل ديكارت، بطريقتيهما المختلفتين. يُبنَى الكون على العقل. الرب هو رب العقل. إن حقيقة أننا باستخدام العقل يمكن أن نفهم القواعد التى يعمل بها الكون تثبت أن العقل والكون من جوهر واحد. وحقيقة أن الحيوانات لا يمكن، لأنها تفتقر إلى العقل، أن تفهم الكون وعليها ببساطة أن تتبع قواعده دون تبصر، تثبت أنها، على عكس الإنسان، جزء منه لكنها

www.ibtesama.com

ليست جزءا من كينونته؛ الإنسان ربانى، والحيوانات شيئية.

"حتى إيمانويل كانط (*) الذى توقعتُ منه الأفضل، يخونه التوفيق فى هذه المسألة. حتى كانط لا يتابع، فيما يتعلق بالحيوانات، ما يتضمنه حدسه بأن العقل قد لا يكون جوهر الكون لكنه على العكس جوهر المخ الإنسانى فقط.

"وتلك، كما ترون، هى المعضلة التى أواجهها بعد ظهيرة هذا اليوم. يخبرنى العقل وسبعة عقود من خبرة العمر أن العقل ليس جوهر الكون أو جوهر الرب. على العكس، يبدو العقل لى مريبًا مثل جوهر الفكر الإنسانى؛ أسوأ من ذلك، مثل جوهر نزعة واحدة فى الفكر الإنسانى. إن العقل جوهرُ نطاقٍ معين من التفكير الإنسانى. وإذا كان الأمر كذلك، إذا كان ذلك هو ما أؤمن به، إذًا لماذا يكون علىَّ أن أنحنى للعقل بعد ظهيرة هذا اليوم، وأقْنع بتطريز خطاب الفلاسفة القدماء؟

"أطرح السؤال وأقدم إجابته لكم. أو بالأحرى، أسمح لِرِدْ بيتر، رِدْ بيتر كافكا، بأن يقدم إجابته لكم. أنا هنا الآن، هكذا يقول رِدْ بيتر، فى بدلتى الرسمية وربطة عنق وملابسى الداخلية السوداء وفتحة فى مقعدى ليندس فيها ذيلى (أُبْعِدُه عنكم بحيث لا ترونه)، أنا هنا الآن، ماذا أفعل؟ هل لى فى الحقيقة

(*) إيمانويل كانط (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) فيلسوف ألمانى، يعتبر من أعظم المفكرين تأثيرًا فى أوروبا الحديثة وآخر أعظم فلاسفة عصر التنوير.

www.ibtesama.com

حق الاختيار؟ إذا لم أُخْضعْ خطابى للعقل، مهما يكن، ماذا يتبقى لى سوى أن أثرثر وأنفعل وأنقر على كوب الماء وأجعل نفسى قردا باختصار؟

"لابد أنكم تعرفون حالة سرينيفاسا رَمانوجان [1] المولود فى الهند عام ١٨٨٧وقد أُسِر ونقل إلى كمبريدج فى إنجلترا، حيث مرض، لعجزه عن تحمل المناخ والغذاء والنظام الأكاديمى، ومات فى الثالثة والثلاثين.

"يعتقد على نطاق واسع أن رَمانوجان أعظم رياضى بالفطرة فى عصرنا، أى، كرجلٍ علَّم نفسه ما اعتقده فى الرياضيات، وكان المفهوم المضنى للبرهان أو الإثبات الرياضى غريبًا بالنسبة له. وتبقى نتائج كثيرة من نتائج رَمانوجان (أو تخميناته، كما يسميها منتقدوه) بدون إثبات، مع أن كل الفرص تؤكد صحتها.

"ماذا تقول لنا ظاهرة رَمانوجان؟ هل كان رَمانوجان أقرب إلى الرب لأن ذهنه (دعونا نسميه ذهنه؛ تبدو لى إهانة بلا مبرر أن نسميه دماغه) كان متحدا، أو متحدا أكثر من ذهن أى شخص آخر نعرفه، مع جوهر العقل؟ إذا كانت المجموعة الطيبة فى كمبريدج، وخاصة البروفسيور ج. هـ. هاردى[2] لم

(١) سرينيفاسا رَمانوجان (١٨٨٧ ـ ١٩٢٠) عالم رياضيات هندى، يعتبر على نطاق واسع أحد أعظم العقول الرياضية فى التاريخ الحديث.

(٢) ج. هـ. هاردى (١٨٨٧ ـ ١٩٤٧) عالم رياضيات إنجليزى بارز، اشتهر بإنجازاته فى نظرية الأرقام والتحليل الرياضى. واشتهرت علاقته كمعلم، منذ عام ١٩١٤ بالرياضى الهندى سرينيفاسا رَمانوجان.

www.ibtesama.com

ينتزعوا من رَمانوجان تخميناته، وبرهنوا بمجهود مضنٍ على صحة ما استطاعوا أن يبرهنوا على صحته منها، هل يبقى أن رَمانوجان كان أقرب إلى الرب منهم؟ ماذا إذا جلس رَمانوجان فى بيته، بدلا من الذهاب إلى كمبريدج، وفكر فى أفكاره وهو يملأ البطاقات لسلطات ميناء مدراس؟

"وماذا عن رِدْ بيتر (أعنى رِدْ بيتر التاريخى)؟ كيف لنا أن نعرف أن رد بيتر، أو الأخت الصغيرة لِرِدْ بيتر، وقد أطلق الصيادون النار عليها فى إفريقيا، لم يفكروا بالطريقة نفسها التى كان يفكر بها رَمانوجان فى الهند، ولا يقولون مثله إلا القليل؟ هل الاختلاف بين ج. هـ. هاردى، من ناحية، ورَمانوجان الأبكم ورِدْ سالى البكماء، من الناحية الأخرى، يكمن فقط فى أن الأول مطلع على بروتوكولات الرياضيات الأكاديمية بينما الآخران غير مُطَّلِعَين عليها؟ هل نقيس بهذه الطريقة القرب من الرب أو البعد عنه، عن جوهر العقل؟

"كيف يُلقِى الجنس البشرى، جيلا بعد جيل، كادر المفكرين أبعد قليلا عن الرب من رَمانوجان لمجرد أنهم يستطيعون، بعد اثنى عشر عامًا من التعليم المدرسى المخطط وستة من التعليم الجامعى، المساهمة فى حل رموز كتاب الطبيعة العظيمة بواسطة فرعى الفيزياء والرياضيات؟ إذا كان جوهر الإنسان متحدًا مع جوهر الرب، ألا يجب أن يكون مدعاة للشك أن البشر يقضون ثمانية عشر عامًا،

www.ibtesama.com

تمثل جزءًا رائعًا وطيعًا من عمر الإنسان، لتأهيلهم لحل رموز المخطوطة الرئيسية للرب، بدلا من خمس دقائق، على سبيل المثال، أو خمسمائة سنة؟ هل يمكن ألا تكون تلك الظاهرة التى نفحصها هنا، بدلا من ازدهار الملكة التى تتيح مدخلا إلى أسرار الكون، نزعة التَخصُّص فى تراثٍ ثقافى يجدد نفسه بصورة محدودة إلى حد ما وتكمن براعته فى الاستنتاج، بالضبط كما تكمن براعة لاعبى الشطرنج فى لعب الشطرنج، نزعة تحاول لدوافعها الخاصة أن تقيم فى مركز الكون؟

"ومع أننى أرى أن أفضل الطرق لنيل القبول من هذا الجمع المتعلم أن ألتحق، مثلما يجرى تيارُ رافدٍ إلى نهر كبير، بالخطاب الغربى الكبير عن الإنسان مقابل البهيمة، عن العقل مقابل اللاعقل، لكن شيئًا داخلى يقاوم، ويرى فى تلك الخطوة انسحابًا من المعركة كلها.

"لأن العقل، حين يراه من الخارج كائنٌ غريب عنه، مجرد حشو ضخم. سوف يثبت العقل، بالطبع، صحة أن العقل هو المبدأ الأول للكون- هل يمكن أن يفعل شيئًا آخر؟ يخلع تاجه؟ إن نُظُم الاستنتاج، كنظمٍ كليةٍ، لا تتمتع بتلك القدرة. إذا كان هناك موضع يمكن أن يهاجمه العقل ويخلع تاجه، فقد احتل العقل بالفعل هذا الموضع؛ وإلا فهو ليس كليًا.

"كان صوت الإنسان، وقد ارتفع بالعقل فى العصور الغابرة، يواجهه زئير الأسد وخوار الثور،

www.ibtesama.com

وكسب تلك الحرب، بالتأكيد، بعد أجيال كثيرة. اليوم فقدتْ هذه المخلوقات قوتها. لم يتبقَّ للحيوانات إلا صمتها تواجهنا به. يرفض أسرانا، جيلا بعد جيل، ببطولة، الحديث معنا. الإنقاذ لِردِّ بيتر، الإنقاذ للقرود العظيمة.

"ولأن القرود العظيمة، أو بعضها، تبدو لنا وكأنها على وشك أن تتخلى عن صمتها، نسمع الأصوات البشرية تتعالى قائلة إن القرود العظيمة يجب أن تندمج فى العائلة الأكبر التى تضم أشباه الإنسان[١] ككائنات تشارك الإنسان ملكة العقل. ولأن هذه الأصوات الإنسانية، أو شبه الإنسانية، تتواصل، يجب أن تحصل القرود العليا على حقوق الإنسان، أو حقوق أشباه الإنسان. أية حقوق بشكل خاص؟ على الأقل تلك الحقوق التى نمنحها للمعوقين ذهنيًا من **الجنس البشرى**[٢] حق الحياة، الحق فى ألا يتعرضوا للألم أو الأذى، الحق فى حماية متساوية أمام القانون.

"ليس هذا ما كان ردِّ بيتر يكافح من أجله حين كتب، من خلال كاتبه فرانز كافكا، تاريخ الحياة التى افترض أن يقرأه، فى نوفمبر ١٩١٧ أمام أكاديمية العلوم. بصرف النظر عن أى شىء آخر ربما حدث، لم يكن تقريره إلى الأكاديمية توسلا لأن يُعامَل كما يُعامَل إنسانٌ معوق ذهنيًا، إنسان بسيط.

---

(١) أشباه الإنسان (الهومينودية) Hominoidea : فصيلة عليا من الرئيسات تشمل القرود والبشر.

(٢) باللاتينية فى الأصل.

www.ibtesama.com

"لم يكن رِدّ بيتر باحثًا فى سلوك الرئيسات لكنه كان حيوانًا جريحًا يحمل علامة يقدم نفسه، لمجموعة من الأكاديميين، كدليلٍ ناطق. لستُ فيلسوفًا يتناول العقل لكننى حيوان أعرض، ما لم يعرض بعد، على مجموعة من الأكاديميين، جرحًا، أواريه تحت ملابسى لكننى ألّمح إليه فى كل كلمة أقولها.

"إذا أخذ رِدّ بيتر على عاتقه أن يصنع منحدرًا صعبًا من صمت البهائم إلى ثرثرة العقل فى روح كبش الفداء، الكبش المختار، فإن كاتبه كان كبش فداء منذ مولده، بهاجس، هاجس، [1] لذبح الشعب المختار الذى كان سيحدث بسرعة بعد موته. لذا دعونى، لأبرهن على حسن نواياى- أوراق اعتمادى، أقوم ببادرة فى اتجاه الأكاديميين وأقدم لكم تخميناتى العلمية، مدعمة بالهوامش"- هنا، فى بادرة غير معهودة، ترفع أمه نص محاضرتها وتلوح به فى الهواء- "عن أصول رِدّ بيتر.

"فى ١٩١٢ أسست الأكاديمية البروسية للعلوم على جزيرة تنريف [2] مركزًا مكرسًا للتجارب على القدرات الذهنية للقرود، وخاصة الشمبانزى. وظل المركز يعمل حتى ١٩٢٠

"وكان عالم النفس ولفجانج كوهلر[3] أحد العلماء الذين عملوا هناك. طبع كوهلر فى١٩١٧ دراسة

(١) بالألمانية فى الأصل.

(٢) تنريف Tenerife: إحدى جزر الكنارى فى المحيط الأطلنطى. وهى أكبر جزر هذه المجموعة.

(٣) ولفجانج كوهلر(١٨٨٧ ـ ١٩٦٧) عالم نفس ألمانى، وضع نظرية التعلم بالاستبصار، وأحد الأقطاب الثلاثة فى تكوين علم نفس الجشتالط.

www.ibtesama.com

بعنوان 'ذهنية القرود' يصف فيها تجاربه. وفى نوفمبر من العام نفسه نشر فرانز كافكا قصته «تقرير إلى أكاديمية»، لا أعرف إن كان كافكا قرأ كتب كوهلر أم لا. لم يشر إليه فى رسائله أو يومياته، وقد اختفت مكتبته فى عصر النازى. وظهر مرة أخرى حوالى مائتين من كتبه عام ١٩٨٢ .ليس من بينها كتاب كوهلر، لكن هذا لا يبرهن على شىء.

"لستُ متخصصة فى كافكا، لستُ متخصصة على الإطلاق. لا يتأسس وضعى فى العالم على ما إن كنتُ على صواب أم على خطأ فى ادعاء أن كافكا قرأ كتاب كوهلر. لكننى أود أن أعتقد أنه قرأه، والتتابع الزمنى يجعل تخمينى مقبولا على الأقل.

"أُسِرَ رِدٌ بيتر، طبقاً لتعليقه نفسه، على الأرض الإفريقية على أيدى صيادين متخصصين فى تجارة القرود، ونقل عبر البحر إلى معهد علمى. وهكذا كانت القردة التى أجرى كوهلر تجاربه عليها. قضى كل من رِدٌ بيتر وقرود كوهلر فترة تدريب بهدف أنسنتها. اجتاز رِدٌ بيتر تدريبه بتفوق، إلا أن ذلك كان مقابل ثمن شخصى باهظ. تتناول قصة كافكا هذا الثمن: نعرفه من مواضع التهكم والصمت فى القصة. اجتازت قرود كوهلر تدريبها بنجاح أقل. إلا أنها اكتسبت على الأقل بعض المعارف السطحية.

"دعونى أُعِدٌ عليكم بعض ما تعلمته القردة فى تنريف من أستاذها ولفجانج كوهلر، وخاصة سلطان، أنبغ تلاميذه، بمفهوم معين لنموذج رِدٌ بيتر.

www.ibtesama.com

"سلطان وحده فى حظيرته، جائع: الطعام الذى يصل عادة بانتظام لم يصل لسبب غير مبرر.

"يتوقف الرجل الذى اعتاد أن يطعمه عن إطعامه ويضع سلكًا على الحظيرة على ارتفاع ثلاثة أمتار عن مستوى الأرض، ويعلق فيها سباطة موز. يجر إلى الحظيرة ثلاثة صناديق من الخشب، ثم يختفى، مغلقًا الباب وراءه، إلا أنه يبقى فى مكان قريب، بحيث يمكن للمرء أن يشمه.

"يعرف سلطان: يفترض أن المرء يفكر الآن. لهذا يوجد الموز فى مكان مرتفع. الموز موجود ليجعل المرء يفكر، لينبه المرء لحدود تفكيره. لكن فيما يجب على المرء أن يفكر؟ يفكر المرء: لماذا لم يعد يحبنى؟ يفكر المرء: لماذا لم يعد يحتاج إلى هذه الصناديق؟ لكن لا شىء من هذا التفكير صحيح. ربما حتى فكرة أكثر تعقيدًا- على سبيل المثال: ماذا أصابه، ما الخطأ فى تصوره لى، ما يجعله يؤمن أن الوصول إلى موز معلق فى سلك أسهل لى من التقاط الموز من الأرض؟- خطأ. الفكرة الصحيحة أن أفكر فى: كيف يمكن للمرء أن يستخدم الصناديق للوصول إلى الموز؟

"يجر سلطان الصناديق تحت الموز، ويضعها واحدًا فوق الآخر. يتسلق البرج الذى شيده، ويشد الموز. يفكر: الآن يتوقف عن عقابى؟

"الإجابة: لا. فى اليوم التالى يعلق الرجل سباطة من الموز الطازج فى السلك لكنه أيضًا يملأ الصناديق

www.ibtesama.com

بالحجارة؟ يُفترَض أن يفكر المرء: لماذا ملأ الصناديق بالحجارة؟ يُفترَض أن يفكر المرء: كيف يستخدم المرء الصناديق للوصول إلى الموز برغم أنها ممتلئة بالحجارة؟

"يبدأ المرء فى إدراك كيف يعمل ذهن الرجل.

"يفرغ سلطان الصناديق، ويشيد برجًا من الصناديق. يتسلق البرج، ويشد الموز.

"يبقى سلطان جائعًا طوال الفترة التى يستمر فيها فى التفكير الخطأ. إنه جائع حتى تشتد عليه آلام الجوع بشكل كبير، بحيث تسيطر عليه وترغمه على أن يفكر بشكل صحيح، أى، كيف يحصل على الموز. هكذا تختبر القدرات الذهنية للشمبانزى إلى أقصى حد.

"يسقط الرجل سباطة الموز على بعد متر خارج سلك الحظيرة. ويرمى عصا فى الحظيرة. التفكير الخطأ: لماذا توقف عن تعليق الموز فى السلك؟ التفكير الخطأ (إلا أنه تفكير خطأ صحيح): كيف يستخدم المرء الصناديق للوصول إلى الموز؟ التفكير الصحيح: كيف يستخدم المرء العصا للوصول إلى الموز؟

"فى كل دورة يُدفَع سلطان ليفكر تفكيرًا أقل جاذبية. من صفاء التخمين (لماذا يتصرف الرجال على هذا النحو؟) يدفع بقسوة باتجاه العقل الأدنى، العملى، الإجرائى (كيف يستخدم المرء هذا ليحصل على ذلك؟) وهكذا باتجاه أن يَقْبَل نفسَه أساسًا ككائن له شهية تحتاج إلى إشباع. ومع أن تاريخه الكامل،

www.ibtesama.com

منذ إطلاق النار على أمه وأسْره، عبر رحلته فى قفص ليسجن فى معسكر فى هذه الجزيرة والألعاب السادية التى تلعب حول الطعام هنا، تقوده إلى طرح أسئلة عن عدل الكون وموضع هذه المستعمرة العقابية فيه، نظام سيكولوجى مخطط بعناية يبعده عن الأخلاقيات والمسائل الميتافيزيقية باتجاه الأمور المتواضعة للعقل العملى. ولابد أن يدرك بشكل ما، وهو يتحرك فى هذه المتاهة، متاهة التقييد والتلاعب والازدواجية، أنه يستسلم بجسارة غير مبررة، لأن على كاهله تقع مسئولية تمثيل القرود. ربما يتحدد مصير أخوته وأخواته بمدى إتقانه لما يؤديه.

"ربما كان ولفجانج كوهلر رجلا طيبًا. رجلاً طيبًا لكنه لم يكن شاعرًا. ربما صنع الشاعر شيئا من اللحظة التى قفزت فيها أَسْرَى الشمبانزى حول المستعمرة فى دائرة، حيث العالم كله مثل فرقة عسكرية، بعضها عار كيوم ولدتها أمهاتها، بعضها مزين بحبال وبعضها بمزق قديمة من القماش قامت بالتقاطها، بعضها يحمل قطعًا من النفايات.

"(قرأتُ فى نسخة من كتاب كوهلر، استعرتها من المكتبة، تعليقًا لقارئ ساخط فى الحاشية، عند هذه النقطة: 'تجسيم(*) الحيوانات لا تستطيع أن تتقدم، أى أنها لا تستطيع أن تتأنق، لأنها لا تعرف **معنى التقدم**، فهى لا تعرف معنى **التأنق**.)

(*) تجسيم Anthropomorphism :إضفاء الصفات البشرية على غير العاقل.

www.ibtesama.com

"لا شيء فى الحياة السابقة للقرود جعلها تتعود على النظر إلى أنفسها من الخارج، وكأنها تنظر بعينى كائن لا يوجد. هكذا يدرك كوهلر أن الأشرطة والزبالة ليست للتأثير البصرى، لأنها تبدو أنيقة، لكنها للتأثير الحركى، لأنها تجعلها تشعر بأنها مختلفة- أى شيء للتخلص من الضجر. هذا أقصى ما يستطيع كوهلر أن يذهب إليه، بكل تعاطفه وبصيرته؛ هنا يمكن لشاعر أن يبدأ بالتعاطف مع خبرة القرد.

"لا يهتم سلطان، فى جوهره الأكثر عمقًا، بمشكلة الموز. لا يرغمه على التركيز عليها إلا النظام الصارم الذى يفرضه المجرب. السؤال الذى يشغله حقًا، كما يشغل الفأر والقطة وأى حيوان آخر وقع فى جحيم المختبر أو حديقة الحيوانات، هو: أين بيتى، وكيف أصل إليه؟

"قيسوا المسافة من قرد كافكا، بربطة العنق وسترة العشاء ورزمة ملاحظات المحاضرة، إلى هذا القطار الحزين من الأسرى الذين ينتشرون حول المعسكر فى تنريف. كم سافر رِدّ بيتر بعيدًا! لكن يبقى أننا مؤهلون لنسأل: مقابل التطور المذهل الذى حققه فى الذكاء، مقابل تمكنه من آداب قاعة المحاضرات والخطابة الأكاديمية، ماذا كان عليه أن يقدم؟ الإجابة: كثير من التتابع، بما فى ذلك السلالة. لو كان لدى رِدّ بيتر أى إحساس، لما كان ينجب أى أطفال. لأنه مع قِرْدة يائسة وشبه مجنونة يحاول معها آسروه، فى

www.ibtesama.com

قصة كافكا، لتعاشره، لا يمكن أن يكون أبًا إلا لمسخ. من الصعب أن نتخيل طفلا لردٍ بيتر بقدر صعوبة أن نتخيل طفلا لفرانز كافكا نفسه. الهُجُن عقيمة، أو يجب أن تكون عقيمة؛ وقد رأى كافكا أنه هو وردٌ بيتر مهجنان، كما ركبت أدوات التفكير الممسوخ، بشكل غير قابل للتفسير، على أجساد الحيوانات التى تعانى. إن النظرة التى نقابلها فى كل الصورة الفوتوغرافية التى بقيت لكافكا نظرةُ دهشةٍ خالصة: دهشة، استغراب، إنذار. كافكا الأكثر زعزعة فى إنسانيته بين كل الرجال. هذه، يبدو أنه يقول: هذه صورة الرب؟"

تقول نورما بجانبه: "إنها مشتتة."

"ماذا؟"

"إنها مشتتة. فقدت الخيط."

تواصل إليزابيث كستلو: "يوجد فيلسوف اسمه توماس نَاجِل(*) يطرح سؤالا اشتهر الآن فى دوائر المحترفين: ماذا يشبه أن تكون خفاشًا؟

"يقول مستر نَاجِل، مجرد أن نتخيل أننا نعيش كما يعيش خفاش- أن نتخيل أننا نقضى الليالى نطير حول الحشرات الفاتنة فى أفواهنا، نبحر بالصوت بدلا من البصر، وأيامنا معلقة رأسًا على عقب ـ لا يكفى، لأن كل ما يقال لنا ماذا يشبه أن تتصرف مثل

(*) توماس ناجل Thomas Nagel: (١٩٣٧ ـ) فيلسوف أمريكى، ولد فى بلجراد. يهتم بفلسفة العقل والفلسفة السياسية. اشتهر بنقده للتفسيرات الاختزالية للعقل فى بحثه "ماذا يشبه أن تكون خفاشًا؟" (١٩٧٤).

www.ibtesama.com

خفاش. بينما ما يلهمنا حقًا أن نعرف ماذا يشبه أن نكون خفاشًا، لأن الخفاش خفاش؛ وهذا ما لا يمكن أن ننجزه لأن عقولنا غير ملائمة لهذا الغرض- عقولنا ليست عقول خفافيش.

"يصدمنى نَاجِل كرجل ذكى لا ينقصه التعاطف. إنه ممتع حتى بحس الدعابة. لكن إنكاره أننا لا نستطيع أن نعرف معنى أن نكون أى شىء إلا واحدًا من أنفسنا يبدو لى قاصرًا بشكل تراجيدى، قاصرًا، قاصرًا ومقيدًا. الخفاش بالنسبة لنَاجِل مخلوق غريب تمامًا، ربما ليس غريبًا مثل المريخى (*) لكنه بالتأكيد أكثر غرابة من أى رفيق من البشر (خاصة، يمكن أن أحدس، إذا كان هذا الإنسان فيلسوفًا أكاديميًا).

"هكذا بدأنا سلسلة تمتد من المريخى من ناحية إلى الخفاش وإلى الكلب وإلى القرد (إلا أنه ليس رِدّ بيتر) وإلى الإنسان (إلا أنه ليس فرانز كافكا) من الناحية الأخرى؛ وفى كل خطوة ونحن ننتقل عبر السلسلة من الخفاش إلى الإنسان تصبح إجابة السؤال 'ماذا يشبه بالنسبة لسين أن يكون سينًا؟ كما يقول ناجل، أسهل.

"أعرف أن ناجل لا يستخدم الخفافيش والمريخيين إلا لمساعدته فى طرح سؤاله الخاص عن طبيعة الوعى. لكنَّ لدىَّ، مثل معظم الكُتَّاب، انطباعًا

(*) المريخى Martain : مصطلح يستخدم لوصف أى شىء يتعلق بكوكب المريخ، إلا أنه يستخدم عادة للإشارة إلى سكان مفترضين فى كوكب المريخ.

www.ibtesama.com

حَرْفيًا عن الذهن، لذا أود أن أتوقف عند الخفاش. حين يكتب كافكا عن قرد، أسلم بأنه يتحدث فى المقام الأول عن قرد؛ حين يكتب ناجل عن خفاش، أسلم بأنه يكتب، فى المقام الأول، عن خفاش."

تتنهد نورما، التى تجلس بجانبه، تنهيدة غضب واهية بحيث لا يسمعها غيره. لكنه الوحيد المعنِىُّ بسماعها.

تقول أمه: "أعرف، فى لحظات، ماذا يشبه أن أكون جثة. تصدنى المعرفة. تملؤنى بالهلع؛ أبتعد عنها، وأرفض أن أتسلى بها.

"نمر جميعا بمثل هذه اللحظات، خاصة حين يتقدم بنا العمر. معرفتنا ليست مجردة- «كل البشر هالكون، وأنا كائن بشرى، إذًا أنا هالك» لكنها مجسَّدة. للحظة نَكُون أحيانا تلك المعرفة. نحيا المستحيل: نحيا أبعد من موتنا، ننظر خلفنا إليه، إلا أننا ننظر خلفنا كما يمكن فقط لروح ميتة أن تنظر.

"ماذا أعرف، بأسلوب ناجل، حين أعرف، بهذه المعرفة، أننى سأموت؟ هل أعرف ماذا يشبه بالنسبة لى أن أكون جثة أم أعرف ماذا يشبه لجثة أن تكون جثة؟ يبدو الفرق تافهاً بالنسبة لى. أعرف ما لا يمكن لجثة أن تعرفه: إنها هامدة، لا تعرف شيئًا ولن تعرف شيئاً أبداً. على سبيل المثال، قبل أن تنهار بنية معرفتى كلها هلع، أعيش هذا التناقض، ميتة وحية فى الوقت ذاته."

www.ibtesama.com

تصدر عن نورما شخرة خافتة. يمسك بيدها، ويضغط عليها.

"نستطيع، نحن البشر، أن نفكر بهذه الطريقة، وربما بأكثر من هذا، حين نضغط على أنفسنا أو يُضغَط علينا. لكننا نقاوم الضغط الذى يقع علينا، ونادرًا ما نضغط على أنفسنا؛ لا نفكر فى طريقنا إلى الموت إلا حين نصطدم بوجهه. أسأل الآن: إذا كنا قادرين على التفكير فى موتنا، فلماذا بالله لا نكون قادرين على التفكير فى خفاش نلقاه فى الحياة؟

"ماذا يشبه أن تكون خفاشًا؟ يقترح ناجل أننا نحتاج، قبل التمكن من الإجابة، إلى أن نكون قادرين على معرفة حياة الخفاش بحواس خفاش. لكنه مخطئ؛ أو يأخذنا، على الأقل، فى مسار خطأ. أن تكون خفاشًا حيًا هو أن تكون مفعمًا بالحياة؛ أن تكون خفاشًا بمعنى الكلمة يشبه أن تكون إنسانًا بمعنى الكلمة، مما يعنى أيضًا أن تكون مفعمًا بالحياة. تكون خفاشا فى الحالة الأولى، وإنسانا فى الثانية، ربما؛ لكن تلك الاهتمامات ثانوية. أن تكون مفعمًا بالحياة هو أن تعيش جسدًا وروحًا. البهجة من الأسماء التى تطلق على خبرة الامتلاء بالحياة.

"أن تكون حيًا هو أن تكون روحاً حية. الحيوان- وكلنا حيوانات- روح مجسدة. هذا بدقةٍ ما رآه ديكارت، واختار إنكاره لأسباب تخصه. قال ديكارت، إن الحيوان يعيش كما تعيش الآلة. الحيوان ليس أكثر

www.ibtesama.com

من الآلية التى تكوِّنه؛ إذا كانت له روح، فإن له روحًا بالضبط كما أن للآلة بطارية، لتمنحه الشرارة التى تحركه؛ لكن الحيوان ليس روحًا مجسدة، وطبيعة حياته ليست البهجة.

"قال أيضًا مقولته الشهيرة: «أنا أفكر، إذًا أنا موجود». (*) وهى عبارة لم أسترح لها أبدًا. إنها تتضمن أن الكائن الحى الذى لا يستطيع أن يقوم بما ندعوه التفكير هو بشكل ما من مرتبة ثانية. أضع مقابل التفكير والتأمل، إحساس الكائن، إحساسه المكتمل المجسد- ليس وعيك بنفسك كشبح آلة عاقلة تنتج أفكارًا، لكن على النقيض الإحساس- إحساس مؤثر جدًا- بأنك جسد له أطراف تمتد فى الفضاء، الإحساس بأنك تدرك العالم. يتعارض هذا الامتلاء إلى حد كبير مع الحالة الأساسية عند ديكارت، الذى كان لديه إحساس خاوٍ بها: إحساس حبة بسلة تثرثر فى محارة.

"الامتلاء بالحياة حالة من الصعب أن تستمر محبوسة. والحبس فى سجن هو العقاب الذى يفضله الغرب ويبذل قصارى جهده لفرضه على بقية العالم بتحريم الأشكال العقابية الأخرى (الضرب والتعذيب والتشويه والإعدام) باعتبارها وحشية وغير طبيعية. بما يوحى ذلك لنا بشأن أنفسنا؟ يوحى لى بأن حرية الجسد فى الحركة فى المكان تعتبر النقطة التى يمكن عندها للعقل أن يلحق الأذى الأكثر إيلامًا وتأثيرًا فى

(*) باللاتينية فى الأصل.

www.ibtesama.com

حياة الآخرين. ونحن، فى الحقيقة، نرى على الكائنات التى ليست لديها القدرة على تحمل الحبس- الكائنات التى لا تتوافق مع الصورة التى يقدمها ديكارت عن الروح كحبة بسلة سجينة فى محارة، التى يكون المزيد من الحبس غير ذى موضوع بالنسبة لها- نرى عليها التأثيرات الأكثر تدميرًا: فى حدائق الحيوانات وفى المختبرات، المعاهد التى لا تتدفق البهجة فيها من الحياة فى جسد أو مثل جسد، لكنها تأتى ببساطة من كونك كائنًا مجسَّدًا لا مكان له.

"السؤال الذى علينا أن نطرحه لا يجب أن يكون: هل لدينا شىء مشترك- العقل، الوعى بالذات، الروح- مع الحيوانات الأخرى؟ (مع بديهية أنه إن لم يكن هناك شىء مشترك فإننا مخوَّلون للتعامل معها كما نحب، نسجنها، نقتلها، ونمثِّل بجثثها.) أعود إلى معسكرات الموت. ليس هلع المعسكرات، الهلع الذى يقنعنا بأن ما جرى هناك كان جريمة ضد الإنسانية، برغم اشتراك القتلة مع ضحاياهم، إلا أنهم عاملوهم وكأنهم قمل. الهلع أن القتلة رفضوا أن يتصوروا أنفسهم مكان ضحاياهم، كما فعل الآخرون جميعًا. قالوا: 'إنهم فى سيارات الماشية يوقظون الماضى. 'لم يقولوا: 'ماذا لو كنتُ أنا فى سيارة الماشية؟ 'لم يقولوا: 'أنا الذى فى سيارة الماشية. 'قالوا: «لابد أن الموتى الذين حرقوا اليوم هم ما جعل الهواء يفوح برائحة كريهة ويسقطون فى الرماد على كرنبى». لم يقولوا: 'ماذا لو كنتُ أحترق؟ 'لم يقولوا: «أنا أحترق، أنا أسقط فى الرماد».

www.ibtesama.com

"إنهم، بتعبير آخر، أغلقوا قلوبهم. القلب موضع وظيفة، اسمها **التعاطف**، تجعلنا نشارك الآخرين كينونتهم أحيانا. التعاطف لديه كل ما يقوم به مع الفاعل وليس لديه ما يقوم به مع المفعول به، 'الآخر؟' كما نرى فى الحال حين نفكر فى أن المفعول به ليس مثل خفاش ('هل يمكن أن أشارك الخفاش كينونته؟(' ولكن كإنسان آخر. يوجد أناس لديهم القدرة على تخيل أنهم أناس آخرون، ويوجد أناس ليست لديهم هذه القدرة (حين يفتقرون إلى هذه القدرة تمامًا، نسميهم سيكوباثيين)، ويوجد أناس لديهم هذه القدرة لكنهم يختارون ألا يستخدموها.

"برغم توماس ناجل، الذى قد يكون رجلا طيبًا، برغم توماس الأكوينى ورينيه ديكارت، الذين أجد معهما صعوبة أكبر فى التعاطف، لا يوجد حد للمدى الذى يمكن أن نتصور فيه أنفسنا مكان الآخر. لا توجد قيود على تخيل التعاطف. إذا كنتم تريدون برهانًا فتأملوا ما يلى. منذ بضع سنوات كتبتُ كتابًا بعنوان '**منزل فى شارع إكليز**» لأكتب ذلك الكتاب، كان على أن أفكر بطريقتى فى وجود ماريون بلوم. ربما نجحتُ وربما لا. لا يمكن أن أتخيل لماذا دعوتمونى إلى هنا اليوم لو لم أكن قد نجحتُ. على أى حال، القضية هى أن **ماريون بلوم لم توجد أبدًا**. كانت ماريون بلوم من ابتكار مخيلة جيمس جويس. إذا كنت أستطيع أن أفكر بطريقتى فى وجود كائن لم يوجد أبدا، فإننى أستطيع أن أفكر بطريقتى فى وجود

www.ibtesama.com

خفاش أو شمبانزى أو محارة، أى كائن أشاركه ركيزة الحياة.

"أعود مرة أخيرة إلى أماكن الموت من حولنا، المجازر التى نغلق قلوبنا عليها، بجهد جماعى هائل. كل يوم هولوكوست جديد، إلا أنه، بقدر ما يمكن أن أرى، لا يمس جوهرنا الأخلاقى. لا نشعر بأننا ملوَّثون. يبدو أننا يمكن أن نفعل أى شىء ونبتعد طاهرين.

"نتهم الألمان والبولنديين والأوكرانيين الذين عرفوا والذين لم يعرفوا بالأعمال الوحشية من حولهم. نحب أن نعتقد أنهم تأثروا داخليًا بالتأثيرات اللاحقة لذلك النوع الخاص من الجهل. نحب أن نعتقد أنهم يرون فى كوابيسهم من عانوا لأنهم رفضوا الدخول وقد عادوا ليطاردوهم. نحب أن نعتقد أنهم استيقظوا منهكين فى الصباح وماتوا من سرطانات رهيبة. لكن من المحتمل أن الوضع لم يكن بهذه الصورة. يشير الدليل إلى الاتجاه العكسى: يمكن أن نفعل أى شىء ونفلت منه؛ لا يوجد عقاب."

نهاية غريبة. لا يبدأ التصفيق إلا بعد أن تخلع نظارتها وتطوى أوراقها، وحتى بعد ذلك كان متفرقاً. يفكر، نهاية غريبة لحديث غريب، القياس فيه سيئ ؛ نحجة فيه سيئة. الجدل ليس حرفتها(*) يجب ألا تكون هنا.

* ـ فرنسية فى الأصل.

www.ibtesama.com

ترفع نورما يدها، محاولة أن تقع تحت عين عميد الإنسانيات، الذى يرأس الجلسة.

يهمس: "نورما!" يهز رأسه بإلحاح. "لا!"

ترد عليه هامسة: "لماذا؟"

يهمس: "من فضلكِ، ليس هنا، ليس الآن!"

"سوف تكون هناك مناقشة مستفيضة لمحاضرة ضيفتنا البارزة فى ظهيرة يوم الجمعة- ترون التفاصيل فى البرنامج- لكن مسز كستلو وافقت متعطفة أن تتلقى سؤالا أو اثنين من القاعة. هكذا- ؟" ينظر العميد حوله ببراعة. يقول: "أجل!"، مشيرًا إلى شخص خلفهما.

تهمس نورما فى أذنه: "من حقى!"

يرد عليها هامسًا: "من حقك، فقط لا تمارسيه، ليست فكرة جيدة!"

"لا يمكن أن يسمح لها بأن تفلت! إنها مشوشة!"

"إنها عجوز، إنها أمى. من فضلك!"

من خلفهما شخص يتحدث بالفعل. يلتفت فيشاهد رجلا طويلا ملتحيًا. يفكر، لا يعلم إلا الرب السبب الذى جعل أمه توافق على تلقى أسئلة من القاعة. كان لابد أن تعرف أن المحاضرات العامة تجذب حمقى ومجانين كما ينجذب الذباب إلى جثة.

يقول الرجل: "ما لم يكن واضحًا لى هو ما تسعين إليه حقا. هل تقولين إن علينا أن نغلق مصانع المزارع؟

www.ibtesama.com

هل تقولين إن علينا أن نتوقف عن أكل اللحوم؟ هل تقولين إن علينا أن نعامل الحيوانات بشكل أكثر إنسانية، ونقتلها بشكل أكثر إنسانية؟ هل تقولين إن علينا أن نتوقف عن إجراء التجارب على الحيوانات؟ هل تقولين إن علينا أن نتوقف عن إجراء التجارب مع الحيوانات، حتى التجارب السيكولوجية التى لا ضرر منها مثل تجارب كوهلر؟ هل يمكن أن توضحى الأمر؟ شكرًا."

توضح. ليس أحمق على الإطلاق. يمكن لأمه أن تقوم ببعض التوضيح.

تقف أمه أمام الميكروفون والنص ليس أمامها، قابضة على حواف المنصة، تبدو عصبية بصورة واضحة. يفكر مرة أخرى، ليست حرفتها(*) لا يجب أن تفعل هذا.

تقول أمه: "كنتُ آمل ألا أتفوه بمبادئ. إذا كانت المبادئ هى ما تريد أن تخرج به من هذا الحديث، فسيكون ردى: افتح قلبك واستمع إلى ما يقول قلبك."

يبدو أنها تريد أن تترك الأمر على هذا النحو. يبدو العميد مرتبكًا. ولاشك فى أن السائل يشعر بالارتباك هو الآخر. ومن المؤكد أنه هو نفسه مرتبك. لماذا لا توجز وتقول ما تريد قوله؟

توجز أمه، وكأنها تعرف موجة السخط: "لم أهتم أبدًا اهتمامًا كبيرًا بالتحريم، سواء كان غذائيًا أو غير

* بالفرنسية فى الأصل.

www.ibtesama.com

غذائى. التحريم، قوانين. ينصب اهتمامى أكثر على ما يكمن خلفها. بالنسبة لتجارب كوهلر، أعتقد أنه كتب كتابًا مدهشًا، ولم يكن الكتاب ليكتب إذا لم يعتقد أنه عالم يجرى تجارب على الشمبانزى. لكن الكتاب الذى نقرؤه ليس الكتاب الذى اعتقد أنه كان يكتبه. أتذكر شيئا قاله مونتين (*) نعتقد أننا نلعب مع القطة، لكن كيف نعرف أن القطة لا تلعب معنا؟ أتمنى أن أعتقد أن الحيوانات فى المختبرات تلعب معنا. لكن للأسف، الأمر ليس كذلك."

تَصمتُ. يسأل العميدُ: "هل هذه إجابة سؤالكَ". يهز السائل كتفيه بقوة هزة معبرة، ويجلس.

يتبقى العشاء وعليهما حضوره. سيكون على الرئيس خلال نصف ساعة أن يدعو للعشاء فى نادى الكلية. بداية لم تتم دعوته هو ونورما. وبعد أن تم اكتشاف أن لإليزابيث كستلو ابنًا فى أبليتون، أضيفا إلى قائمة المدعوين. يظن أنهما سيكونان فى مكان غير مناسب. سيكونان بالتأكيد من الأصغر والأقل شأنا. ومن الناحية الأخرى، قد يكون أمرًا طيبًا بالنسبة له إذا حضر. ربما يكون فى حاجة لحفظ الهدوء.

يتطلع باهتمام بشع إلى رؤية كيف ستتعامل الكلية مع تحديات قائمة الطعام. إذا كانت محاضِرة

(*) مونتين (١٥٣٣ ـ ١٥٩٢) كاتب فرنسى اشتهر بمقالاته. وتعتبر كتاباته قمة النثر الفرنسى فى القرن السادس عشر.

www.ibtesama.com

اليوم المميزة شيخًا مسلمًا أو حبرًا يهوديًا، ما كانوا ليقدموا لحم الخنزير. ومن ثم هل سيقدمون، انطلاقا من احترام النزعة النباتية، فطير [١] بالبندق للجميع؟ هل سيكون على ضيوفها المرموقين أن يحنقوا خلال الأمسية، ويحلمون بساندويتش البسطرمة أو قطعة من لحم الدجاج الذى سيلتهمونه عند وصولهم إلى بيوتهم؟ أم ستلجأ العقول الذكية فى الكلية إلى السمك الملتبس، الذى له فقارات ولكنه لا يتنفس الهواء أو يرضع صغاره؟

قائمة الطعام، لحسن الحظ، ليست مسئوليته. ما يفزعه هو أن يخرج شخص، أثناء فترة هدوء مؤقت فى المحادثة، بما يدعوه السؤال- 'ما الذى جعلك نباتية، مسز كستلو؟ -'وهذا ما يجعلها تعتلى أعلى جيادها وتقدم ما يدعوه هو ونورما رد بلوتراك [٢] وبعد ذلك يكون عليه وعليه وحده أن يصلح ما فسد.

يأتى الرد على السؤال من المقالات الأخلاقية لبلوتراك. تحفظه أمه عن ظهر قلب؛ يمكن أن يستعيده لكن بشكل غير دقيق. 'تسألنى لماذا أرفض أكل اللحوم. وأنا، من ناحيتى، أندهش من أنك يمكن أن تضع فى فمك جثة حيوان ميت، أندهش من أنك

(١) فطير rissoles : كلمة فرنسية تطلق على الفطير المحشو بالسمك أو اللحم.

(٢) بلوتراك Plutarch: (٤٦ ـ ١٢٠) كاتب سير إغريقى. قدم تقييمًا لشخصيات عدد كبير من الحكام الإغريق والرومان، وأشهر كتبه 'حيوات متوازية' وهو معروف باسم حيوات بلوترخ.'

www.ibtesama.com

لا تجد مضغ اللحم الممزق وابتلاع عصائر الجراح الميتة أمرًا بشعًا. 'بلوتراك متحدث بارع حقًا: كلمة عصائر هى ما تفعل ذلك. استعادة بلوتراك مثل إلقاء قفاز؛ بعد ذلك، لا يُعرَف ماذا يحدث.

يتمنى لو لم تأتِ أمه. رائع أن يراها مرة أخرى؛ رائع أن ترى أحفادها؛ رائع بالنسبة لها أن تحظى بالتقدير؛ لكن الثمن الذى يدفعه والثمن الذى ينتظر أن يدفعه إذا سارت الزيارة بصورة سيئة يبدو له ثمنًا باهظًا. لماذا لم تكن عجورًا عادية تعيش حياةَ عجوزٍ عادية؟ إذا أرادت أن تفتح قلبها للحيوانات، لماذا لا تبقى فى بيتها وتفتح قلبها لقططها؟

تجلس أمه وسط الطاولة، مقابل الرئيس جرارد. يجلس على بعد مقعدين منها؛ ونورما عند طرف الطاولة. ثمة مكان واحد خال- يتساءل لمن يكون.

يحكى روث أوركين، من قسم علم النفس، لأمه عن تجربة مع شمبانزى صغيرة شبَّتْ كإنسان. حين طلب من الشمبانزى أن تصنف الصور الفوتوغرافية فى مجموعات، كانت تصر على وضع صورتها مع صور البشر بدل أن تضعها مع صور القرود. يقول أوركين: "ثمة إغواء بأن أقدم للقصة قراءة بسيطة- أى أنها كانت تريد أن تعتقد أنها واحدة منا. إلا أن المرء، بوصفه عالمًا، عليه أن يحتاط."

تقول أمه: "أوه، أوافق. للمجموعتين معنى أقل وضوحًا فى عقلها. أولئك الذين لهم حرية أن يجيئوا

www.ibtesama.com

ويذهبوا مقابل أولئك الذين عليهم أن يبقوا محبوسين، على سبيل المثال. ربما كانت تقول إنها تفضل أن تكون ضمن الأحرار."

يتدخل الرئيس جرارد: "أو ربما كانت تريد فقط أن تمتع حارسها، بالقول إنهما يبدوان متشابهين."

يقول رجل أشقر ضخم، لم يستطع التقاط اسمه: "نظرة ميكافيلية إلى حد ما بالنسبة للحيوانات، ألا تعتقدون ذلك؟"

تقول أمه: "ميكافيلى الثعلب، هكذا كان يدعوه معاصروه."

يعترض الرجل الضخم: "لكن تلك قضية مختلفة تمامًا- الصفات الخرافية للحيوانات."

تقول أمه: "أجل."

تسير كل الأمور بقدر كافٍ من السلاسة. قُدِّم لهم حساء القرع ولا أحد يشكو. هل يمكن أن يسترخى؟

كان على صواب فيما يتعلق بالسمك. اختيار الطبق الرئيسى [1] بين النهاش الأحمر [2] مع حبات صغيرة من البطاطس والمكرونة الإسباكتى مع الباذنجان المشوى. يطلب جرارد مكرونة إسباكتى، كما يطلب هو أيضًا؛ فى الحقيقة من بين المدعوين الأحد عشر لم يطلب السمك إلا ثلاثة.

١- بالفرنسية فى الأصل.

٢- النهاش الأحمر: نوع من الأسماك البحرية، يعيش فى المياه العميقة. ولونه أحمر.

www.ibtesama.com

يلاحظ جرارد: "من الشيق أن المجتمعات الدينية كثيراً ما تختار أن تُعرِّف نفسها بما تحرِّمه من الأطعمة."

تقول أمه: "أجل."

"أقصد، من الشيق أن يكون التعريف، على سبيل المثال «نحن أناس لا نأكل الثعابين»، بدل أن يكون "نحن أناس نأكل السحالى. «ما لا نفعل بدلا مما نفعل." كان جرارد قبل الانتقال إلى الإدارة متخصصًا فى علم السياسة.

يقول ووندرليتش، وهو بريطانى رغم اسمه: "كلها أمور تتعلق بالطهارة والنجاسة. حيوانات طاهرة وحيوانات نجسة، عادات طاهرة وعادات نجسة. يمكن أن تكون النجاسة وسيلة بارعة جدًا فى تحديد من ينتمى إلينا ومن لا ينتمى، مَنْ مِنَّا ومَنْ ليس منا."

يتدخل هو نفسه: "النجاسة عار. الحيوانات لا تعرف العار." يندهش حين يسمع نفسه يتكلم لكن لماذا لا؟- تسير الأمسية بشكل رائع.

يقول ووندرليتش: "بالضبط، لا توارى الحيوانات ما تفرزه، تمارس الجنس فى العراء. ليس لديها إحساس بالعار، نقول: هذا ما يجعلها مختلفة عنا. لكن يبقى أن النجاسة هى الفكرة الأساسية. للحيوانات عادات نجسة، لذا يتم استبعادها. العار يصنع أناسًا مثلنا، عار النجاسة. آدم وحواء: أسطورة الخلق. قبل ذلك كنا جميعًا مجرد حيوانات نعيش معًا."

www.ibtesama.com

لم يسمع ووندرليتش قبل ذلك أبدًا. يحبه، يحب جديته وتمتمته. أسلوب أكسفورد. متحرر من الثقة الأمريكية بالذات.

تعترض أوليفيا جرارد، زوجة الرئيس، الرائعة: "لكن الآلية لا يمكن أن تعمل بهذا الشكل. إنها بالغة التجريد، فكرة تفتقر إلى الحياة تمامًا. الحيوانات مخلوقات لا نمارس الجنس معها- هكذا نفرق بيننا وبينهم. تصيبنا الفكرة الحقيقة عن الجنس معها بالقشعريرة. هذا هو المستوى الذى تكون عنده نجسة- كلها. لا نختلط بها. نحتفظ بالطاهر بعيدًا عن النجس."

يأتى صوت نورما: "لكننا نأكلها. نختلط بها. نهضمها. نحول لحمها إلى لحمنا. وهكذا لا يمكن أن تعمل الآلية بهذا الشكل. ثمة أنوع محددة من الحيوانات لا نأكلها. من المؤكد أن تلك هى الحيوانات النجسة، لا الحيوانات عمومًا."

إنها، بالطبع، على حق. لكنها مخطئة: خطأ جر المناقشة إلى موضوع على الطاولة أمامهم، الطعام.

يتكلم ووندرليتش مرة أخرى: "كان لدى الإغريق شعور بأن هناك شيئًا خطأ فى الذبح، لكنهم كانوا يعتقدون أنه يمكن التغلب عليه ببعض الطقوس. قدموا قرابين وأعطوا نسبة للآلهة، آملين بذلك أن يحفظوا لهم البقية. مفهوم العشور نفسه. اطلب بركة لآنهة على اللحم الذى أنت على وشك أن تأكله، و طلب منهم أن يعلنوا طهارتها."

www.ibtesama.com

تقول أمه: "ربما هذا هو أصل الآلهة." يخيم الصمت. "ربما اخترعنا الآلهة حتى نستطيع أن نلقى باللائمة عليهم. ينعطون لنا الإذن بتناول اللحوم. يعطون لنا الإذن باللعب مع أشياء نجسة. ليس خطأنا، إنه خطؤهم. لسنا سوى أبنائهم."

تسأل مسز جرارد بحذر: "هل هذا ما تؤمنين به؟"

"قال الرب: كل دابة حية ستكون لحمًا لكم"، تقتبس أمه. "أمر مريح. قال لنا الرب أنه حسن."

يخيم الصمت مرة أخرى. إنهم فى انتظار أن تواصل. إنها، رغم كل شىء، المسلِّية مدفوعة الأجر.

تقول أمه: "نورما على حق. المشكلة أن نحدد اختلافنا عن الحيوانات عمومًا، وليس عن الحيوانات التى توصف بالنجاسة. التحريم لحيوانات معينة- الخنازير وما شابه- اعتباطى تمامًا. إنه ببساطة دليل على أننا فى منطقة خطرة. حقل ألغام، فى الحقيقة. حقل ألغام التحريم الغذائى. لا يوجد منطق لتابو، كما لا يوجد منطق لحقل ألغام - ولا يقصد إلى أن يكون هناك منطق لهما. لا تستطيع أبدًا أن تخمن ماذا يمكن أن تأكل أو أين يمكن أن تخطو إلا إذا كنت تحت سيطرة خريطة، خريطة إلهية."

تعترض نورما من على طرف الطاولة: "لكن ذلك مجرد أنثروبولوجيا. إنه لا يقول شيئًا عن سلوكنا اليوم. لم يعد الناس فى العالم الحديث يقررون ما

www.ibtesama.com

يأكلون بناء على إذن إلهى معهم. إذا كنا نأكل الخنزير ولا نأكل الكلب، فإن ذلك يرجع ببساطة إلى الطريقة التى تربينا عليها. ألا توافقين، إليزابيث؟ مجرد نمط من أنماط سلوكنا."

إليزابيث. إنها تدَّعى الود. لكن أية لعبة تلعبها؟ هل هناك مصيدة تجر أمه إليها؟

تقول أمه: "ثمة اشمئزاز. ربما نكون قد تخلصنا من الآلهة لكننا لم نتخلص من الاشمئزاز، وهو نسخة من الهلع الدينى."

تعترض نورما: "لكن الاشمئزاز ليس عالميًا. الفرنسى يأكل الضفادع. الصينى يأكل أى شىء. لا يوجد اشمئزاز فى الصين."

أمه صامتة.

"ربما تكون مجرد مسألة ما تعلمتِه فى البيت، مسألة ما سمحتْ لك أمك بتناوله وما لم تسمح لك بتناوله."

تهمهم أمه: "ما كان طاهرًا لنأكله وما لم يكن طاهراً."

"وربما"- يفكر، تذهب نورما الآن بعيدًا جدًا، تبدأ الآن فى السيطرة على المحادثة إلى حد غير مناسب تمامًا- "وربما كان لمفهوم الطهارة والنجاسة وظيفة مختلفة كليًا، أى ليمكِّن بعض الجماعات من تعريف أنفسهم، سلبيًا، كنخبة، كصفوة. نحن أناس نمتنع عن (أ) أو (ب) أو (ج)، وبقوة الامتناع نشير إلى

www.ibtesama.com

أنفسنا باعتبارنا أسمى: طائفة أسمى داخل المجتمع، على سبيل المثال. مثل البراهمة(*).

صمت.

تؤكد نورما: "إن تحريم اللحوم فى النزعة النباتية ليس إلا شكلا متطرفًا من التحريم الغذائى. والتحريم الغذائى طريقة سريعة وبسيطة تعرف بها مجموعة من النخبة نفسها. عادات الآخرين على المائدة نجسة، لا يمكن أن نأكل أو نشرب معهم."

تقترب الآن من العظام حقًا. ثمة قدر من المراوغة، ثمة قلق يلوح فى الأفق. لحسن الحظ، انتهى الطعام- النهاش الأحمر، المكرونة الإسباكتى- والنادلات بينهم يرفعن الأطباق.

تسأل أمه: "هل قرأتِ السيرة الذاتية لغاندى، يا نورما؟"

"لا."

"بُعِث غاندى إلى إنجلترا وهو شاب صغير لدراسة القانون. وإنجلترا، بالطبع، تزهو بنفسها كبلد عظيم من أكلة اللحوم. لكن أمه أخذت منه وعدًا بألا يأكل لحمًا. حزمت له صندوقًا مليئًا بالطعام ليأخذه معه. وأثناء الرحلة فى البحر كان يتناول قليلا من الخبز على مائدة السفينة ويأكل البقية من الصندوق الذى معه. وفى لندن بحث كثيرًا عن مساكن ومطاعم

(*) البراهمة: أفراد طبقة الكهنوت العليا عند الهندوس. والبراهمة هم أتباع براهما، وكانوا كلهم كهنة فى الأصل.

www.ibtesama.com

تقدم أنواع الطعام الذى يتناوله. كانت العلاقات الاجتماعية مع الإنجليز صعبة لأنه لم يكن يستطيع أن يقبل كرم الضيافة أو يردها. ولم يكن الحال على ما يرام حتى التقى صدفة مع بعض العناصر التى على حافة المجتمع الإنجليزى- الفابيين [١] والثيوصوفيين[٢] إلخ ـ فبدأ يشعر أنه فى وطنه. حتى ذلك الوقت كان مجرد طالب وحيد وبسيط يدرس القانون.

تقول نورما: "ما الهدف، إليزابيث؟ ما الهدف من القصة؟"

"من الصعب تصور أن نباتية غاندى مجرد تدريب على القوة. لقد حكمت عليه بالعيش على حافة المجتمع. كان على عبقريته الخاصة أن تدمج ما وجده على هذه الحواف مع فلسفته السياسية."

يتدخل الرجل الأشقر: "على أية حال، غاندى ليس مثالا جيدًا. كان من الصعب الالتزام بمذهبه النباتى. كان نباتيًا نتيجة الوعد الذى قدمه لأمه. ربما حافظ على وعده، لكنه ندم وامتعض منه."

تقول إليزابيث كستلو: "ألا تعتقدون أن الأمهات قد يكون لهن تأثير كبير على أبنائهم؟"

لحظة صمت. حان وقته، الابن الطيب، ليتكلم. لا يتكلم.

---

(١) الفابية: جمعية إنجليزية أنشئت عام ١٨٨٤ سعى أعضاؤها إلى نشر المبادئ الاشتراكية بالوسائل السلمية.

(٢) الثيوصوفية: معرفة الله عن طريق الكشف الصوفى أو التأمل الفلسفى أو كليهما.

www.ibtesama.com

يقول الرئيس جرارد، صابًا الزيت على المياه المضطربة: "لكن مذهبك النباتى، مسز كستلو، ينبع من قناعة أخلاقية، أليس كذلك؟"

تقول أمه: "لا، لا أعتقد ذلك. ينبع من الرغبة فى حماية روحى."

الآن صمت حقيقى لا يقطعه إلا رنين الأطباق والنادلات يضعن آلاسكا مخبوزة (*) أمامهم.

يقول جرارد: "حسنًا، أكن لهذا احترامًا عظيمًا، كأسلوب للحياة."

تقول أمه: "أنتعلُ حذاء جلديًا. أحمل محفظة جلدية. ما كنتُ لأحترم ذلك احترامًا كثيرًا إذا كنتُ مكانك."

يهمهم جرارد: "الاتساق. الاتساق بعبع العقول الصغيرة. من المؤكد أن المرء يستطيع التمييز بين أكل اللحوم وانتعال الجلد."

ترد: "درجات من الفحش."

يقول العميد أريندت، متدخلا فى المناقشة للمرة الأولى: "أنا أيضًا أكن احترامًا عظيمًا للقواعد التى تتأسس على احترام الحياة. إننى مستعد لقبول أن التابو الغذائى ليس مجرد عادات. لكن فى الوقت نفسه لابد أن يقول المرء إن بنيتنا الفوقية من الاهتمام والإيمان كتاب مغلق بالنسبة للحيوانات نفسها. لا

(*) آلاسكا المخبوزة: نوع من الحلوى المخبوزة تحتوى على آيس كريم بين كيك عليه مزيج من السكر وبياض البيض المخفوق.

www.ibtesama.com

يمكن أن تشرحى لعجل أن حياته ستُنقَذ بأكثر مما يمكن أن تشرحى لبقة أنك لن تدوسى عليها. الأشياء، فى حياة الحيوانات، سواء كانت أشياء جيدة أو رديئة، تحدث فقط. ومن ثم فإن المذهب النباتى صفقة غريبة، حين تفكرين فيها، لا يدرك المنتفعون بها أنهم منتفعون. وليس هناك أمل فى أن يدركوا. لأنهم يعيشون فى فراغ من الوعى."

يتوقف أريندت. دور أمه فى الكلام، لكنها تبدو مرتبكة، شاحبة ومرهقة ومرتبكة. يميل باتجاهها. يقول: "كان يوماً طويلا يا أمى. ربما حان الوقت."

تقول: "أجل، حان الوقت."

يستفسر الرئيس جرارد: "ألا تريدين قهوة؟"

"لا، ستجعلنى مستيقظة فقط." ترد على أريندت: "من المهم إثارة هذه القضية. لا وعى مما يمكن أن نتعرف عليه كوعى. لا إدراك، بقدر ما يمكن أن نرى، لذات لها تاريخ. ما أفكر فيه هو ما يأتى بعد ذلك على الأرجح. ليس لها وعى وبالتالى. وبالتالى ماذا؟ وبالتالى نحن أحرار فى تحقيق مآربنا الخاصة؟ وبالتالى نحن أحرار فى قتلها؟ لماذا؟ ماذا يميز شكل الوعى الذى نعرفه بحيث يجعل قتل حامله جريمة بينما يمر قتل الحيوان بدون عقاب؟ توجد لحظات "–

يتدخل ووندرليتش: "إذا لم نتذكر الأطفال". يلتفت الجميع وينظرون إليه. "ليس لدى الأطفال وعى ذاتى، ومع ذلك نعتقد أن قتل طفل أكثر بشاعة من قتل راشد."

www.ibtesama.com

يقول أريندت: "وبالتالى؟"

"وبالتالى كل هذه المناقشة حول الوعى وما إن كان للحيوانات وعى ليست سوى سحابة من الدخان. إننا فى العمق نحمى النوع. ترحيب بأطفال الإنسان وامتعاض من أطفال الحيوانات. ألا تعتقدين ذلك مسز كستلو؟"

تقول إليزابيث كستلو: "لا أعرف ماذا أعتقد. كثيرًا ما أتساءل ما التفكير، ما الفهم. هل نعرف الكون حقًا أفضل مما تعرفه الحيوانات؟ كثيرًا ما يبدو فهم شىء بالنسبة لى كاللعب بمكعَّب من مكعبات روبيك. بمجرد أن تضع كل القوالب الصغيرة بنشاط فى مكانها، بسرعة، تفهم. تشعر إذا كنت تعيش داخل مكعب روبيك، لكن إذا كنت لا..."

ثمة صمت. تقول نورما: "اعتقدتُ-"؛ لكنه يقف على قدميه عند هذه النقطة، يشعر بالراحة حين تتوقف نورما.

ينهض الرئيس، وينهض الآخرون جميعًا. يقول الرئيس: "محاضرة مدهشة، مسز كستلو. غذاء فكرى دسم. نتطلع إلى عرض الغد.

●●●

www.ibtesama.com

(٤)
حياة الحيوانات
٢ ـ الشعراء والحيوانات

تجاوزت الحادية عشرة. انعزلت أمه طوال الليل. هو ونورما تحت يصلحون ما أفسده الأطفال. وبعد ذلك، لديه محاضرة عليه أن يعدها.

تسأل نورما: "هل ستذهب إلى السيمينار المعد لها غدًا؟"

"علىَّ أن أذهب."

"ما موضوعه؟"

"'الشعراء والحيوانات.' هذا عنوانه. يعد له قسم اللغة الإنجليزية. يعقدونه فى غرفة السيمينار، ومن ثم لا أعتقد أنهم يتوقعون حضور عدد كبير من الجمهور."

"أنا سعيدة لأنه عن شىء تعرفه. أجد أن قبول تفلسفها صعب."

"أوه. فيما تفكرين؟"

"على سبيل المثال ما كانت تقوله عن عقل الإنسان. يُفترَض أنها كانت تحاول أن تتحدث عن

www.ibtesama.com

طبيعة الفهم العقلانى. أن تقول إن الحسابات العقلانية ليست سوى نتاج لبنية ذهن الإنسان؛ إن للحيوانات حساباتهم الخاصة بما يتواءم مع بنية أذهانهم، التى لا حيلة لنا فى الوصول إليها لعدم وجود لغة مشتركة بيننا وبينها."

"وما الخطأ فى ذلك؟"

"سذاجة، جون. نوع من النسبية الضحلة السهلة التى تثير إعجاب المبتدئين. احترام وجهة نظر كل شخص فى العالم، وجهة نظر البقرة فى العالم، وجهة نظر السنجاب فى العالم، وهلم جرا. يقود هذا فى النهاية إلى شلل فكرى كامل. تقضى وقتًا طويلاً جدًا فى الاحترام بحيث لا يبقى لديك وقت للتفكير."

"أليس للسنجاب وجهة نظر فى العالم. تشمل وجهة نظره فى العالم البلوط والأشجار والطقس والقطط والكلاب والسيارات، والسنجاب من الجنس الآخر. تشمل حساب طريقة تفاعل هذه الظواهر والطريقة التى عليه أن يتفاعل بها معها ليبقى على قيد الحياة. هذا كل ما فى الأمر. لا شىء أكثر من ذلك. هذا هو العالم بالنسبة للسنجاب."

"هل نحن على يقين من ذلك؟"

"نحن على يقين منه بمعنى أن مئات السنين من ملاحظة السنجاب لم تقدنا لاستنتاج غير ذلك. إذا كان هناك شىء آخر فى ذهن السنجاب، فهو ليس قضية سلوكية يمكن ملاحظتها. إن ذهن السنجاب، بشكل عملى، آلية بالغة البساطة."

www.ibtesama.com

"وهكذا كان ديكارت محقًا، ليست الحيوانات سوى آلات بيولوجية."

"بشكل عام، نعم. لا يمكن، بشكل مجرد، التمييز بين ذهن حيوان وآلة تشبه ذهن حيوان."

"والبشر مختلفون؟"

"جون، أنا مرهقة وأنت تثيرني. البشر يخترعون الرياضيات، يشيدون تليسكوبات، يحسبون، يبنون آلات، يضغطون زرًا، حركة مفاجئة، تهبط سوجورنير(*) على المريخ، كما توقعوا بالضبط. لهذا ليست العقلانية، كما تزعم أمك، مجرد لعبة. يمدنا العقل بالمعرفة الحقيقية عن العالم الحقيقي. تم اختباره، إنه فعال. أنت فيزيائي. لابد أنك تعرف."

"أوافق. إنه فعال. لكن ألا يبقى هناك موضع في الخارج يجعل عملنا وتفكيرنا ثم إرسال سفينة فضاء إلى المريخ يشبه إلى حد بعيد ما يفعله السنجاب حين يفكر ثم يندفع ويختطف بندقة؟"

"لكن لا يوجد موضع من هذا القبيل! أعرف أن ذلك يبدو موضة قديمة، لكن عليَّ أن أصرح به. لا يوجد موضع خارج العقل يمكنك أن تقف فيه وتلقي محاضرة عن العقل وتتجاهل الحكم طبقًا للعقل."

"إلا موضع شخص سلب منه العقل."

"هذه ليست سوى لاعقلانية فرنسية، شيء يمكن أن يتفوه به شخص لم يضع قدمه أبدًا في مصحة

(*) سوجورنير Sojourner: أول سفينة فضاء تهبط على المريخ في ٤ يوليو ١٩٩٧.

www.ibtesama.com

عقلية ويرى ما يبدو عليه البشر الذين سلبت منهم عقولهم حقًا."

"إلا الرب."

"إذا كان الرب ربَّ عقلٍ. رب العقل لا يمكن أن يقف خارج العقل."

"أنا مندهش، نورما. تتحدثين مثل عقلانى عفى عليه الدهر."

"أنت لا تفهمنى حقًا. تلك هى الأرضية التى اختارتها أمك. هذه مصطلحاتها. أنا مجرد رد فعل."

"من الضيف الذى تغيَّب؟"

"هل تقصد المقعد الخالى؟ إنه ستيرن، الشاعر."

"هل تظنين أن تغيبه كان اعتراضًا؟"

"أنا على يقين من أنه كان كذلك. كان عليها أن تفكر مرتين قبل أن تستدعى الهولوكوست. كان يمكننى أن أشعر بالأعناق تشرئب من حولى بين كل الجمهور."

كان المقعد الخالى اعتراضًا بالتأكيد. حين يذهب لدرسه الصباحى، يجد فى صندوقه خطابًا موجهًا إلى أمه. يسلمه لها حين يعود إلى البيت ليصطحبها. تقرؤه بسرعة، وبتنهيدة تمرره إليه. تقول: "مَن هذا الرجل؟"

:أبراهام ستيرن. شاعر. أعتقد أنه يحظى باحترام كبير. كان هنا لفترة طويلة جداً."

www.ibtesama.com

يقرأ ملاحظة ستيرن، وكانت بخط اليد.

"عزيزتى مسز كستلو،

اعذرينى لعدم حضورى عشاء الليلة الماضية. قرأتُ كتبك وأعرف أنك شخصية خطيرة، ومن ثم أثق فى جدية ما جاء فى محاضرتك.

بدا لى أن مسألة المشاركة فى الخبز كانت فى لب محاضرتك. إذا كنا نرفض مشاركة جلادى أوتشفيتز(*) فى الخبز، فهل يمكن أن نستمر فى مشاركة جزَّارى الحيوانات فى الخبز؟

افترضت لأهدافك الخاصة تشابهًا بين قتلى يهود أوروبا والماشية المذبوحة. قُتِل اليهود كالماشية، وبالتالى تموت الماشية كاليهود، كما تقولين. هذه خدعة بالكلمات ما كنتُ لأقبلها. سوء فهم طبيعة التشابهات؛ يمكن حتى أن أقول إنك تسيئين فهمها بعناد يبلغ درجة الكفر. خلق الإنسان مشابهًا للرب لكن الرب لا يشبه الإنسان. إذا عومل اليهود كالماشية، فإن ذلك لا يستتبع أن الماشية تعامل كاليهود. العكس يهين ذكرى الموتى. إنه يتاجر أيضا بهلع المعسكرات بشكل رخيص.

سامحينى إذا كنتُ صريحًا. قلتِ إنك عجوز ولم يعد لديك وقت تضيعينه فى التأنق، وأنا أيضا عجوز.

المخلص

أبراهام ستيرن"

(*) أوتشفيتز Auschwitz : مدينة فى جنوب بولندا كانت مكانًا لأكبر معسكرات الاعتقال أثناء الحرب العالمية الثانية.

www.ibtesama.com

يوصل أمه إلى مضيفيها فى قسم اللغة الإنجليزية، ويذهب إلى لقاء. يمتد اللقاء ويمتد. أمامه ساعتان ونصف قبل أن يستطيع اللحاق بغرفة السيمينار فى قاعة ستوبز.

تتحدث وهو يدخل. يجلس بهدوء قدر ما يستطيع قرب الباب.

تقول: "فى ذلك النوع من الشعر ترمز الحيوانات للسمات الإنسانية: الأسد للشجاعة، والبومة للحكمة، وهلم جرا. حتى فى قصيدة ريلكه[1] يوجد النمر بديلا لشىء آخر. إنه يذوب فى رقصة الطاقة حول مركز، وهى صورة مستمدة من الفيزياء، فيزياء الجزيئات الأولية. لا يتجاوز ريلكه هذه النقطة- أبعد من النمر كتجسيد لنوع من القوة تنطلق فى انفجار ذرى لكنه هنا لم يعد محبوسًا وراء قضبان القفص ولكن بما تفرضه القضبان على النمر: قفزة مركزية تترك الإرادة فى ذهول وخدر."

نمر ريلكه؟ أى نمر؟ لابد أن ارتباكه يظهر: الفتاة التى بجواره تدفع ورقة مصورة تحت أنفه. ثلاث قصائد: قصيدة من تأليف ريلكه بعنوان "النمر"، والأخريان من تأليف تيد هوجز[2] الأولى بعنوان

(١) ريلكه Rilke (١٨٧٥ ـ ١٩٢٦) شاعر ألمانى، أثر بعمق فى الأدب الألمانى فى القرن العشرين، ومن مجموعاته "كتاب الساعات" (١٩٠٥) و"مراثى دوينو" (١٩٢٣).

(٢) تيد هوجز Ted Hughes(١٩٣٠ ـ ١٩٩٨) شاعر بريطانى، عين شاعر البلاط عام ١٩٨٤ .

www.ibtesama.com

"الجاجور"(*) والثانية بعنوان "لمحة ثانية على جاجور" ليس لديه وقت لقراءتها.

تواصل أمه: "يكتب هوجز ضد ريلكه. يستخدم المسرح نفسه فى حديقة الحيوانات لكن الحشد من أجل التغيير هو الذى يقف مشدوهًا، وبينهم الرجل، الشاعر، تائهًا وهلِعًا ومسحوقًا، اندفعت قدراته على الفهم أبعد من حدودهم. نسخة الجاجور، على عكس نسخة النمر، ليست فظة. على العكس، تحفر عيناه ظلمة الفضاء. القفص ليس واقعًا بالنسبة له، إنه فى مكان آخر. فى مكان آخر لأنه وعيه حركىٌّ لا مجرد: يحركه اندفاع عضلاته فى فضاءٍ يختلف تمامًا فى طبيعته عن صندوق نيوتن ثلاثى الأبعاد ـ فضاء دائرى يلف حول نفسه.

"هكذا يتحسس هوجز ـ مُنَحيًا أخلاقيات حبس الحيوانات الكبيرة جانبًا- طريقه نحو نوع مختلف من الوجود فى العالم، نوع ليس غريبًا تمامًا عنا، حيث تبدو الخبرة أمام القفص وكأنها تنتمى إلى خبرة الحلم، خبرة محفوظة فى اللاوعى الجمعى. فى هذه القصائد لا نعرف الجاجور من الطريقة التى يبدو بها، نعرفه من الطريقة التى يتحرك بها. الجسد كما يتحرك الجسد، أو كما تتحرك فيه تيارات الحياة. تطلب منا القصائد أن نتخيل طريقنا فى الحركة بتلك الطريقة، أن نسكن ذلك الجسد.

(*) الجاجور jaguar : حيوان يعيش فى وسط أمريكا وجنوبها، وهو قريب الشبه من النمر.

www.ibtesama.com

"أؤكد، ليست قضية هوجز السكن فى ذهنٍ آخر، قضيته السكن فى جسدٍ آخر. هذا هو الشعر الذى أعرضه عليكم اليوم: شعرٌ لا يحاول أن يعثر على فكرة فى الحيوان، ليس عن الحيوان، لكنه بدلا من ذلك تسجيل لارتباط به.

"ما يميز هذا النوع من الارتباطات الشعرية أنها، بصرف النظر عن القوة التى تتم بها، تبقى مسألة مختلفة كلية بالنسبة للموضوع الذى تتناوله. وهى تختلف، من هذه الناحية، عن قصائد الحب، حيث الهدف تحريك الموضوع.

"لا يرجع ذلك إلى أن تلك الحيوانات لا تهتم بشعورنا نحوها. لكن حين نحول تيار الإحساس الذى يتدفق بيننا وبين الحيوان إلى كلمات، فإننا نجرده إلى الأبد من الحيوان. وهكذا لا تكون القصيدة هبة لموضوعها، كما هو حال قصيدة الحب. إنها تقع فى اقتصاد إنسانى كامل لا يشارك فيه الحيوان. هل هذه إجابة على سؤالك؟"

يرفع شخص آخر يده: رجل طويل بنظارة. يقول إنه لا يعرف شعر تيد هوجز معرفة جيدة، لكن آخر ما سمعه هو أن هوجز كان يدير مزرعة للأغنام فى مكان ما فى إنجلترا. يربى الأغنام كمواضيع شعرية (ترتفع ضحكة مكتومة فى الغرفة) أم أنه مربٍّ حقيقى يربى الأغنام للسوق. "كيف يتواءم ذلك مع ما جاء فى محاضرتك بالأمس، حين بدا أنك أكثر براعة فى موقفك ضد قتل الحيوانات للحصول على لحومها؟"

www.ibtesama.com

ترد أمه: "لم أقابل تيد هوجز أبدًا، لذا لا يمكن أن أخبرك أى مزارعٍ هو. لكن دعنى أقدم إجابة لسؤالك على مستوى آخر.

"ليس لدى سبب يجعلنى أعتقد أن هوجز يؤمن بأن اهتمامه بالحيوانات اهتمام فريد. على العكس، أتوقع أنه يعتقد أنه يسترد اهتماما كان لدى أجدادنا منذ زمن بعيد وفقدناه (يتصور هذا الفقد بمصطلحات تطورية لا بمصطلحات تاريخية، لكنها مسألة أخرى). أخمن أنه يؤمن بأنه ينظر إلى الحيوانات نظرة تشبه إلى حد بعيد النظرة التى اعتادها الصيادون فى العصر الحجرى الأول.

"وهذا يضع هوجز فى صف الشعراء الذين يحتفون بالبدائى ويدينون الانحراف الغربى نحو التفكير المجرد. فى صف بليك ولورانس، وصف جارى سنيدر فى الولايات المتحدة، أو روبنسون جون جفرز.(*) وهمنجواى أيضا، فى مرحلة الصيد ومصارعة الثيران.

"إن مصارعة الثيران، على ما يبدو لى، تقدم لنا مفتاحا. اقتل الوحش بكل الوسائل، كما يقولون، لكن اجعلها مسابقة وطقسًا، وحيِ منافسك على قوته وبسالته. كلّه أيضًا، بعد أن تقهره، لكى تتغلغل فيك

(*) جارى سنيدر Gary Snyder (١٩٣٠ ـ) شاعر أمريكى، نشط فى مجال البيئة، حصل على جائزة بوليتزر فى الشعر. جون جفرز John Jeffers (١٨٨٧ ـ ١٩٦٢) شاعر أمريكى، اشتهر بأعماله حول شاطئ كاليفورنيا، يعتبر من رموز حركة البيئة.

www.ibtesama.com

قوته وشجاعته. انظر فى عينيه قبل أن تقتله، واشكرْه بعد ذلك. غنِّ أغانى عنه.

"يمكن أن نصف هذا بالبدائية. من السهل انتقاده والسخرية منه. إنه مُذكَّر بعمق، ذكورى. لابد أن تشك فى عواقبه فى السياسة. ولكن بعد أن يقال كل شىء ويُفعَل، يبقى أن فيه شيئًا جذابًا على المستوى الأخلاقى.

"إلا أنه غير عملى أيضًا. إنكم لا تطعمون أربعة بلايين إنسان بجهود مصارعى الثيران أو صائدى الغزلان المسلحين بالسهام والأقواس. صار عددنا كبيرًا جدا. ليس هناك وقت لاحترام كل الحيوانات وتبجيلها إننا نحتاج إلى إطعام أنفسنا. نريد مصانع للموت؛ نريد مصنع حيوانات. كشفت لنا شيكاغو عن الطريقة؛ من حظائر شيكاغو تعلم النازيون كيف يتعاملون مع الأجساد.

"لكن، لأعد إلى هوجز. تقول: هوجز جزار برغم زخارف البدائية، وماذا أفعل فى صحبته؟

"رَدِّى هو أن الكُتَّاب يعلموننا أكثر مما يدركون. بتجسيد الجاجور، يوضح لنا هوجز أننا أيضًا يمكن أن نجسد الحيوانات- بعملية تسمى الإبداع الشعرى وهى عملية تمزج النفَس والحس بطريقة لم يفسرها أحد ولن يفسرها أحد أبدًا. إنه يوضح لنا كيف يجلب الجسد الحى إلى الوجود داخل أنفسنا. حين نقرأ قصيدة الجاجور، وحين نستعيدها بعد ذلك فى هدوء،

www.ibtesama.com

نكون الجاجور لبرهة قصيرة. يتموج فينا، يسيطر على جسمنا، إنه نحن.

"بعيد جدًا، رائع جدًا. بما قلتُ إنه بعيد جدًا لا أعتقد أن هوجز نفسه قد يختلف عليه. إنه يشبه إلى حد بعيد مزيج من الشامانية (*) والاستحواذ وسيكولوجيا النمط الأصلى التى يعتنقها هو نفسه. بتعبير آخر، خبرة بدائية (أن تكون وجهًا لوجه مع حيوان)، وقصيدة بدائية، ونظرية بدائية عن الشعر لتبريرها.

"إنه أيضًا نوع من الشعر يمكن أن يستريح له الصيادون وأناس أسميهم مدراء علم البيئة. حين يقف هوجز الشاعر أمام قفص الجاجور، فهو يتطلع إلى جاجور مفرد وتستحوذ عليه حياة ذلك الجاجور المفرد. لابد أن الأمر على هذا النحو. سوف تفشل الجاجاور عمومًا، الجاجور كصنف فرعى، فكرة الجاجور، فى تحريكه لأننا لا يمكن أن نحس بما هو مجرد. إلا أن القصيدة التى يكتبها هوجز قصيدة عن الجاجور، عن الجاجورية المتجسدة فى هذا الجاجور. بالضبط كما يحدث بعد ذلك، حين يكتب قصائده الرائعة عن السلمون، إنها عن السلمون باعتباره شاغلا مؤقتًا لحياة السلمون، السيرة الذاتية لحياة

(*)الشامانية shamanism: دين بدائى يؤمن به بعض شعوب شمال آسيا وأوروبا، يعتقد المؤمنون به فى وجود عالم محجوب، عالم الشياطين والآلهة وروح السلف، وهذا العالم لا يستجيب إلا للشامان.

www.ibtesama.com

السلمون. وهكذا بالرغم من حيوية الشعر وأرضيته، يبقى فيه شيء أفلاطونى.

"فى الرؤية البيئية، يتفاعل السلمون وأعشاب النهر وحشرات الماء فى رقصة عظيمة معقدة مع الأرض والطقس. الكل أعظم من مجموع الأجزاء. فى الرقصة، لكل كائن دور: وهذه الأدوار المتعددة، لا الكائنات التى تقوم بها، هى التى تشارك فى الرقصة. وبالنسبة للدور الفعلى للاعبين، بقدر ما يتجددون بشكل ذاتى، بقدر ما يحافظون على تقدمهم، لا نحتاج إلى أن نعيرهم أى انتباه.

"وصفتُ هذا بأنه أفلاطونى وأفعل ذلك مرة أخرى. عيننا على المخلوق نفسه، لكن ذهننا على نظام التفاعلات التى تجعله تجسيدا أرضيا ماديا.

"سخرية مفزعة. فلسفة بيئية تطلب منا أن نعيش جنبا إلى جنب مع المخلوقات الأخرى وتبرر نفسها باللجوء إلى فكرة، فكرة مرتبة أعلى من أى كائن حى. فكرة أنه، فى النهاية- وهذه هى الانعطافة الساحقة إلى السخرية- لا يوجد مخلوق قادر على الفهم إلا الإنسان. كل كائن حى يقاتل من أجل حياته الفردية الخاصة، يرفض، بالقتال، أن يتقبل فكرة أن السلمون أو البعوضة من مرتبة أدنى فى الأهمية من فكرة السلمون أو فكرة البعوضة. ولكن حين نرى السلمون يقاتل من أجل حياته، نقول، إنه مبرمج ليقاتل؛ نقول، مع الأكوينى، إنه مقيد فى عبودية طبيعية؛ نقول، إنه يفتقر إلى الوعى الذاتى.

www.ibtesama.com

"لا تؤمن الحيوانات بعلم البيئة. حتى علماء بيولوجيا الأعراق لا يدَّعون ذلك. حتى علماء بيولوجيا الأعراق لا يقولون إن النملة تضحى بحياتها لبقاء النوع. ما يقولونه مختلف اختلافًا دقيقًا: تموت النملة ووظيفة موتها بقاء النوع. حياة النوع قوة تعمل من خلال الفرد لكن الفرد يعجز عن فهمها. الفكرة بهذا المعنى فطرية، تعمل النملة بالفكرة كما يعمل الكمبيوتر ببرنامج.

"نحن، مدراء البيئة ـ آسف لاستمرارى على هذا النحو، أبتعد عن سؤالك، أعود إليه بعد لحظة- نحن المدراء نفهم الرقصة الأعظم، ومن ثم يمكننا أن نقرر كم تروتة(*)يمكن صيدها أو كم جاجور يمكن حبسه قبل أن يختل استقرار الرقصة. الكائن الوحيد الذى لا ندَّعِى له هذه القوة على الحياة والموت هو الإنسان. لماذا؟ لأن الإنسان مختلف. الإنسان يفهم الرقصة بينما الراقصون الآخرون لا يفهمونها. الإنسان كائن ذكى."

كان ذهنه، وهى تتكلم، مشتتًا. سمع ذلك من قبل، سمع منها هذا الكلام المعادى للبيئة. يفكر، قصائد الجاجور رائعة كلها، لكن لن تجد مجموعة من الأستراليين يقفون حول خروف، يستمعون لمأمأته السخيفة، ويكتبون قصائد عنه. أليس ذلك هو المتوقع فى مهمة حقوق الحيوانات كلها: أن تركب على ظهور الغوريلات الكئيبة والجاجاور الجذابة والبندات

(*) تروتة trout: السلمون المرقط.

www.ibtesama.com

الهائلة لأن مواضيع اهتمامها الحقيقى، الدجاج والخنازير، إذا تغاضينا عن الفئران البيضاء أو براغيث البحر، ليست جديرة باهتمام الأخبار؟

الآن تطرح إلين ماركس، التى قدمت محاضرة الأمس، سؤالا: "حاولتِ أن تبرهنى فى محاضرتك على أن معايير متنوعة - هل لهذا المخلوق عقل؟ هل هذا المخلوق قادر على الكلام؟ استخدمت بسوء نية لتبرير اختلافات لا أساس لها، بين الإنسان والثدييات الأخرى، على سبيل المثال، ومن ثم تبرير الاستغلال.

"إلا أن حقيقة أنك تستطيعين أن تجادلى ضد هذه الحج، كاشفة زيفها، تعنى أنك وضعت إيمانا معينا فى قوة العقل، قوة العقل الحقيقى فى مقابل العقل الزائف.

"دعينى أحدد سؤالى بالإشارة إلى ليمويل جليفر(١) قدم لنا سويفت(٢) فى 'رحلات جليفر' رؤية ليوتوبيا العقل، للأرض التى تدعى أرض الجياد، لكن يتبين أنها موضع لا يوجد فيه بيت لجليفر، وهو

(١) ليمويل جليفر: بطل رحلات جليفر؛ رجل إنجليزى، يسافر إلى بلاد غريبة، تشمل أرض الأقزام Lilliput (حيث يبلغ طول الشخص ٦بوصات) وأرض العمالقة Brobdingnag حيث يبلغ طول الشخص ٧٠ قدما، وأرض الجياد Houyhnhnms (حيث الجياد كائنات ذكية، والبشر، ويسمون الياهو Yahoos بهائم حمقاء).

(٢) جوناتان سويفت Jonathan Swift: (١٦٦٧ - ١٧٤٥) كاتب أيرلندى، أشهر أعماله رحلات جليفر واقتراح متواضع (١٧٢٩) وفى اقتراح متواضع يقترح سويفت أن الأيرلنديين يمكن أن يحلوا مشاكلهم الاقتصادية بطبخ الأطفال الفقراء وأكلهم.

www.ibtesama.com

الأقرب فى تمثيل سويفت لنا، قرَّائه. لكن من منا يود أن يعيش فى أرض الجياد، بمذهبها النباتى العقلانى وحكومتها العقلانية ومقاربتها العقلانية للحب والزواج والموت؟ هل يمكن حتى لحصان أن يرغب فى العيش فى مثل هذا المجتمع الشمولى المنظم بدقة؟ وما يعنينا أكثر، ماذا فى سجل حلبة مجتمع منظم تنظيمًا كليًا؟ أليست الحقيقة أنه قد ينهار أو يتحول إلى مجتمع عسكرى؟

"وسؤالى بالتحديد هو: ألا تتوقعين الكثير جدًا من الجنس البشرى حين تطلبين منا أن نعيش بدون استغلال وبدون وحشية؟ أليس تقبل إنسانيتنا أكثر إنسانية- حتى إذا كان هذا يعنى الترحيب بإلياهو آكل اللحوم فى داخلنا- من أن ننتهى إلى ما انتهى إليه جليفر، يتوق لحالة لا يمكن أن يصل إليها أبدًا، ولسبب وجيه: أليس هذا فى طبيعته، التى هى طبيعة بشرية؟"

ترد أمه: "سؤال مهم؟ أرى أن سويفت كاتب مخادع. على سبيل المثال، كتيبه 'اقتراح متواضع.' حين يحدث اتفاق تام بشأن كيفية قراءة كتاب، أصغى بانتباه شديد. فى «اقتراح متواضع» ، هناك اتفاق جماعى على أن سويفت لا يقصد ما يقول، أو ما يبدو أنه يقول. يقول، أو يبدو أنه يقول، إن العائلات الأيرلندية يمكن أن تكسب قوتها من تنشئة الأطفال لموائد سادتهم الإنجليز. لكنه لا يمكن أن يقصد ذلك، كما نقول، لأننا جميعاً نعرف أن قتل الأطفال الآدميين

www.ibtesama.com

وأكلهم أمر بشع. لكن الإنجليز، إذا واصلنا التفكير فى الأمر، يقتلون، بمعنى ما، الأطفال الآدميين بتركهم جياعا. الإنجليز يشعون بالفعل إذا فكرنا فى الأمر.

"تلك هى القراءة الأرثوذكسية، إلى حد ما. لكننى أتساءل، لماذا ينحشر العنف المفعمة به حناجر القراء الصغار؟ تقرءون سويفت على هذا النحو، كما يقول مدرسوهم، بهذه الطريقة وليس بطريقة أخرى. إذا كان قتل الأطفال الآدميين وقتلهم بشعًا، لماذا لا يكون قتل الخنازير الصغيرة وأكلها بشعًا، إذا كنت تريدين سويفت ساخرًا سوداويًا بدل أن يكون مؤلف كتيبات سهلة، فعليك بفحص الفرضيات التى تجعل حكايته الخرافية سهلة الهضم بهذه الصورة.

"لأعد الآن إلى 'رحلات جليفر.'

"لديك الياهو من ناحية، الذين يرتبطون باللحم النيئ، رائحة الغائط وما اعتدنا أن ندعوه وحشية. ولديك الجياد على الأخرى، الذين يرتبطون بالعشب والروائح الطيبة وعواطف منظمة بشكل عقلانى. وبينهما لديك جليفر، الذى يريد أن يكون جوادا لكنه يعرف سرًا أنه واحد من الياهو. كل ذلك واضح تمامًا. والسؤال، كما هو الحال مع «**اقتراح متواضع**» ماذا نفعل بذلك؟

"ملاحظة. الجياد تلفظ جليفر. والسبب المزعوم أنه لا تنطبق عليه معايير العقلانية. والسبب الحقيقى أنه لا يبدو على شكل جواد، لكنه شىء آخر: إنه ياهو يرتدى ثيابًا. إن معيار العقل الذى طبَّقه أكلة اللحوم

www.ibtesama.com

ممن يمشون على قدمين لتبرير حالة خاصة لأنفسهم يمكن أن يطبقه بالمثل أكلة العشب ممن يمشون على أربع.

"معيار العقل. بالنسبة لى يبدو أن «رحلات جليفر» تعمل فى إطار التقسيم الأرسطى الثلاثى المكون من الآلهة والبهائم والبشر. طالما يحاول المرء أن يضع الممثلين الثلاثة فى فصيلتين- مَن البهائم، من البشر؟- لا يمكن للمرء أن يفهم الخرافة. ولا يمكن أيضا للجياد أن يفهموها. الجياد آلهة هادئة وطيبة على شاكلة أبوللو. الاختبار الذى يطبقونه على جليفر: هل هو إله أم بهيمة؟ يشعرون أنه اختبار ملائم. ونحن، غريزيًا، لا نشعر بذلك.

"ما كان يحيرنى دائمًا فى «رحلات جليفر» وهو منظور قد تتوقعونه من مستعمر سابق- أن جليفر يسافر وحده دائمًا. يذهب جليفر فى رحلات استكشافية إلى أراضٍ مجهولة، لكنه لا يهبط على اليابسة مع مجموعة مسلحة، كما يحدث فى الواقع، ولا يقول كتاب سويفت شيئًا عمًا أتى بشكل طبيعى بعد الجهود الريادية التى قام بها جليفر: بعثات المتابعة، بعثات لاحتلال لأرض الأقزام أو جزيرة الجياد.

"السؤال الذى أطرحه هو: ماذا إذا كان جيلفر ومعه مجموعة مسلحة قد نزلوا إلى الشاطئ وأطلقوا النيران على بعض الياهو حين تعرضوا للتهديد، وأطلقوا النيران على حصان، للحصول على طعام؟

www.ibtesama.com

ماذا يكون تأثير ذلك على خرافة سويفت المتقنة جدًا إلى حد ما، المتحررة جدًا إلى حد ما، اللاتاريخية جدًا إلى حد ما؟ من المؤكد أن ذلك كان سيصدم الجياد صدمة قاسية، توضح وجود فصيلة ثالثة بجانب الآلهة والبهائم، أى الإنسان، وجليفر كان من قبل واحدًا منهم؛ وبالإضافة إلى ذلك، إذا كانت الجياد تمثل العقل، فإن الإنسان يمثل القوة الجسدية.

"الاستيلاء على جزيرة وذبح سكانها هو ما فعله، بالمناسبة، أوديسوس ورجاله على ترينيكا، الجزيرة المكرسة لعبادة أبوللو، وهو عمل عاقبهم عليه الإله بقسوة. ويبدو أن هذه القصة، بدورها، تستدعى طبقات أعمق من الإيمان، حين كانت الثيران آلهة وكان قتل إله وأكله يستنزلان اللعنة عليك.

"هكذا - أعذرونى على تشوش هذا الرد- أجل، لسنا جيادًا، ليس لنا جمالها النقى العقلانى العارى؛ على العكس، إننا من فصيلة فرعية من الرئيسات تنتمى للجياد، نعرف بشكل آخر باسم الإنسان. تقولين إنه لا يوجد شىء تفعلينه إلا اعتناق هذا الوضع، تلك الطبيعة. حسن جدًا، لنفعلْ ذلك. لكن لندفعْ أيضًا خرافة سويفت إلى حدودها ونعرف أن اعتناق وضع الإنسان، فى التاريخ، استلزم ذبح جنس إلهى أو بتعبير آخر كائنات مخلوقة إلهيًا، وأننا نجر، بهذه الطريقة، اللعنة على أنفسنا."

***

www.ibtesama.com

الثالثة وخمس عشرة دقيقة، ساعتان قبل آخر ارتباط لأمه. يسير معها إلى مكتبه بين طرق مصفوفة بالأشجار حيث تتساقط آخر أوراق الخريف.

"هل تؤمنين حقا، يا أمى، أن دروس الشعر ستغلق المجازر؟"

"لا."

"لماذا تفعلين ذلك إذًا؟ قلتِ إنك مرهقة من كلام بديع عن الحيوانات، مبرهنة بالقياس المنطقى أن لها أرواحًا أو أنها بلا أرواح. لكن أليس الشعر نوعًا آخر من الكلام البديع: يعبر عن الإعجاب بعضلات القطط الكبيرة شعرًا؟ ألم يكن رأيك فى الكلام أنه لا يغير شيئًا؟ يبدو لى أن مستوى السلوك الذى تريدين تغييره مستوى بدائى جدًا، بدائى بدرجة لا تمكن الكلام من الوصول إليه. يعبر أكل اللحوم عن شىء عميق حقًا فى البشر، بالضبط كما هو الحال بالنسبة للجاجاور. لا تريدين أن يكتفى الجاجور بغذاء من فول الصويا."

"لأنه سيموت. لا يموت البشر إذا عاشوا على غذاء نباتى."

"لا، لا يموتون. لكنهم لا يريدون غذاء نباتيًا. يحبون أكل اللحوم. ثمة شىء يرضيهم بشكل سلفى فى ذلك. تلك هى الحقيقة الموجعة. بالضبط كما أنها حقيقة موجعة أن الحيوانات تستحق، بمعنى ما، ما يحدث لها. لماذا تضيعين وقتك فى محاولة لمساعدتها حين لا تريد أن تساعد أنفسها؟ دعيها تنضج فى

www.ibtesama.com

عصارتها على نار هادئة. إذا سئلتُ عن الموقف العام تجاه الحيوانات التى نأكلها، يمكن أن أقول: ازدراء. نعاملها معاملة سيئة لأننا نحتقرها؛ ونحتقرها لأنها لا تقاوم."

"تقول أمه: "لا أختلف معك. يشكو الناس أننا نعامل الحيوانات كالأشياء، لكننا فى الحقيقة نعاملها كأسرى الحرب. هل تعرف أنه كان على الحراس، حين فتحت حدائق الحيوانات أول مرة للجمهور، حماية الحيوانات من هجمات المتفرجين؟ شعر المتفرجون أن الحيوانات موجودة لتُؤذَى وتساء معاملتها، كالأسرى فى نشوة النصر. خضنا حربًا مع الحيوانات ذات يوم، كنا نسميها صيدًا، مع أن الصيد والحرب هما، فى الحقيقة، الشىء ذاته (رأى أرسطو ذلك بوضوح). استمرت تلك الحرب ملايين السنين. لم نحسمها لصالحنا إلا منذ بضع مئات من السنين، حين اخترعنا البنادق. استطعنا، فقط منذ أصبح النصر مطلقًا، أن نتحمل تنمية الشفقة. لكن شفقتنا تنتشر بوهن شديد، ومن تحتها الموقف الأكثر بدائية. لا ينتمى أسير الحرب لقبيلتنا. يمكن أن نفعل معه ما نشاء. يمكن أن نضحى به لآلهتنا. يمكن أن نقطع رقبته، ونمزق قلبه، ونلقى به فى النار. لا توجد قوانين حين يتعلق الأمر بأسرى الحرب.

"وهذا ما تريدين أن تشفى الجنس البشرى منه؟"

"جون، لا أعرف ما أريد أن أفعله. لا أريد أن أكتفى بالجلوس صامتة."

www.ibtesama.com

"حسن جدًا. لكن المرء عمومًا لا يقتل أسرى الحرب. يستعبدهم."

"حسن، هذا حال قطعان الأسرى لدينا: سُكَّان عبيد. وظيفتهم أن يتكاثروا من أجلنا. حتى ممارستهم للجنس تصبح شكلا من أشكال العمل. لا نكرههم لأنهم ما عادوا جديرين بالكراهية. ننظر إليهم، كما تقول، بازدراء.

"ومع ذلك مازلت هناك حيوانات نكرهها. الفئران، على سبيل المثال. الفئران لم تستسلم. تقاوم. تشكل وحدات تحت الأرض فى بالوعاتنا. لا تفوز لكنها أيضًا لا تخسر. وذلك إذا تغاضينا عن ذكر الحشرات والميكروبات. مازالت تهزمنا. من المؤكد أنها ستصمد أكثر منا."

***

آخر جلسة فى زيارة أمه عبارة عن مناظرة. سيكون فى مواجهتها الرجل الأشقر الضخم، الذى كان على عشاء الليلة السابقة، الذى يتبين أنه توماس أوهيرن، بروفسيور الفلسفة فى أبليتون.

وقد تم الاتفاق على إتاحة ثلاث فرص أمام أوهيرن لعرض مواقفه، وثلاث فرص أمام أمه للرد. وحيث إن أوهيرن جاملها بإرسال ملخص (*)إليها مقدمًا، فهى تعرف، عمومًا، ما سيقوله.

يبدأ أوهيرن: "أول تحفظ لى على حركة حقوق الحيوان أن الفشل فى التعرف طبيعتها التاريخية

(*) بالفرنسية فى الأصل.

www.ibtesama.com

يجعلها عرضة لخطر أن تصبح، مثل حركة حقوق الإنسان، مجرد حملة صليبية غربية أخرى ضد ممارسات بقية العالم، مدعية العالمية لما هى ببساطة معاييرنا الخاصة." يواصل ليقدم إطارًا موجزًا لنشأة جمعيات حماية الحيوان فى بريطانيا وأمريكا فى القرن التاسع عشر.

يواصل: "حين يتعلق الأمر بحقوق الإنسان، يرد أصحاب الثقافات الأخرى والتراث الدينى الآخر، بشكل صحيح تمامًا، بأن لديهم معاييرهم الخاصة ولا يرون سببًا لتبنى معايير الغرب. ويقولون، بالمثل، إن لديهم معاييرهم الخاصة فى التعامل مع الحيوانات ولا يرون سببًا لتبنى معاييرنا- وخاصة حين تكون معاييرنا اختراعًا حديثًا.

"كانت محاضِرتُنا، فى لقاء الأمس، قاسية جدًا على ديكارت. لكن ديكارت لم يبتكر فكرة أن الحيوانات تنتمى إلى مرتبة مختلفة عن الجنس البشرى: صاغها فقط بطريقة جديدة. إن تصور أننا ملتزمون تجاه الحيوانات نفسها بأن نعاملها بشفقة- مقابل التزام تجاه أنفسنا بأن نفعل ذلك- تصور حديث جدًا، غربى جدًا، وربما حتى يكون أنجلو سكسونيًا جدًا. طالما نؤكد أن لدينا منفذًا إلى عالم أخلاقى لا يبصره أصحاب التقاليد الأخرى، ونحاول أن نفرضه عليهم بالدعاية أو حتى بالضغوط الاقتصادية، فسوف نواجه بمقاومة، وسوف تكون هذه المقاومة مبررة."

www.ibtesama.com

دور أمه.

"إن الاهتمامات التى تعبر عنها اهتمامات جوهرية، بروفسيور أوهيرن، ولستُ متأكدة من أننى أستطيع أن أقدم إجابة جوهرية لها. أنت محق، بالطبع، فيما يتعلق بالتاريخ. لم يصبح العطف على الحيوانات معيارًا اجتماعيًا إلا حديثًا، منذ مائة وخمسين سنة أو مائتين، وفى جزء واحد من العالم. أنت محق أيضًا فى ربط هذا التاريخ بتاريخ حقوق الإنسان، حيث إن الاهتمام بالحيوانات، من الناحية التاريخية، فرع من اهتمامات خيرية أوسع -بالكثير من العبيد والأطفال، وآخرين.

"إلا أن العطف على الحيوانات - وأنا هنا أستخدم كلمة **العطف** بمعناها الكامل، مثل قبول أننا جميعًا من نوع واحد، وطبيعة واحدة - كان على نطاق أوسع مما يتضمنه كلامك. إن تربية الحيوانات الأليفة، على سبيل المثال، ليست بحال من الأحوال بدعة غربية: صادف الرحالة الأوائل إلى أمريكا الجنوبية مستوطنات يعيش فيها البشر والحيوانات معًا عيشة مختلطة. والأطفال بالطبع فى جميع أرجاء العالم ينسجمون بشكل طبيعى مع الحيوانات. لا يرون خطًا فاصلا. هذا شىء عليهم أن يتعلموه، بالضبط كما عليهم أن يتعلموا أنه لا بأس فى أن يقتلوها ويأكلوها.

"وبالعودة إلى ديكارت، أردتُ فقط أن أقول إن الانقطاع الذى رآه بين الحيوانات والبشر كان نتيجة

www.ibtesama.com

لمعلومات غير مكتملة. لم يكن العلم فى عصر ديكارت على دراية بالقردة العليا(*) أو الثدييات البحرية العليا، وبالتالى لم يكن هناك سبب للشك فى فرضية أن الحيوانات لا تستطيع أن تفكر. ولم يكن له بالطبع مدخل إلى سجل الحفريات الذى كشف عن استمرارية متدرجة للمخلوقات الشبيهة بالبشر تمتد من الرئيسات العليا إلى **الجنس البشرى** ـ شبيهة الإنسان، ولابد للمرء أن يشير إلى أنها انتهت على يد الإنسان فى صعوده إلى القوة.

"بينما أسلم برأيك الأساسى بشأن عجرفة الثقافة الغربية، أظن أنه من المناسب أن يكون أولئك الذين ابتكروا تصنيع حياة الحيوانات وتحويل لحوم الحيوانات إلى سلعة فى طليعة محاولة التكفير عن ذلك."

يقدم أوهيرن أطروحته الثانية. يقول: "فى قراءتى للأدبيات العلمية، لم تحقق الجهود التى تحاول أن توضح أن الحيوانات يمكن أن تفكر تفكيرًا استراتيجيًا، أو يكون لها مفاهيم عامة، أو تتواصل بشكل رمزى، إلا نجاحًا محدودًا للغاية. إن أفضل ما يمكن أن تحققه القِرَدة العليا من الأداء ليس أفضل من إنسان يعانى من ضعف عقلى شديد وصعوبات فى الكلام. وإذا كان الأمر كذلك، ألا يعتقد حقًا أن الحيوانات، حتى الحيوانات العليا، تنتمى تمامًا لعالم

(*) القردة العليا: مجموعة القرود الشبيهة بالإنسان من العائلة التى تشمل الشمبانزى والغوريللا وإنسان الغابة.

www.ibtesama.com

آخر من القانون والأخلاق، بدلا من وضعها فى هذه الفصيلة الإنسانية الفرعية المحبطة؟ ألا توجد حكمة معينة فى النظرة التقليدية التى تقول إن الحيوانات لا تستطيع أن تتمتع بالحقوق القانونية، لأنها ليست أشخاصًا، ولا حتى أشخاصًا محتملين كالأجنة؟ فى القواعد المطبقة فى تعاملنا مع الحيوانات، ألا يكون مفهومًا أكثر بالنسبة لمثل هذه القواعد أن نطبقها على أنفسنا وعلى علاجنا لها، كما يحدث حاليًا، بدلا من التنبؤ على أساس حقوق لا يمكن للحيوانات أن تدعيها أو تفرضها أو حتى تفهمها؟"

دور أمه. "لأردَّ ردًا وافيًا، بروفسيور أوهيرن، أحتاج إلى وقت أطول من الوقت المخصص لى، حيث إننى أريد بدايةً أن أتناول مسألة الحقوق كلها وكيف نحصل عليها. لذا دعنى أبدى ملاحظة: إن برنامج التجريب العلمى الذى يقودك إلى استنتاج أن الحيوانات بلهاء برنامج مركزه الإنسان. إنه يقدر قدرتك للعثور على طريق للخروج من متاهة عقيمة، متجاهلا حقيقة أنه إذا كان على الباحث الذى صمم المتاهة أن ينزل بمظلة إلى دغل بورنيو(*) لمات من الجوع فى أسبوع. إننى فى الحقيقة أمضى إلى أبعد من ذلك. إذا أُخبِرْتُ أنا كإنسان بأن المعايير التى تقاس بها الحيوانات فى هذه التجارب معايير بشرية،

(*) بورنيو: جزيرة فى المحيط الهادى فى أرخبيل المالايا جنوب غرب الفلبين. ثالث أكبر جزيرة فى العالم. سلطنة بروناى على الساحل الشمالى الغربى، وبقية الجزيرة مقسمة بين إندونيسيا وماليزيا.

www.ibtesama.com

لشعرتُ بالإهانة. التجارب نفسها بلهاء. يدَّعى السلوكيون الذين يصممونها إننا لا نفهم إلا بعملية خلق نماذج مجردة واختبار تلك النماذج فى الواقع. يا له من هراء. إننا نفهم بغمر أنفسنا وذكائنا فى التعقيد. ثمة شىء مسفٍّه للذات فى الطريقة التى تنكص بها السلوكية العلمية عن تعقيد الحياة.

"حيث إن الحيوانات بكماء جدًا وغبية جدًا بدرجة لا تجعلها تتحدث بنفسها، تأملْ تتابع الأحداث التالية: حين كان ألبير كامى صبيًا فى الجزائر، طلبت منه جدته أن يحضر لها دجاجة من قفص فى فنائهم الخلفى. أطاع، ثم رآها تقطع رأسها بسكين المطبخ، وتصفى دمها فى إناء حتى لا تتوسخ الأرضية.

"انطبعت صرخة الموت فى ذاكرة الولد بقوة حتى أنه كتب عام ١٩٥٦ هجوما عنيفا على المقصلة. وكان هذا الهجوم من أسباب إلغاء حكم الإعدام فى فرنسا. مَنْ يستطيع إذًا أن يقول إن الدجاجة لم تتكلم؟"

أوهيرن: "أضع العبارة التالية بتأنٍ شديد مدركا التداعيات التاريخية التى قد تثيرها. لا أؤمن أن الحياة مهمة للحيوانات مثلما هى مهمة لنا. من المؤكد أنه توجد مقاومة غريزية فى الحيوانات للموت، وهى تشاركنا فى ذلك. لكنها لا تفهم الموت كما نفهمه، أو بالأحرى، كما نفشل أن نفهمه. تنهار مخيلة الذهن البشرى أمام الموت، وهذا الانهيار للمخيلة ـ تم تقديم تصور له فى محاضرة الأمس- أساس رعبنا من الموت. وهذا الرعب لا يوجد ولا يمكن أن يوجد فى

www.ibtesama.com

الحيوانات، لأن بذل الجهد لفهم الانقراض، والفشل فى فهمه، والفشل فى السيطرة عليه، لم يحدث ببساطة.

"لهذا السبب، أود أن أقول إن الموت، بالنسبة للحيوانات، مجرد شىء يحدث، شىء يمكن أن يثور الكائن ضده لكنها ليست ثورة الروح. وكلما كان مستوى التطور الذى يحققه المرء أقل، كلما كان ذلك أصح. الموت، بالنسبة لحشرة، هو انهيار النظم التى تحافظ على وظائفها الجسدية، ليس إلا.

"الموت، بالنسبة للحيوانات، استمرار للحياة. فقط بين بعض البشر الذين يتمتعون بقدرة كبيرة على التخيل يصادف المرء هلع الموت بشكل حاد بحيث يمكنهم حينئذ أن يسقطوه على الكائنات الأخرى، بما فيها الحيوانات. تعيش الحيوانات، ثم تموت: هذا كل ما فى الأمر. وهكذا تكون المساواة بين الجزار الذى يذبح دجاجة والجلاد الذى يذبح إنساناً خطأً مميتًا. لا يمكن مقارنة الأحداث. ليست على المستوى ذاته، ليست على المستوى ذاته.

"ويتركنا ذلك مع مسألة الوحشية. إن قتل الحيوانات، كما قلتُ، مشروع لأن حياتها ليست مهمة لها مثلما حياتنا مهمة لنا؛ والصيغة القديمة للتعبير عن ذلك هى أن أرواح الحيوانات ليست خالدة. على الجانب الآخر وحشية مجانية، يمكن أن أعتبرها محظورة. وبالتالى من المناسب تمامًا أن نقلق من معاملة البشر للحيوانات، حتى فى المجازر وخاصة

www.ibtesama.com

فيها. وكان ذلك لفترة طويلة هدف منظمات رعاية الحيوانات، وأحييها على ذلك.

"وتتعلق النقطة الأخيرة التى أثيرها بما أراه الطبيعة المجردة بشكل مزعج للاهتمام بالحيوانات فى حركة حقوق الحيوانات. وأود أن أعتذر مقدمًا لمحاضِرتنا على ما يبدو قسوة فيما أقول، لكننى أؤمن بأنه يجب أن يقال.

"من الأنواع الكثيرة ممن أراهم حولى من محبى الحيوانات، دعونى أحدد نوعين: الصيادين، الناس الذين يقدرون الحيوانات على مستوى بدائى جدًا وطائش، من ناحية؛ من يقضون الساعات فى مراقبتها وتتبعها؛ والذين يشعرون، بعد أن يقتلوها، بلذة مذاق لحمها. ومن ناحية أخرى، أناس ليست لهم احتكاكات تذكر بالحيوانات، أو على الأقل بتلك الأنواع التى يحرصون على حمايتها، مثل الدواجن والماشية، لكنهم يريدون لكل الحيوانات ـ فى فراغ اقتصادى- أن تعيش فى يوتوبيا حيث يتم إطعام كل حيوان بصورة خارقة ولا يفترس أحد منها غيره.

"أسأل، مَنْ مِن النوعين يحب الحيوانات أكثر؟

"لأن القلق على حقوق الحيوانات، بما فى ذلك حقها فى الحياة، مجرد جدًا حتى أننى أراه غير مقنع وتافه فى النهاية. يتكلم أنصاره كثيرًا عن حياتنا المشتركة مع الحيوانات، لكن كيف يعيشون حقًا هذا الحياة المشتركة؟ يقول توماس الأكوينى إن الصداقة

www.ibtesama.com

بين البشر والحيوانات مستحيلة، وأميل إلى الاتفاق معه. لا يمكن أن تكونوا أصدقاء لمريخيٍّ أو لخفاش، لسبب بسيط وهو أن المشترك بينك وبينهم قليل جدًا. ربما نأمل بالتأكيد فى وجود حياة مشتركة مع الحيوانات، لكن هذا لا يعنى العيش معهم فى حياة مشتركة. ليس هذا إلا جزءًا من الحنين إلى ما قبل الهبوط من الجنة."

دور أمه مرة أخرى، دورها الأخير.

"كل مَنْ يقول إن الحيوانات لا تهتم بالحياة بقدر اهتمامنا بها لم يمسك بيديه أبدا حيوانًا يصارع من أجل الحياة. يخوض الحيوان الصراع بكل كينونته، ولا يدخر منها شيئًا. وحين تقول إن الصراع يفتقر إلى بعد فكرى أو هلع تخيلى، أتفق معك. ليس من طبيعة وجود الحيوانات أن تعرف الهلع الفكرى: وجودها كله فى لحمها الحى.

"إذا كنتُ لا أقنعك، فإن ذلك يعود إلى أن كلماتى تفتقر، هنا، إلى القوة على تقديم الطبيعة الكلية غير المجردة واللاعقلية لوجود ذلك الحيوان. لهذا ألح عليك فى أن تقرأ الشعراء الذين يعيدون الوجود الكهربى الحى إلى اللغة؛ وإذا لم يحركك الشعراء، ألح عليك أن تسير، جنبًا إلى جنب، بجوار بهيمة تقاد عبر المنحدر إلى جلادها.

"ترى أن هذا الموت لا يهم الحيوان؛ لأن الحيوان لا يفهم الموت. أتذكر أحد الفلاسفة الأكاديميين الذين

www.ibtesama.com

قرأتهم وأنا أعد لمحاضرة الأمس. كانت خبرة محبطة. تثير فىَّ استجابة سويفتية(*) بكل معنى الكلمة. قلتُ لنفسى، إذا كان هذا أفضل ما يمكن للفلسفة الإنسانية أن تقدمه فعلىَّ أن أذهب وأعيش بين الجياد.

"سأل هذا الفيلسوف، هل يمكن لنا، على وجه التحديد، أن نقول إن العجل يفتقد أمه؟ هل لدى العجل ما يكفى لإدراك أهمية العلاقة مع الأم، هل لدى العجل ما يكفى لإدراك معنى غياب الأم، هل يعرف العجل، فى النهاية، ما يكفى عن الافتقاد ليعرف أن الشعور الذى ينتابه شعور بالافتقاد؟

"إن العجل الذى لم يستوعب مفاهيم الوجود والغياب، والذات والآخر- هكذا تمضى الحجة- لا يمكن، تحديدًا، أن يقال إنه يفتقد أى شىء. حتى يفتقد، تحديدا، أى شىء، عليه أن يحضر فى البداية فصلا دراسيًا فى الفلسفة. ماذا يكون نوع هذه الفلسفة؟ أقول، لا يهم. ماذا تفعل فروقها التافهة؟

"بالنسبة لى، إن فيلسوفًا يقول إن الفرق بين الإنسانى واللاإنسانى يعتمد على إن كان جلدك أبيض أم أسود، وفيلسوفًا يقول إن الفرق بين الإنسانى واللاإنسانى يعتمد على إن كنت تعرف الاختلاف بين المسند إليه والمسند أو لا تعرف، يتشابهان أكثر مما يختلفان.

(*) نسبة إلى سويفت مؤلف رحلات جليفر.

www.ibtesama.com

"إننى، عادة، حذرة من الإيماءات الإقصائية. أعرف أن فيلسوفًا بارزًا يقول إنه ببساطة ليس على استعداد لأن يتفلسف حول الحيوانات مع أناس يأكلون اللحوم. لستُ على يقين من أننى يمكن أن أذهب إلى هذا المدى- صراحةً، لا أملك الشجاعة- لكن لابد أن أقول إننى لا أتوق إلى مقابلة الجنتلمان الذى كنتُ أستشهد به منذ برهة. وخاصة، لا أتوق لمشاركته الخبز.

"هل أنا على استعداد لمناقشة الأفكار معه؟ هذا هو السؤال الحاسم حقًا. لا يمكن أن تدور مناقشة إلا فى وجود أرضية مشتركة. حين يختلف الخصوم، نقول: 'دعهم يتفاهمون معًا، ويكتشفون اختلافاتهم بالعقل، ويتقاربون بعض الشىء. ربما يبدو أنهم لا يشتركون فى شىء آخر، لكنهم على الأقل يشتركون فى العقل.'

"إلا أننى لستُ متأكدة، فى الموقف الحالى، من أننى أريد أن أسلِّم بأننى أشارك خصمى العقل، حين يعزز العقل كل التراث الفلسفى الممتد الذى ننتمى إليه، رجوعًا إلى ديكارت وما قبل ديكارت عبر الأكوينى وأوجستين إلى الرواقيين وأرسطو. إذا كان العقل آخر أرضية مشتركة بينى وبينه، وإذا كان العقل ما يبعدنى عن العجل، شكرًا لكم ولا شكر لكم، سوف أتحدث إلى شخص آخر."

هذه هى الملاحظة التى على العميد أرندت أن يغلق الإجراءات عندها: الحدة والعدوانية والمرارة.

www.ibtesama.com

إنه، جون برنارد، على يقين من أن ذلك ليس ما كان يريده أرندت أو لجنته. حسنًا، كان عليهم أن يسألوه قبل أن يدعوا أمه. وكان يمكنه أن يخبرهم.

***

تجاوز الوقت منتصف الليل، هو ونورما فى السرير، إنه مستهلَك، وعليه أن يستيقظ فى السادسة ليصحب أمه بالسيارة إلى المطار. لكن نورما فى حالة غضب ولن تهدأ. "ليستْ سوى بدعة غذائية، والبدعة الغذائية دائما تدريب يمارسه المتربع على العرش. لا أصبر حين تصل إلى هنا وتحاول أن تجعل الناس، وخاصة الأطفال، أن يغيروا عاداتهم فى الأكل. والآن هذه المحاضرات العامة العبثية! تحاول أن تمد قوتها القمعية على المجتمع كله!"

يريد أن ينام، لكنه لا يستطيع أن يحتمل النم عن أمه تمامًا. يهمهم: "إنها مخلصة تمامًا."

"المسألة لا علاقة لها بالإخلاص. ليس لديها بصيرة ذاتية على الإطلاق. تبدو مخلصة لأنها ليس لديها بصيرة بدوافعها. المجانين مخلصون."

يدخل المشاجرة متنهدًا. يقول: "لا أرى فرقًا بين نفورها من أكل اللحوم ونفورى من أكل المحار أو الجراد. ليس لدىَّ بصيرة بدوافعى، ولا أبالى. أراه فقط مثيرًا للاشمئزاز."

تشخر نورما: "أنت لا تعطى محاضرات عامة بها مناقشات فلسفية زائفة عن أكل المحار. أنت لا تريد أن تحول بدعة خاصة إلى تابو عام."

www.ibtesama.com

"ربما. لكن لماذا لا تعتبرينها واعظة، مصلحة اجتماعية، بدلا من اعتبار أنها تقوم بمحاولة شاذة لدس ما تفضله فى أذهان الآخرين؟"

"ترحب بأن تراها واعظة. لكن ألقِ نظرةً على كل الوعاظ الآخرين ومخططاتهم المجنونة لتقسيم الجنس البشرى إلى ناجين وملعونين. هل تلك هى الشراكة التى تريدها لأمك؟ إليزابيث كستلو وسفينة نوح الثانية، مع كلابها وقططها وذئابها، ولا أحد منها، بالطبع، اقترف إثم أكل اللحم، ناهيك عن فيروس الملاريا وفيروس داء الكَلِب وفيروس الإيدز، ستريدها لتتمكن من إعادة تجهيز عالمها الجديد الشجاع."

"نورما، تتبجحين."

"لا أتبجح. كان يمكن أن أحترمها أكثر لو لم تحاول طعنى من خلف ظهرى، بقصصها للأطفال عن العجول الصغيرة المسكينة وما يفعله الرجال الأشرار بها. تعبتُ من جعلهم يتناولون طعامهم وهم يسألون، 'ماما، هل هذا لحم عجل؟ 'حين يكون دجاجًا أوسمك تونة. ليست سوى لعبة قوة. بطلها العظيم، فرانز كافكا، مارس اللعبة ذاتها مع أسرته. رفض أن يأكل هذا، ورفض أن يأكل ذلك، كان يعانى من الجوع، كما قال. وبسرعة كان الجميع يشعرون بالذنب إذا تناولوا الطعام أمامه، وكان يستريح ويشعر بالفضيلة. لعبة مريضة، ولن أسمح للأطفال أن يلعبوها معى."

"ساعات قليلة وتنصرف، ثم تعود حياتنا إلى طبيعتها."

www.ibtesama.com

"حسن. قلْ لها إلى اللقاء نيابة عنى. لن أستيقظ مبكرًا."

***

السابعة، تشرق الشمس، هو وأمه فى الطريق إلى المطار.

يقول: "آسف نيابة عن نورما. كانت تحت ضغط كبير. لا أظن أنها فى وضع يسمح لها بالتعاطف. وربما يمكن للمرء أن يقول الشىء نفسه عنى. كانت زيارة قصيرة، لم يكن لدىَّ وقت لأفهم السبب الذى جعلك حادة بهذا الشكل بشأن الحيوانات."

تشاهد المسَّاحات تهتز ذهابًا وإيابًا. تقول: "تفسير أفضل، إننى لم أخبرك بالسبب، أو لا أجرؤ أن أخبرك. حين أفكر فى الكلمات، تبدو شنيعة بدرجة تجعل من الأفضل أن تقال لوسادة أو فى ثقب فى الأرض، مثل الملك ميداس (*)"

"لا أتابع. ما الذى لا تستطيعين قوله؟"

"لم أعد أعرف أين أنا. يبدو أننى أتحرك بسهولة تامة بين البشر، لتكون لى علاقات طبيعية جدًا معهم. أسأل نفسى، هل يحتمل أن يكونوا جميعًا متورطين فى جريمة التناسب المذهل؟ هل أتخيل الأمر كله؟ لابد أننى مجنونة! إلا أننى أرى الأدلة كل يوم. الناس ذاتهم

(*) ميداس: ملك طلب منه الإله دينسيوس أن يحقق له أمنية. متعطشا للثراء تمنى ميداس أن يتحول كل ما يلمسه إلى ذهب. لكنه ندم بسرعة، لأنه حين كان يأكل يتحول طعامه إلى معدن صلب، وحين احتضن ابنته تحولت إلى تمثال من الذهب. وبناء على نصيحة دينسيوس اغتسل فى النهر ليفقد هذه الخاصية.

www.ibtesama.com

الذين أشك فيهم ينتجون الدليل، يعرضونه، ويقدمونه لى. جثث. أشلاء جثث يشترونها بالمال.

"يبدو الأمر وكأننى أزور أصدقاء، وأبدى ملاحظة مهذبة بشأن اللمبة فى غرفة المعيشة، وأنهم يقولون: 'أجل، إنها رائعة، أليس كذلك؟ مصنوعة من جلد يهودية بولندية، نجد أن هذا أفضل، جلود العذارى الشابات من اليهوديات البولنديات. 'ثم أذهب إلى الحمام وأجد على غلاف قطعة الصابون، 'تربلينكا- ١٠٠٪ استيرات (*) بشرية .'وأقول لنفسى، هل أحلم؟ أى نوع من المنازل هذا؟

"إلا أننى لا أحلم. أنظر فى عينيك، وفى عينى نورما، وفى عيون الأطفال، ولا أرى إلا عطفًا، عطفًا بشريًا. أقول لنفسى، اهدئى، إنك تهوِّلين الأمور. هذه هى الحياة. كل الآخرين يقبلونها، **لماذا لا تستطيعين أنتِ؟ لماذا لا تستطيعين أنتِ؟**"

تلتفت إليه بوجه دامع. يفكر، ماذا تريد؟ هل تريد منى أن أجيب لها على سؤالها؟

لم يصلا بعد إلى الطريق السريع. يفرمل السيارة، يوقف المحرك، يأخذ أمه بين يديه. يشم رائحة كريم بارد، ورائحة لحم عجوز. يهمس فى أذنها: "هناك، هناك، هناك، هناك، ستنتهى هذه الحالة سريعًا."

●●●

(*) استيرات: ملح أو استير الحمض الاستيرى، وهى مادة بيضاء صلبة تستخرج من بعض الشحوم وتستخدم فى صناعة الشموع والصابون.

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

(٥)
الإنسانيات فى إفريقيا

- ١ -

لم تر أختها منذ اثنى عشر عامًا، لم ترها منذ جنازة أمهما فى ذلك اليوم الممطر فى ملبورن. انتقلت تلك الأخت، التى لا تزال تفكر فيها باعتبارها بلانش مع أن اسمها الشائع صار الأخت بريجيت منذ فترة طويلة ولابد أنها تفكر الآن فى نفسها باعتبارها بريجيت، انتقلت - للأبد على ما يبدو - إلى إفريقيا، وراء وظيفة. تدربت لتكون عالمة كلاسيكيات، وأعيد تدريبها كمبشرة طبية، وترقت إلى مديرة مستشفى ليس صغيرا فى أرض الزولو(*) الريفية. منذ تدفقت المعونات إلى المنطقة، ركَّزتْ طاقات مستشفى مريم المباركة على الهضبة، هضبة ماريان، أكثر وأكثر على حالات الأطفال الذين يولدون معوقين. كتبت بلانش، منذ عامين، كتابا بعنوان 'الحياة للأمل 'عن العمل فى

(*) أرض الزولو أو زولولاند: منطقة فى شمال شرق جنوب إفريقيا، غالبية سكانها من الزولو، وتمتد على شاطئ المحيط الهندى، استولت عليها بريطانيا عام ١٨٨٧ . وينتمى الزولو(Zulu أو Zulus) إلى شعب البانتو .Bantu

www.ibtesama.com

هضبة ماريان. وعلى غير توقع راج الكتاب. وقامت بجولة لإلقاء محاضرات فى كندا والولايات المتحدة، ونشرت أعمال الجماعة، وحققت أموالا من ورائها؛ وظهرت فى النيوزويك. هكذا، وقد تخلت بلانش عن مسارها الأكاديمى من أجل حياة الكدح المبهم، اشتهرت فجأة، اشتهرت الآن حتى أنها حصلت على درجة فخرية من البلد التى تبنتها.

وبمناسبة هذه الدرجة، بمناسبة الاحتفال بتسليم الشهادة، أتت هى نفسها، إليزابيث كستلو، الأخت الأصغر لبلانش، أتت إلى أرض لا تعرفها ولم ترغب أبدا فى أن تعرفها معرفة خاصة، إلى هذه المدينة البشعة (لم تهبط فيها إلا منذ ساعات قليلة، ورأتها ممتدة بأطيان من الأرض الصخرية، وأنقاض المناجم المجدبة). إنها هنا، مرهقة حتى النخاع. ضاعت ساعات حياتها فى المرور على المحيط الهندى؛ بلا طائل حتى أنها تؤمن بأنها لن تستردها أبدا. لابد أن تأخذ غفوة، لتستعيد عافيتها ومزاجها قبل أن تقابل بلانش؛ لكنها متوترة، ومشتتة، وينتابها شعور مبهم باعتلال شديد. هل أصيبت بشىء على الطائرة؟ أن تسقط مريضة بين الغرباء: يا لها من تعاسة! تتمنى لو تكون مخطئة.

حجزوا للاثنتين فى الفندق نفسه، الأخت بريجيت كستلو ومسز إليزابيث كستلو. وحين تمت الترتيبات، سئلتا إن كانتا تفضلان غرفتين مفردتين أم جناحا مشتركا. قالت، غرفتين مفردتين؛ وخمنت أن بلانش ستقول مثلها. لم تكن وبلانش قريبتين قربا

www.ibtesama.com

حقيقيا أبدا؛ لا تأمل، وقد تجاوزتا الآن مجرد أنهما امرأتان فى سن معينة لتصبحا، صراحة، امرأتين عجوزين، أن يكون عليها أن تسمع صلوات بلانش قبل النوم أو ترى طراز الملابس الداخلية التى ترتديها الأخوات فى جماعة ماريان.

تفرغ حقيبتها، تشعر ببعض القلق، تفتح التليفزيون، تغلقه مرة أخرى. يغلبها النوم بشكل أو آخر، وسط هذا كله، تستلقى على ظهرها، بحذائها وملابسها. تستيقظ على التليفون. بدون إدراك تبحث عن السماعة. تفكر، **أين أنا؟ من أنا؟** يقول صوت: "إليزابيث؟ هل أنت إليزابيث؟"

تلتقيان فى بهو الفندق. اعتقدتْ أنه كان هناك تبسط فى لبس الأخوات. وإذا كان الأمر كذلك، فقد مرت ببلانش. ترتدى الخمار، وبلوزة بيضاء بسيطة، وجيبة رمادية تصل إلى منتصف السمانة، وحذاء أسود قصيرًا كان قضية محورية منذ عقود مضت. وجهها مغضن، وظهر يديها منقط بالبنى؛ باستثناء ذلك بقيت فى حالة جيدة. تفكر مع نفسها، من النساء اللائى يعشن حتى التسعين. 'عجفاء' الكلمة التى ترد إلى ذهنها على غير إرادتها: **عجفاء مثل دجاجة**. كما هو حال من تراها بلانش أمامها، كما هو حال الأخت التى بقيت فى العالم، لا تنشغل بذلك على الأرجح.

تتعانقان، وتطلبان شايا. تتبادلان حديثًا قصيرًا. بلانش خالةٌ، مع أنها لم تتصرف أبدا كخالة، عليها أن تسمع أخبارًا عن ابن الأخت وبنت الأخت، اللذين لم تقع عيناها عليهما إلا نادرًا واللذين ربما صارا

www.ibtesama.com

غريبين أيضا. حتى وهما تتحدثان، تتساءل إليزابيث: **هل هذا ما أتيتُ من أجله. هذه الكلمات الصادرة عن الشفتين، هذا التبادل لكلمات مجهدة، هذه الإيماءة إلى إحياء ماضٍ تلاشى تقريبا؟**

الألفة. التشابه الأسرى. سيدتان عجوزان فى مدينة أجنبية، تحتسيان الشاى، توارى كل منهما رعبها عن الأخرى. ثمة شىء قادر على أن يكون مؤثرًا، لا شك فى ذلك. قصة تتسلل بصورة مبهمة مثل فأر فى ركن. لكنها مرهقة جدا، هنا والآن، بدرجة لا تجعلها تقبض عليها وتدونها.

تقول بلانش: "فى التاسعة والنصف."

"ماذا؟"

"التاسعة والنصف. سيأخذوننا فى التاسعة والنصف. نلتقى هنا." تضع كوبها. "تبدين مرهقة، إليزابيث. خذى قسطا من النوم. لدىَّ كلمة أعدُّها. طلبوا منى أن ألقى كلمة. قداس لعشائى."

"كلمة؟"

"خطبة. سألقى خطبة غدًا، للمتخرجين. عليك أن تجلسى أثناءها، إننى خائفة."

II

جلست بين الضيوف الآخرين البارزين، فى الصف الأمامى. سنوات منذ آخر مرة حضرتْ فيها حفل تخرج. نهاية سنة أكاديمية: حرارة الصيف سيئة هنا فى إفريقيا كما فى وطنها.

www.ibtesama.com

يوجد، إذا كان لها أن تخمن من حشد الشباب الذين يرتدون الزى الأسود وراءها، حوالى مائتى درجة فى الإنسانيات سيتم توزيعها. لكن بلانش فى البداية، الوحيدة التى تمنح درجة فخرية. تُقدَّم للحضور. مرتدية رداءً قرمزيًا لدكتورة، مدرسة، تقف أمامهم، ويداها متشابكتان، بينما خطيب الجامعة يقرأ سجل إنجازات حياتها. ثم تؤخذ إلى مقعد المستشار. تثنى ركبة، ويتم تسليم الشهادة. تصفيق طويل. الأخت بريجيت كستلو، عروس المسيح ودكتورة فى الآداب، التى بحياتها وأعمالها أعادت البريق، للحظة، لاسم المبشر.

تأخذ مكانها على المنصة. حان موعد بريجيت، بلانش، لتقول كلمتها.

تقول: "المستشار، الأعضاء المحترمون فى الجامعة:

"تشرفوننى هنا فى هذا الصباح، وأتقبل هذا التشريف بامتنان، لا أقبله لمصلحتى ولكن لمصلحة تلك الأعداد الكبيرة من الناس الذين كرسوا على مدى نصف القرن الأخير جهودهم وحبهم لأطفال هضبة ماريان ولرينا من خلال هؤلاء البسطاء.

"والشكل الذى اخترتموه لتشريفنا هو الشكل الذى تستريحون له أكثر من غيره، منح درجة أكاديمية، خاصة ما تسمونه دكتوراه فى **الآداب الإنسانية** (*) الآداب الإنسانية، أو، بشكل فضفاض أكثر، الإنسانيات. أود أن أنتهز هذه الفرصة، معرضةً

(*) باللاتينية فى الأصل.

www.ibtesama.com

لخطر أن أحدثكم عن أشياء تعرفونها أفضل منى، لأقول شيئا عن الإنسانيات، عن تاريخها ووضعها الحالى؛ وشيئا أيضا عن الإنسانية. ما علىَّ أن أقوله قد يكون مرتبطا، على ما آمل بتواضع، بالوضع الذى تجدون أنفسكم فيه كخدم للإنسانيات، فى إفريقيا وفى العالم الأوسع أيضا، أقصد الوضع المحصَّن.

"لابد أحيانا أن نكون وحشيين لنكون عطوفين، لذا دعونى أبدأ بتذكيركم بأن الجامعة لم تكن هى التى ابتكرت ما نسميه اليوم بالإنسانيات، أو، لنكون أكثر دقة من الناحية التاريخية، ما سوف أدعوها من الآن الدراسات الإنسانية [1] أو الدراسات الإنسانية، دراسات فى الإنسان وطبيعة الإنسان، تمييزًا لها عن الدراسات الإلهية [2] الدراسات المخصصة للإلهى. لم تبتكر الجامعة الدراسات الإنسانية، ولم تقدم الجامعة للدراسات الإنسانية، حين قبلتها فى النهاية فى نطاقها الأكاديمى، بيتا لتنشئتها بشكل خاص. على العكس، لم تحتضن الجامعة الدراسات الإنسانية إلا بشكل مجدب وعلى نطاق ضيق. وتمثَّلَ هذا الشكل الضيق فى المناهج النصية؛ يرتبط تاريخ الدراسات الإنسانية فى الجامعة من القرن الخامس عشر حتى الآن ارتباطًا شديدًا بالمناهج النصية التى ربما يقال عنها أيضا الكلام نفسه.

"حيث إن الصباح ليس مخصصًا كله لى (طلب عميدكم منى أن أكتفى بخمس عشرة دقيقة على

(١) باللاتينية فى الأصل.

(٢) باللاتينية فى الأصل.

www.ibtesama.com

الأكثر - "لى الأكثر" هذه كلماته)، فسوف أقول ما أريد بدون التفكير خطوةً خطوة وبدون تقديم دليل تاريخى، أنتم، كمجموعة من الدارسين والعلماء، مؤهلون له.

"أود أن أقول، إذا كان هناك مزيد من الوقت، كان المنهج النصى النفَس الذى يبث الحياة فى الدراسات الإنسانية بينما كانت الدراسات الإنسانية ما يمكن أن نسميه بحقٍّ حركة فى التاريخ، أعنى الحركة الإنسانية. لكن الأمر لم يستغرق وقتًا طويلاً حتى تبدد النفس الذى يبث الحياة فى المنهج النصى. وكانت قصة المنهج النصى منذ ذلك الوقت قصة جهد متواصل لإنعاش تلك الحياة، بلا جدوى.

"وكان النص الذى ابتُكِر المنهج النصى من أجله هو الكتاب المقدس. وقد رأى الأكاديميون النصيون أنفسهم خَدَمًا فى استعادة الرسالة الحقيقية للكتاب المقدس، وخاصة تعاليم يسوع. وكانت الصورة التى وظفوها لوصف أعمالهم صورة البعث أو الإحياء. وكان على قارئ العهد الجديد أن يواجه، وجها لوجه للمرة الأولى، المسيحَ القائم من بين الأموات، **النهضة المسيحية**(*) ولم تعد محجوبة بالتفسير والتعليق الأكاديميين. وقد علم الأكاديميون أنفسهم، وهذه الغاية فى أذهانهم، اليونانية أولا، ثم العبرية، ثم (بعد ذلك) لغات أخرى من الشرق الأدنى. وكان المنهج النصى يعنى، أولا، استعادة النص الحقيقى، والترجمة الحقيقية لذلك النص؛ وتبين أن الترجمة الحقيقية لا تنفصل عن الفهم الحقيقى للأرضية الثقافية

(*) باللاتينية فى الأصل.

www.ibtesama.com

والتاريخية الذى انبثق منها النص. وهكذا التحمت الدراسات اللغوية والدراسات الأدبية (كدراسات فى التفسير) والدراسات الثقافية والدراسات التاريخية ـ الدراسات التى تشكِّل جوهر ما يسمى بالإنسانيات.

"لماذا، يمكن أن تسألوا بشكل مشروع، أسمى هذه الكوكبة من الدراسات المكرسة لاستعادة الكلمة الحقيقية، كلمة الرب، بالدراسات الإنسانية [١] ويكون طرح هذا السؤال، كما يتضح، مشابها تماما لطرح السؤال: لماذا لم تزدهر **الدراسات الإنسانية** [٢] إلا فى القرن الخامس عشر من نظامنا الدينى وليس قبل ذلك بمئات السنين؟

"ترتبط الإجابة ارتباطًا قويًا بحادث تاريخى: بتدهور القسطنطينية وسقوطها فى النهاية وهروب البيزنطيين المتعلمين إلى إيطاليا. (مراعية قاعدة الدقائق الخمس عشرة التى وضعها عميدكم، أمر على الوجود الحى لأرسطو وجالينوس والفلاسفة اليونانيين الآخرين فى المسيحية الغربية فى العصور الوسطى، ودور إسبانيا العربية فى نقل تعاليمهم.)

"**أخشى الإغريق حتى لو أتوا بهدايا** [٣] لم تكن الهبات التى أتى بها الرجال القادمون من الشرق تقتصر على قواعد اللغة اليونانية لكنها كانت نصوصًا لمؤلفين من العصور اليونانية القديمة. ولم يكن من الممكن أن تكتمل السلطة اللغوية التى كانت تتجه النية

(١) باللاتينية فى الأصل.
(٢) باللاتينية فى الأصل.
(٣) باللاتينية فى الأصل.

www.ibtesama.com

إلى تطبيقها على العهد الجديد اليونانى بمجرد أن ينغمس المرء فى هذه النصوص المغرية التى تعود إلى ما قبل المسيحية. وعلى الفور، كما يمكن للمرء أن يتوقع، صارت دراسة هذه النصوص، التى عرفت فيما بعد بالكلاسيكيات، غاية فى ذاتها.

"وأكثر من هذا: لم تُبرَّرْ دراسةُ نصوص العصور القديمة على أسس لغوية فقط ولكنها بُرِّرَتْ على أسس فلسفية أيضا. بُعِث يسوع ليخلص الجنس البشرى، مضت الحُجَّة. ليخلص الجنس البشرى من ماذا؟ من حالة عدم الخلاص، بالطبع. لكن ماذا نعرف عن الجنس البشرى فى حالة عدم الخلاص؟ السجل الجوهرى الوحيد الذى يغطى كل أوجه الحياة هو سجل العصور القديمة. وحتى نفهم الغاية من التجسيد- أى نفهم معنى الخلاص- لابد أن نتسلق **الدراسات الإنسانية** (*) عبر الكلاسيكيات.

"وهكذا، فى التعليق الموجز والفج الذى أقدمه، هل قامت أبدا علاقة تزاوج بين منهج دراسة الكتاب المقدس والدراسات فى العصور اليونانية والرومانية القديمة بدون خصومة، ومن ثم جاء المنهج النصى والعلوم المرتبطة به لتوضع تحت عنوان 'الإنسانيات.'

"الكثير للتاريخ. الكثير لما يجعلكم، بتنوعكم وعدم تجانسكم كما قد تشعرون بينكم وبين أنفسكم، تجدون أنفسكم محتشدين هذا الصباح تحت سقف واحد

(*) باللاتينية فى الأصل.

www.ibtesama.com

كخريجين فى الإنسانيات. والآن أخبركم، فى الدقائق القليلة المتبقية، بما لا يجعلنى بينكم، وليس لدى رسالة مريحة أقدمها لكم، برغم كرم إيماءتكم نحوى.

"الرسالة التى آتى بها هى أنكم ضللتُم طريقكم منذ زمن بعيد، ربما منذ خمسة قرون. حفنة الرجال الذين تأسست بينهم الحركة التى تمثلونها، أخشى، الحاشية الحزينة- كان أولئك الرجال مدفوعين، على الأقل فى البداية، بالرغبة فى العثور على الكلمة الحقيقية، الذين فهموا بها وأفهم أنا بها الآن، الكلمة المُخَلِّصة.

"لا يمكن العثور على هذه الكلمة فى الكلاسيكيات، سواء كانت الكلاسيكيات تعنى هوميروس وسوفوكليس أو تعنى هوميروس وشكسبير ودويستوفسكى. كان من المحتمل فى عصر أسعد من عصرنا أن يخدع الناس أنفسهم بالإيمان بأن كلاسيكيات العصور القديمة قدمت تعليمًا وأسلوبًا للحياة. استقر بنا الأمر فى عصرنا، بشكل مفرط إلى حد ما، على ادعاء أن الكلاسيكيات فى ذاتها ربما تقدم أسلوبًا للحياة، وإن لم يكن أسلوبًا للحياة فعلى الأقل أسلوبًا لكسب العيش الذى، إن لم يثبت أنه يقدم خيرًا، فعلى الأقل لا يُدَّعى إنه يسبب ضررًا.

"لكن دافع الجيل الأول من الأكاديميين النصيين لا يمكن أن يتحول بهذه السهولة عن غايته الحقيقية. أنا بنت الكنيسة الكاثوليكية، لا بنت الكنيسة

www.ibtesama.com

الإصلاحية، لكننى أحيى مارتن لوثر حين يدير ظهره إلى ديسيديروس إرازموس [1] مقررا أن زميله، برغم مواهبه الهائلة، أغوته فروع الدراسة التى لا تهتم، بالمعايير النهائية. وقد استغرقت **الدراسات الإنسانية**[2] وقتًا طويلاً لتموت، لكنها الآن، فى نهاية الألف الثانية من عصرنا، على سرير الموت بالفعل. وما هو أكثر مرارة أن ذلك الموت، كما يمكن أن أقول، منذ جلبه الوحش الذى توَّجَتْه على العرش تلك الدراسات الحقيقية فى البداية والقاعدة الحية للكون: وحش العقل، العقل الميكانيكى. لكن هذه قصة أخرى ليوم آخر."

III

تلك هى النهاية، نهاية خطاب بلانش، الذى نال من التصفيق أقل مما يبدو أنه لغط ارتباك عام فى الصف الأمامى من المقاعد. تُستأنَف أعمال اليوم: يُستدعَى الخريجون الجدد واحدًا بعد الآخر لاستلام شهاداتهم؛ وينتهى الاحتفال بموكب رسمى تمثل بلانش، فى عباءتها الحمراء، جزءًا منه. وتصبح هى، إليزابيث، حرة لبعض الوقت فى التجول بين الضيوف المتناثرين وتستمع لحديثهم.

---

(١) ديسيديروس إرازموس Desiderius Erasmus (١٤٦٦ ـ ١٥٣٦) عالم ولاهوتى من عصر النهضة، سعى لإحياء النصوص الكلاسيكية التى ترجع للعصور القديمة، ومن أعماله "كتيب الفارس المسيحى" (١٥٠٣) **مديح الحماقة**"(١٥٠٩) يعتبر من أبرز وجوه الحركة الإنسانية فى عصره.

(٢) باللاتينية فى الأصل.

www.ibtesama.com

يتضح أن الحديث يدور أساسًا حول طول الاحتفال بشكل غير مألوف. ولا تسمع ذكرًا خاصًا لخطاب بلانش إلا فى البهو. يتحدث، بحماس، رجل طويل، يضع عباءة أنيقة من الجلد على ذراعه، إلى امرأة تلبس ملابس سوداء. يقول: "تظن نفسها مَنْ لتنتهز المناسبة وتلقى علينا محاضرة! مبشرة من حمقى أرض الزولو- ماذا تعرف عن الإنسانيات؟ وهذا الخط الكاثوليكى الصارم- ماذا حدث لحركة التوحيد(*).

إنها ضيفة ـ ضيفة على جامعة، ضيفة على أختها، ضيفة فى البلاد أيضا. إذا أراد هؤلاء الناس التعبير عن استيائهم، فهذا من حقهم. ليس لها أن تتدخل. لتَخُضْ بلانش معاركها بنفسها.

لكن يتضح أن عدم التدخل ليس بهذه السهولة. ثمة غداء رسمى فى البرنامج، وقد دُعِيَتْ إليه. حين تجلس فى مقعدها، تجد نفسها بجوار الرجل الطويل نفسه، الذى تخلى أثناء ذلك عن زيه الذى يعود للعصور الوسطى. تفقد شهيتها، ثمة إحساس ببعض التوعك فى معدتها، تفضل لو تكون فى غرفتها بالفندق، مستلقية، لكنها تبذل مجهودا. تقول: أقدم لك نفسى، أنا إليزابيث كستلو. الأخت بريجيت أختى. أقصد أختى بالدم."

إليزابيث كستلو. يمكن أن ترى أن الاسم لا يعنى شيئا بالنسبة له. اسمه على بطاقة المكان أمامه: بروفيسور بيتر جودوين.

(*) حركة التوحيد ecumenicism حركة تشجع الوحدة بين الكنائس أو الطوائف المسيحية.

www.ibtesama.com

تواصل لتقيم محادثة: "أظن أنك تدرِّس هنا. ماذا تدرِّس؟"

"أدرِّس الأدب، الأدب الإنجليزى."

"لابد أن ما قالتْه أختى أثر فيك بعمق. حسنا، لا تبالِ بها. ليست إلا امرأة مشاكسة، هذا كل ما فى الأمر. تريد معركة عنيفة."

تجلس بلانش، الأخت بريجيت، المرأة المشاكسة، فى الطرف الآخر من المائدة، مستغرقة فى محادثة تخصها. لا تسمعهما.

يرد جودوين: "هذا عصر علمانى. لا يمكن أن نعيد الساعة إلى الوراء. لا يمكن أن تدينى مؤسسة لأنها تساير العصر."

"بالمؤسسة تقصد الجامعة؟"

"نعم، الجامعات، وخاصة كليات الإنسانيات، التى تبقى جوهر أى جامعة."

الإنسانيات جوهر الجامعة. ربما تكون من الخارج، لكنها لو طُلِب منها أن تذكر جوهر الجامعة اليوم، الفرع الذى يمثل جوهرها، لقالتْ صناعة المال. هكذا تبدو من ملبورن فى فيكتوريا؛ ولن تندهش إذا كان هذا هو الحال نفسه فى جوهانسبرج فى جنوب إفريقيا.

"لكن هل هذا ما قالته أختى حقا: عليك أن تعيد الساعة إلى الوراء؟ ألم تقل شيئا أكثر أهمية، وأكثر تحديًا- كان هناك تصور خطأ فى الإنسانيات منذ البداية؟ خطأ فى وضع أمنيات وتوقعات على

www.ibtesama.com

الإنسانيات لا يمكن أن تفى بها أبدا. لا أتفق معها بالضرورة؛ لكن هذا ما فهمتُ أنها تناقشه."

يقول البروفيسور جودوين: "الدراسة الحقيقية للجنس البشرى هى الإنسان. وطبيعة الجنس البشرى طبيعة ساقطة. حتى أختك يمكن أن تتفق مع ذلك. لكن لا يجب أن يمنعنا ذلك من المحاولة- محاولة التحسين. تريد أختك أن نتخلى عن الإنسان ونعود إلى الرب. هذا ما أقصده بالإشارة إلى عودة الساعة إلى الوراء. تريد العودة إلى ما قبل عصر النهضة، قبل الحركة الإنسانية التى تحدثت عنها، ربما حتى قبل التنوير النسبى فى القرن الثانى عشر. تريد العودة للانغماس فى الجبرية المسيحية التى ترجع إلى ما أسميه العصور الوسطى المنحطة."

"أتردد فى أن أقول، وأنا أعرف أختى، إن هناك جبرية فى تفكيرها. لكن عليك أن تكلمها بنفسك، وتقدم لها ملاحظتك."

ينهمك البروفيسور جودوين فى سَلَطته. صمتٌ. من الناحية الأخرى للمائدة تبتسم لها المرأة التى ترتدى الملابس السوداء؛ تدرك أنها زوجة جودوين. تقول: "سمعتُك تقولين إن اسمك إليزابيث كستلو؟ ألستِ الكاتبة إليزابيث كستلو؟"

"أجل، هذا ما أفعله لكسب عيشى. أكتب."

"وأنت أخت الأخت بريجيت."

"نعم. لكن الأخت بريجيت لها أخوات كثيرات،

www.ibtesama.com

وأنا مجرد أخت فى الدم. الأخريات أخوات أكثر أصالة، أخوات فى الروح."

تقصد الملاحظة باستخفاف، لكن يبدو أنها تثير مسز جودوين. ربما ذلك ما يجعل بلانش تثير غضب الناس هنا: تستخدم كلمات مثل روح ورب بطريقة غير مناسبة، فى غير مواضعها. حسن، ليست مؤمنة، لكنها تعتقد أنها تقف مع بلانش فى هذه الحالة.

تتحدث مسز جودوين إلى زوجها، ترمقه بنظرات. تقول: "إليزابيث كستلو الكاتبة، يا عزيزى."

يقول البروفيسور جودوين: "أوه نعم"؛ لكن من الواضح أن الاسم بلا صدى.

تقول مسز جودوين: "زوجى فى القرن الثامن عشر."

"آه نعم. مكان مناسب. عصر العقل."

يقول البروفيسور جودوين: "لا أعتقد أننا نرى الفترة بطريقة غير معقدة تماما فى هذه الأيام." يبدو أنه على وشك أن يقول المزيد، لكنه لا يفعل.

من الواضح أن المحادثة مع جودوين واهية. تتحول إلى الشخص الذى على يمينها، لكنه كان منهمكا بعمق فى مكان آخر.

تقول، متجهة مرة أخرى إلى جودوين: "حين كنتُ طالبة، وكان ذلك سنة ١٩٥٠ تقريبا، قرأنا الكثير من كتابات د.هـ. لورانس. بالطبع قرأنا الكلاسيكيات أيضا، لكن لم يكن هذا هو الموضع الذى ذهبت إليه طاقتنا الحقيقية. د.هـ. لورانس، ت. س. إليوت–

www.ibtesama.com

هذان هما الكاتبان اللذين انكببنا عليهما. وربما بليك من القرن الثامن عشر. وربما شكسبير، لأن شكسبير كما نعرف جميعا يتجاوز زمنه. استولى علينا لورانس لأنه وعد بشكل من الخلاص. قال لنا، إذا عبدنا آلهة الظلام، وأدينا شعائرها، فسوف نُنقَذ. صدَّقْناه. خرجنا وعبدنا آلهة الظلام بأفضل ما نستطيع، نتيجة التلميحات التى ألمح إليها مستر لورانس. حسنا، لم ينقذنا معبودنا. نبى زائف. هكذا يمكن أن أصفه الآن، بأثر رجعى.

"ما أقصد أن أقوله إننا، كطلاب، فى أصدق قراءاتنا، فتَّشْنا الصفحة عن مرشد، مرشد فى الحيرة. وجدناه فى لورانس، أو وجدناه فى إليوت، إليوت فى كتاباته المبكرة: ربما وجدنا نوعا مختلفا من الإرشاد، لكنه رغم ذلك إرشاد عن الطريقة التى نعيش بها حياتنا. كانت بقية قراءاتنا، بالمقارنة، مجرد أشياء ساذجة نقرؤها لمجرد أن نجتاز الامتحانات.

"إذا أرادت الإنسانيات البقاء على قيد الحياة، فمن المؤكد أنها لابد أن تستجيب لتلك الطاقات ولهذا التوقِ إلى الإرشاد: توقٍ هو فى النهاية بحث عن الخلاص."

تكلمت كثيرا، أكثر مما كانت تنوى. ترى، فى الصمت الذى يخيم الآن، أن الآخرين كانوا ينصتون. حتى أختها تلتفت إليها.

يقول العميد، من على رأس المائدة، بصوت مرتفع: "لم ندرك حين طلبتِ منا الأخت بريجيت أن ندعوك لهذا الحدث السعيد، أن إليزابيث كستلو هى التى ستكون بيننا. أهلا. نحن سعداء بوجودك معنا."

www.ibtesama.com

تقول: "أشكرك."

يواصل العميد: "لم أستطع الاستماع إلى بعض ما كنت تقولين. هل تتفقين إذًا مع أختك أن مستقبل الإنسانيات مظلم؟"

لابد أن تخطو بحذر. تقول: "كل ما كنتُ أقوله إن قرَّاءنا - وخاصة قراءنا الشباب - يأتون إلينا بجوع معين، وإذا كنا لا نستطيع أو لن نستطيع إشباع جوعهم، فلا يجب أن نندهش إذا انصرفوا عنا. لكننى أنا وأختى نعمل على خطين مختلفين. قالتْ لكم ما تعتقده. وبالنسبة لى، يمكن أن أقول: يكفى الكتب أن تعلِّمنا ما يتعلق بأنفسنا. على كل القرَّاء أن يقنعوا بذلك. أو كل القراء تقريبا."

يتطلعون إلى أختها ليروا تفاعلها. تعليمنا ما يتعلق بأنفسنا: هل يمكن أن تكون **الدراسة الإنسانية**(*) غير ذلك؟

تقول الأخت بريجيت: "هل هذه محادثة على غداء أمْ أننا جادون؟"

يقول العميد: "إننا جادون. نحن جادون."

ربما عليها أن تراجع رأيها فيه. ربما ليس مجرد بيروقراطى أكاديمى آخر يتحرك حركة ضيافة، لكنه روح بكل ما فى الروح من جوع. نسلِّم بهذا الاحتمال. فى الحقيقة، ربما كان هذا حال كل من هم حول المائدة، فى وجودهم الأعمق: أرواح جائعة. لا يجب أن تندفع فى إصدار حكم. إذا لم يكونوا شيئا آخر، هؤلاء الناس ليسوا أغبياء. ولابد أنهم أدركوا من الآن أن

(١) باللاتينية فى الأصل.

www.ibtesama.com

لديهم بالأخت بريجيت، سواء أحبوا ذلك أم لا، شخصا استثنائيا.

تقول أختها: "لستُ فى حاجة لمراجعة الروايات، لأعرف ما يستطيع البشر ارتكابه من الحقارة والدناءة والوحشية. من هنا نبدأ، جميعا. نحن كائنات ساقطة. إذا كانت دراسة الجنس البشرى لا تصل إلى أكثر من أن تصور لنا قدرتنا الأكثر ظلمة، فهناك ما هو أفضل لقضاء وقتى. وإذا كانت دراسة الجنس البشرى من ناحية أخرى هى دراسة ما يمكن أن يكون عليه الإنسان المتجدد، فهذه حكاية أخرى. ومع ذلك، كان لديكم اليوم ما يكفى من محاضرات."

يقول الشاب الجالس بجوار مسز جودوين: "لكن، من المؤكد أن هذا بدقة ما ناضلتْ من أجله النزعة الإنسانية [١] والنهضة أيضا: لأن الجنس البشرى كجنس بشرى قادر على الوجود. من أجل ارتقاء الإنسان. لم يكن ذوو النزعة الإنسانية ملحدين فى السر. لم يكونوا حتى لوثاريين[٢] متنكرين. كانوا مسيحيين كاثوليك مثلك أيتها الأخت. فكِّرى فى لورينزو فالا[٣] .لم يقم فالا بشىء ضد الكنيسة، كان فقط يعرف اليونانية أفضل من جيروم [٤] وأشار إلى

(١) النزعة الإنسانية humanism : حركة ثقافية وفكرية فى عصر النهضة ركزت على الاهتمامات العلمانية نتيجة لإعادة اكتشاف الأدب والفن فى الحضارتين الإغريقية والرومانية.

(٢) نسبة إلى مارتن لوثر.

(٣) لورينز فالا Valla(١٤٠٦ ـ ١٤٥٧) إنسانى وخطيب ومعلم إيطالى.

(٤) جيروم (٣٤٠ ـ ٤٢٠) مترجم الكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية. ترجم العهد القديم عن العبرية، والعهد الجديد عن اليونانية.

www.ibtesama.com

بعض الأخطاء التى ارتكبها جيروم فى ترجمة العهد الجديد. لو قَبِلتْ الكنيسة أن الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس إنتاج إنسانى، ومن ثم قابل للتحسين، بدل أن تكون كلمة الرب نفسها، ربما اختلف تاريخ الغرب كله."

بلانش صامتة. يؤكد المتحدث.

"لو استطاعت الكنيسة ككل أن تعترف بأن تعاليمها ونظام معتقداتها كله يعتمد على النصوص، وأن تلك النصوص عرضة من ناحية لأخطاء النسخ وهلم جرا، ومن الناحية الأخرى لعيوب الترجمة، لأن الترجمة عمل ناقص دائما، ولو استطاعت الكنيسة أيضا استنتاج أن تفسير النصوص عملية معقدة، معقدة إلى حد بعيد، بدلا من أن تدَّعى لنفسها احتكار التفسير، لما كنا نثير هذا النقاش اليوم."

يقول العميد: "لكن، كيف كان لنا أن نعرف مدى صعوبة عملية التفسير إلا بخبرة دروس معينة من التاريخ، دروس كان من الصعب أن تتنبأ بها الكنيسة فى القرن الخامس عشر؟"

"مثل؟"

"مثل الاحتكاك بمئات الثقافات الأخرى، ولكل منها لغتها وتاريخها وأساطيرها وطريقتها الفريدة فى رؤية العالم."

يقول الشاب: "وتكون قضيتى أن الإنسانيات والإنسانيات وحدها، والتدريب الذى تقدمه الإنسانيات، ما سيجعلنا نسلك طريقنا فى هذا العالم

www.ibtesama.com

الجديد متعدد الثقافات، بدقة، بدقة"- ازداد حماسه حتى أنه يكاد يطرق المائدة- "لأن الإنسانيات تتناول القراءة والتفسير. تبدأ الإنسانيات، كما قالت محاضِرتُنا، بالمنهج النصى، وتتطور كمجموعة من الفروع العلمية المكرسة للتفسير."

يقول العميد: "فى الحقيقة، العلوم الإنسانية."

يتجهم الشاب. "هذا خروج على القضية الأساسية، سيدى العميد. إذا كنتَ لا تبالى، فسأبقى مع **دراسات** [1] أو فروع علمية."

تفكر، صغير جدا وواثق من نفسه جدا. سوف يبقى على دراسات [2].

تقول أختها: "وماذا عن وينكلمان[3] .

وينكلمان؟ يتطلع الشاب إليها بعدم فَهْمٍ.

"هل تعرَّف وينكلمان على نفسه فى الصورة التى ترسمينها للإنسانى كتقنىٍّ فى التفسير النصى؟"

"لا أعرف. كان وينكلمان أكاديميا عظيما. ربما تَعرَّفَ."

تتابع أختُها: "أو شِلينج [4] أو أى واحد من الذين آمنوا، علانية إلى حد ما، بأن اليونان قدمت مثالا حضاريا أفضل مما قدمته المسيحية اليهودية. أو الذين آمنوا، فيما يتعلق بتلك المسألة، بأن الجنس

---

(١) باللاتينية فى الأصل.

(٢) باللاتينية فى الأصل.

(٣) وينكلمان (١٧١٧ ـ ١٧٦٨) أثرى ومؤرخ للفن، ألمانى.

(٤) شلينج (١٧٧٥ ـ ١٨٥٤) فيلسوف ألمانى.

www.ibtesama.com

البشرى ضل طريقه وعليه أن يعود إلى جذوره البدائية ويبدأ من جديد. بتعبير آخر، الأنثروبولوجيون. كان لورينزو فالا- حيث إنك تذكر لورينزو فالا- أنثروبولوجيًا. وكان المجتمع الإنسانى نقطة بدايته. تقول إن الإنسانيين الأوائل لم يكونوا ملحدين فى السر. أجل، لم يكونوا. لكنهم كانوا نسبيين فى السر. كان يسوع، فى عيونهم، مجسدا فى عالمه، أو كما يمكن أن نقول اليوم فى ثقافته. وكانت غايتهم كأكاديميين أن يفهموا العالم ويفسروه لعصورهم. مثلما تصبح غايتهم فى الوقت المناسب تفسير عالم هوميروس. وهكذا وصولا إلى وينكلمان."

تنهى حديثها فجأة، وتحدق فى العميد. ربما أعطاها إشارة؟ هل نقر، بطريقة لا تصدق، من تحت المائدة، ركبة الأخت بريجيت؟

يقول العميد: "أجل، رائع. كان يجب أن ندعوك لسلسلة كاملة من المحاضرات، أيتها الأخت. لكن لسوء الحظ، لدى بعضنا ارتباطات. ربما فى وقت ما فى المستقبل..." يترك الاحتمالية معلقة فى الهواء؛ تحنى الأخت بريجيت رأسها بلطف.

IV

إنهما مرة أخرى فى الفندق. إنها مرهقة، لابد أن تأخذ شيئا لغثيانها المستمر، لابد أن تستلقى. لكن السؤال لا يزال يزنُّ فى رأسها: لماذا هذه العدوانية من بلانش تجاه الإنسانيات؟ قالت بلانش لا أحتاج إلى استشارة الروايات. هل العدوانية، بطريقة معقدة،

www.ibtesama.com

موجهة إليها؟ مع أنها أرسلت كتبها بدأب شديد إلى بلانش بمجرد خروجها من المطبعة، لا يمكن أن ترى علامة تشير إلى أن بلانش قرأت كتابًا منها. هل استُدْعَتْ إلى أفريقيا كممثلة للإنسانيات، أو للرواية، أو لكليهما، لتتلقى درسا أخيرا قبل أن تنزل الاثنتان إلى القبر؟ هل تراها بلانش حقا على هذا النحو؟ إنها- وعليها أن تستغرب ذلك من بلانش- لم تكن منبهرة أبدا بالإنسانيات. ثمة شيء ذكورى برضا شديد فى المشروع كله، أنانى بشدة. لابد أن تواجه بلانش مباشرة.

تقول لبلانش: "وينكلمان. ماذا كنت تقصدين باستدعاء وينكلمان؟"

"أردتُ أن أذكِّرهم بما يمكن أن تؤدى إليه دراسة الكلاسيكيات. إلى الهيلينية(*) كدين بديل. بديل للمسيحية."

"هذا ما ظننتُ. كبديل لبعض الجماليين، بعض المنتجات عالية الثقافة فى النظام التعليمى الأوروبى. لكن بالتأكيد ليس كبديل شعبى."

"تخطئين فى فهم قصدى، إليزابيث. كانت الهيلينية بديلا. ربما كما كانت اليونان تعيسة، كانت بديلا للرؤية المسيحية التى استطاعت النزعة الإنسانية تقديمها. كانوا فى المجتمع اليونانى- صورة مثالية بمعنى الكلمة للمجتمع اليونانى، لكن كيف كان للجموع العادية أن تعرف ذلك؟- يستطيعون أن يشيروا

(*) الهيلينية Hellenism : حضارة الإغريق القدماء وثقافتهم.

www.ibtesama.com

ويقولوا: انظر، هكذا يجب أن نعيش. ليس فيما بعد لكن هنا والآن."

اليونان: رجال شبه عراة، صدروهم تلمع بزيت الزيتون، يجلسون على دَرَج المعبد يتحدثون عن الخير والحقيقة، بينما فى الخلفية يتصارع أولاد ناعمو الأطراف وقطيع من الماعز يرعى بهدوء. عقول حرة فى أجسام حرة. صورة أكثر من مثالية: حلم، خرافة. لكن كيف يمكن أن نحيا بدون أحلام؟

تقول: "لا أختلف. لكن من عاد يؤمن بالهيلينية؟ من يتذكر حتى الكلمة؟"

"لا تزالين تخطئين فى فهم قصدى. كانت الهيلينية الرؤية الوحيدة التى استطاعت النزعة الإنسانية تقديمها. حين سقطت الهيلينية- وكان أمرًا حتميًا، حيث لا شىء مهما يكن يقنع حياة شعب حقيقى- أفلست النزعة الإنسانية. كان الرجل على الغداء يرى الإنسانيات مجموعة من التقنيات، العلوم الإنسانية. جافة كالرماد. ماذا يريد شاب أو شابة فى عروقهما دم من قضاء حياتيهما فى النكش فى السجلات أو وضع تفسيرات لنص بلا نهاية؟"

"لكن الهيلينية كانت، بالتأكيد، مجرد مرحلة فى تاريخ الإنسانيات. وقد ظهرت منذ ذلك الوقت رؤى أوسع وأشمل لما يمكن أن تكون عليه حياة الإنسان. المجتمع اللاطبقى، على سبيل المثال. أو عالَم يُستأصَل منه الفقر والمرض والأمية والعنصرية، والتمييز الجنسى، ورهاب المثلية الجنسية، ورهاب الأجانب. وبقية الابتهالات السيئة. لا أقدم ذريعة لأى

www.ibtesama.com

من تلك الرؤى. إننى أوضح فقط أن الناس لا يمكن أن يعيشوا بدون أمل، أو ربما بدون أوهام. إذا التفتِ إلى أى من أولئك الناس الذين تناولنا الغداء معهم وسألتهم، كإنسانيين أو على الأقل يحملون بطاقات تقول إنهم يعملون فى الإنسانيات، أن يذكروا الغاية من جهودهم، فمن المؤكد أنهم سيردون بأنهم، مهما يكن التواء الإجابة، يكافحون لتحسين وضع الجنس البشرى."

"أجل. من وقتها يكتشفون أنفسهم كتابعين حقيقيين لأسلافهم الإنسانيين، الذين زودوا الرؤية العلمانية بالخلاص. بعث بدون تدخل المسيح. بأعمال الإنسان وحده. النهضة. على نموذج الإغريق. على نموذج الهنود الأمريكان. أو على نموذج الزولو. حسنا، لا يمكن أن يحدث ذلك."

"تقولين لا يمكن أن يحدث ذلك. لأن الإغريق- مع أن لا أحد منهم كان يدركه- كانوا ملعونين، وكان الهنود ملعونين، وكان الزولو ملعونين."

"لم أذكر شيئا عن اللعنة. لم أتحدث إلا عن التاريخ، عن تدوين المشروع الإنسانى. لا يمكن أن يحدث ذلك. **لا خلاص خارج الكنيسة** (*) "

تهز رأسها. تقول: "بلانش، بلانش، بلانش. "من كان يعتقد أنك ستنتهين متشددة على هذا النحو."

تبتسم لها بلانش ابتسامة باردة. يبرق الضوء على نظارتها.

(*) باللاتينية فى الأصل.

www.ibtesama.com

V

السبت، آخر يوم كامل لها فى إفريقيا. تقضيه على هضبة ماريان. هضبة ماريان، المحطة التى جعلتها أختها شغل حياتها وبيتها. ستسافر غدا إلى دربان (*) ومن دربان تطير إلى بومباى ومن هناك إلى ملبورن. هذا ما سيكون. تفكر: **لن نرى بعضا مرة أخرى، بلانش وأنا، ليس فى هذه الحياة.**

جاءت من أجل حفل تخرج، لكن المستشفى كانت ما تريد بلانش حقا أن تريها، ما يكمن خلف الدعوة. تعرف ذلك، إلا أنها تقاوم. شىء لا تريده. ليست على استعداد لذلك. رأتها كلها فى التليفزيون، كثيرا جدا، حتى أنها لم تعد تحتمل أن تنظر إليها أكثر من ذلك: الأطراف الهزيلة، البطون المنتفخة، والعيون عظيمة التأثير لأطفال ضامرين، لا يجدى معهم علاج أو رعاية. تتوسل فى أعماقها **خذى هذه الكأس منى! إننى عجوز بشكل لا يجعلنى أحتمل هذه المشاهد، عجوز وضعيفة. سوف أصرخ فقط.**

لكنها فى هذه الحالة لا تستطيع أن ترفض، لا يمكن حين تكون أختها. تبرهن، عموما، إنها ليست سيئة، ليست سيئة بدرجة تجعلها تقطع العلاقة معها. هيئة التمريض لا عيب فيها، والأجهزة جديدة- من التبرعات التى جمعتها الأخت بريجيت- والمناخ يغمره الاسترخاء، وربما حتى السعادة. فى العنابر، المكتظة

(*) دربان: مدينة تقع شرق جنوب إفريقيا على خليج دربان، مدخل المحيط الهندى.

www.ibtesama.com

بالعاملين، نساء فى الملابس الوطنية. تعتبرهن أمهات أو جدات حتى تشرح بلانش، تقول، إنهن معالجات، معالجات شعبيات. ثم تتذكر: هذا ما تشتهر به هضبة ماريان، هذا هو الابتكار العظيم الذى ابتكرته بلانش، أن تفتح المستشفى للناس، أن يكون بها أطباء محليون يعملون بجوار أطباء يمارسون الطب الغربى.

وبالنسبة للأطفال، ربما وارت بلانش أسوأ الحالات عن الأنظار، لكنها مندهشة من حالة البهجة التى تبدو حتى على الأطفال المحتضرين. الوضع كما قالت بلانش فى كتابها: بالحب والعناية والعقاقير المناسبة، يمكن أن يجتاز هؤلاء الأبرياء بوابة الموت بلا خوف.

تأخذها بلانش إلى كنيسة المستشفى أيضا. تُصدَم فورا، وهى تدخل مبنى متواضع من الطوب والحديد، به صورة للمسيح المصلوب منقوشة على الخشب خلف المذبح، عليها مسيح نحيف بوجه يشبه القناع متوج بإكليل من أشواك السنط، ويداه وقدماه ليست مثقوبة بالمسامير بل بصواميل من الصلب. والصورة نفسها بحجم قريب من الحجم الطبيعى؛ يصل الصليب إلى العوارض الخشبية العارية؛ ويسيطر المنظر على الكنيسة، يستبد بها.

تخبرها بلانش بأن صورة المسيح لنقَّاش محلى. تبنَّاه المركز منذ سنوات وزوده بورشة ويدفع له راتبا شهريا. هل تريد أن تقابل الرجل؟

لهذا السبب، الآن، هذا العجوز بأسنان مصبوغة وأفرول وإنجليزية ملتبسة، يُقدَّم لها ببساطة باسم جوزيف، يفتح، من أجلها، باب سقيفة فى ركن ناءٍ من

www.ibtesama.com

المركز. تلاحظ أن العشب كثيف حول الباب: مضى وقت طويل على وصول آخر شخص إلى هنا.

فى الداخل عليها أن تتخلص من أنسجة العنكبوت. يتحسس جوزيف المفتاح ينقره إلى أعلى وإلى أسفل بلا جدوى. يقول: "المصباح انطفأ، ولكنه لا يفعل شيئا. لا يأتى الضوء إلا من الباب المفتوح والشقوق التى بين السقف والجدران. يستغرق الأمر لحظات حتى تتكيف عيناها.

توجد طاولة طويلة مؤقتة فى وسط السقيفة. يُوضَع على الطاولة أو يُسنَد عليها خليط من النقوش الخشبية. وتسند على الجدران ألواح من الخشب، مكدسة على القش، وبعضها لا يزال عليه اللحاء، وصناديق مغبرة من الكرتون.

يقول جوزيف: "ورشتى. وأنا شاب كنتُ أعمل هنا طوال اليوم. لكننى الآن عجوز."

تلتقط صورة للمسيح المصلوب، ليست الأكبر، لكنها كبيرة على أية حال: صورة للمسيح ارتفاعها ثمانى عشرة بوصة على صليب، من خشب ثقيل محمرٍّ. "ماذا تسمى هذا الخشب؟

"كارى. خشب كارى."

"نَقَشْتَها؟" تبعد صورة المسيح المصلوب بطول ذراع. كما فى الكنيسة، وجه الرجل المعذَّب عبارة عن قناع مبسَّط ومشكَّل، فى مستوى واحد، العينان ضيقتان، والفم ثقيل ومتدلٍّ. والجسد، من الناحية الأخرى، طبيعى تماما، تستطيع أن تخمن أنه منسوخ

www.ibtesama.com

عن نموذج أوروبى. الركبتان مرفوعتان، وكأن الرجل يحاول أن يتخلص من آلام ذراعيه بتحميل وزنه على المسمار الذى يثقب قدميه.

"أنقش كل صور يسوع. والصليب، أحيانا يصنعه المساعد. المساعدون."

"وأين مساعدوك الآن؟ ألم يعد أحد منهم يعمل هنا؟"

"لا، مضى المساعدون. صلبان كثيرة. صلبان كثيرة لا يمكن بيعها كلها."

تحدق فى أحد الصناديق. صور صغيرة للمسيح المصلوب، يبلغ ارتفاعها ثلاث بوصات أو أربعا، مثل الذى تلبسه أختها، أعداد كبيرة منها، وكلها بالوجه المسطح ذاته، الذى يشبه القناع، ووضع الركبتين المرفوعتين نفسه.

"ألا تنقش أى شىء آخر؟ حيوانات؟ وجوهًا؟ أناسا عاديين؟"

يمتعض جوزيف. يقول بازدراء: "الحيوانات للسائحين فقط."

"وأنت لا تنقش للسائحين. لا تنقش فنًا سياحيًا."

"لا، لا أنقش فنًا سياحيًا."

"لماذا تنقش إذًا؟"

يقول: "من أجل يسوع. أجل. من أجل مخلِّصنا."

VI

تقول: "رأيتُ مجموعة جوزيف. فكرة استحواذية إلى حد ما، ألا ترين ذلك؟ مجرد صورة يكررها ويكررها."

www.ibtesama.com

بلانش لا ترد. تتناولان غداء، غداء يمكن أن تصفه فى ظروف طبيعية بأنه ضئيل: شرائح من الطماطم، قليل من أوراق الخس الذابل، وبيضة مسلوقة. لكنها بلا شهية. تعبث بالخس؛ تصيبها رائحة البيضة بالغثيان.

تواصل: "كيف تعمل اقتصادياته ـ اقتصاديات الفن الدينى، فى يومنا وعصرنا؟"

"اعتاد جوزيف أن يكون موظفا بأجر فى هضبة ماريان. أجر مقابل أن يعمل نقوشه، وبعض المهام الغريبة أيضا. منذ ثمانية عشر شهرا وهو محال إلى المعاش. يعانى من التهاب فى مفاصل يديه. لابد أنك لاحظْتِ ذلك."

"لكن من يشترى تلك النقوش التى ينقشها؟"

"لدينا منفذان فى دربان يأخذانها. وتقبلها البعثات الأخرى لإعادة بيعها. ربما لا تكون أعمالا فنية بالمعايير الغربية لكنها موضع ثقة. منذ بضع سنوات قام جوزيف بمهمة للكنيسة فى إكسوبو (١) وقد وضعوا ألفى رَنْد(٢) فى جيبه. مازلنا نحصل على طلبات كبيرة من صور المسيح المصلوب ذات الحجم الصغير. تشتريها المدارس الكاثوليكية لتقديمها هدايا."

"لتقديمها هدايا. حين تكونين الأولى فى التعليم الثانوى تحصلين على إحدى صور المسيح المصلوب التى صنعها جوزيف."

---

(١) إكسوبو: بلدة فى جنوب إفريقيا.

(٢) رَنْد: وحدة العملة فى جنوب إفريقيا.

www.ibtesama.com

"إلى حد ما. هل هناك خطأ فى ذلك؟"

"لا. مازال هناك إنتاج كثير، أليس كذلك؟ لابد أن هناك مئات من القطع فى تلك السقيفة، متماثلة كلها. لماذا لم تجعليه يعمل شيئا آخر بجانب صور المسيح المصلوب، نقش صور صلب المسيح؟ ماذا يحدث لروح الشخص- إذا جرؤت على استخدام الكلمة- حين يقضى حياته العملية فى نقش رجل يتألم مرة ومرة؟ حين لا يقوم بمهام غريبة، أليس كذلك؟"

تبتسم لها بلانش ابتسامة فولاذية. تقول: "**رجل**، إليزابيث؟ **رجل** يتألم؟"

"رجلٌ، ربٌّ، ربٌّ رجلٌ، لا تجعلى منها قضية، بلانش، لسنا فى درس لاهوتى. ماذا يحدث لرجل ذى مواهب حين يقضى حياته بطريقة خالية من الإبداع كما فعل جوزيف؟ ربما تكون مواهبه محدودة، ربما لا يكون فنانا بمعنى الكلمة؛ لكن، ألا يكون من الأعقل أن نشجعه على توسيع أفقه قليلا؟"

تضع بلانش سكينها وشوكتها. "حسنا، لنواجه النقد الذى تقدمينه، نواجهه فى أكثر أشكاله تطرفا. جوزيف ليس فنانا لكن ربما أصبح فنانا إذا كنا- كنتُ- قد شجعتُه، منذ سنوات، لتوسيع مداركه بزيارة المعارض أو على الأقل النقاشين الآخرين ليرى ما يفعله الآخرون. وبدلا من ذلك بقى جوزيف حِرَفيًا أو أُبقِىَ فى مستوى الحِرَفى. عاش هنا فى البعثة، فى ظلمة تامة، ينقش النقوش نفسها ويكررها بأحجام مختلفة وباستخدام أنواع مختلفة من الخشب، حتى داهمه التهاب المفاصل وانتهت حياته العملية. وهكذا

www.ibtesama.com

مُنِع جوزيف، بتعبيرك، من توسيع أفقه. حُرِم من حياة أكثر اكتمالا، خاصة حياة فنان. هل هذا يغطى اتهامك؟"

"إلى حدّ ما. ليس بالضرورة حياة فنان، لستُ حمقاء بدرجة تجعلنى أوصى بذلك، مجرد حياة أكثر اكتمالا."

"صحيح. إذا كان هذا اتهامَكِ، فسأقدم لك ردى. قضى جوزيف ثلاثين عاما من وجوده الأرضى يصور، فى عيون الآخرين بشكل مؤكد وأساسى فى عينيه، مُخلِّصَنا فى آلامه. تخيلَ ذلك الألم ساعة بعد ساعة، يوما بعد يوم، سنة بعد سنة، وبإخلاص يمكن أن تلاحظيه بنفسك، أعاد إنتاجه، بأفضل ما يستطيع، بدون تبديله، وبدون إدخال أنماط جديدة عليه، بدون أن يحقن فيه شيئا من شخصيته. من منا، أسأل الآن، يرحب به يسوع فى مملكته بمزيد من السعادة: جوزيف بيديه الهزيلتين أم أنت أم أنا؟"

لا تحب أن تركب أختها حصانها العالى وتعظ. حدث ذلك أثناء حديثها فى جوهانسبرج ويحدث مرة أخرى. ينبثق كل ما لا يحتمل فى شخصية بلانش فى تلك الأوقات: لا يحتمل، متصلب ومتنمر.

تقول بأقصى ما تستطيع من جفاف: "أعتقد، مع ذلك، أن يسوع سيكون أسعد إذا عرف أن جوزيف كان لديه اختيار، أن جوزيف لم يرغم على التقوى."

"اخرجى. اذهبى واسألى جوزيف. اسأليه إن كان قد أرغم على شىء." تتوقف بلانش. "هل تعتقدين أن جوزيف مجرد ألعوبة فى يدى، إليزابيث؟ هل تعتقدين

www.ibtesama.com

أن جوزيف لا يفهم كيف قضى حياته؟ اذهبى وتحدثى معه. استمعى له."

"سأفعل. لكنّ عندى سؤال آخر، سؤال لا يستطيع جوزيف الإجابة عليه لأنه سؤال لك. لماذا يجب أن يكون النموذج الذى تضعينه- أو إن لم يكن أنت فالمؤسسة التى تمثلينها- لماذا يجب أن يكون النموذج الخاص الذى تضعينه أمام جوزيف وتطلبين منه أن ينسخه، أن يقلده، نموذجًا لا يمكن أن أصفه إلا بالغوطى؟ لماذا مسيح يموت مشوها بدلا من مسيح حى؟ رجل فى صدر حياته، فى أوائل الثلاثينيات: ماذا لديك ضد إظهاره حيًا، بكل جماله الحى؟ وماذا لديك، طالما أنا بصدد ذلك، ضد الإغريق؟ لم يصنع الإغريق أبدا تماثيل ولوحات لرجل فى ألم مبرح، مشوها، بشعا، ثم سجدوا أمام تلك التماثيل وعبدوها. وإذا تساءلتِ عن السبب الذى جعل الإنسانيين الذين تأملين أن نسخر منهم ينتقدون المسيحية والاحتقار الذى تبديه المسيحية لجسد الإنسان ومن ثم للإنسان نفسه، فمن المؤكد أن ذلك لابد أن يقدم لك مفتاحا. لابد أن تعرفى، لا يمكن أن تكونى قد نسيتِ، أن صور يسوع فى ألمه خاصية من خصوصيات الكنيسة الغربية. كانت غريبة تمامًا فى القسطنطينية. وقد اعتبرتها الكنيسة الشرقية غير لائقة، مع أنها صحيحة تماما.

"بصراحة، بلانش، ثمة شىء يصدمنى فى تراث تصوير المسيح على الصليب، يصدمنى كشىء وضيع ومتخلف ينتمى للعصور الوسطى بأسوأ صورها - الرهبان القذرون، القساوسة الأميون، الفلاحون

www.ibtesama.com

المرغمون على أمرهم. لماذا تنشغلين بإعادة إنتاج المرحلة الأكثر قذارة وركودا فى التاريخ الأوروبى فى إفريقيا؟"

تقول بلانش: "هولبين [١] جرنولد [٢] إذا كنت تريدين الشكل الإنسانى فى تطرفه، اذهبى إليهما. يسوع الميت. يسوع فى القبر."

"لا أفهم ما ترمين إليه."

"لم يكن هولبين وجرونولد من فنانى العصور الوسطى الكاثوليكية. كانا ينتميان لعصر الإصلاح."

"هذه ليست مشاجرة أثيرها مع الكنيسة الكاثوليكية التاريخية، بلانش. أتساءل عما تحملينه، أنت نفسك، ضد الجمال. لماذا يجب على الناس ألا يستطيعوا النظر إلى عمل فنى والتفكير فى أنفسهم: **ذلك ما نستطيع كجنس أن نفعله، ذلك ما أستطيع أن أفعله**؛ وبدلا من النظر إليه والتفكير فى أنفسهم: **يا إلهى سأموت، سيأكلنى الدود؟**"

"أفترض أنك تريدين أن تقولى من هنا جاء الإغريق. أبوللو بلفيدير [٣] وفينوس دى ميلوس [٤] .

(١) هولبين Holbein (١٤٩٧ ـ ١٥٤٣) فنان ألمانى، اشتهر بمجموعته المعروفة باسم **'رقصة الموت.'**

(٢) جرنولد Grünewald: (١٤٧٠ ـ ١٥٢٨) رسام ألمانى من عصر النهضة، كان يقوم برسم الأعمال الدينية.

(٣) أبوللو بلفيدير Apollo Belvedere تمثال من الرخام من العصور الكلاسيكية القديمة، أعيد اكتشافه فى أواخر القرن الخامس عشر، أثناء عصر النهضة. وقد اعتبره الكلاسيكيون الجدد أعظم التماثيل القديمة.

(٤) فينوس دى ميلوس: تمثال يونانى قديم، من الرخام، وهو واحد من أشهر أعمال النحت اليونانية القديمة. معروض الآن فى متحف اللوفر فى باريس.

www.ibtesama.com

"نعم، من هنا جاء الإغريق. ومن هنا جاء سؤالى: ماذا تفعلين، تجلبين إلى إفريقيا، تجلبين إلى أرض الزولو، من أجل الرب، الغريب بكل معنى الكلمة، الولع الغوطى بقبح جسد الإنسان وفنائه؟ إذا كنتِ تريدين جلب أوروبا إلى إفريقيا، أليس من الأفضل جلب الإغريق؟"

"إليزابيث، هل تعتقدين أن الإغريق غرباء تماما فى أرض الزولو؟ أخبرك مرة أخرى، إذا كنتِ لن تستمعى إلىَّ، فمن اللياقة أن تستمعى على الأقل إلى جوزيف. هل تعتقدين أن جوزيف ينقش يسوع المتألم لأنه لا يعرف أفضل، وأنك لو أخذتِ جوزيف فى جولة حول اللوفر لتفتحت عيناه وبدأ، لمصلحة شعبه، فى نقش نساء عاريات ينظفن أنفسهن، أو رجال يثنون عضلاتهم؟ هل تدركين أن الأوروبيين حين احتكوا بالزولو أول مرة، الأوروبيين المتعلمين، رجالا من إنجلترا من ورائهم تعليم المدارس العامة، اعتقدوا أنهم أعادوا اكتشاف الإغريق؟ قالوا ذلك بوضوح تام. أخرجوا كراسات الرسم ورسموا صورا تخطيطية يظهر فيها المحاربون الزولو برماحهم وتظهر هراواتهم ودروعهم بالطريقة نفسها تماما، وبالنسب الجسدية نفسها تماما، التى نرى عليها هيكتور وأخيل فى رسوم الإلياذة فى القرن التاسع عشر، باستثناء أن جلودهم داكنة. أطراف ممشوقة، ملابس قصيرة، وقفة زهو، أنماط رسمية، فضائل عسكرية- كان ذلك كله هنا! أسبرطة فى إفريقيا: هذا ما اعتقدوا أنهم وجدوه. لعقود كان هؤلاء أولادا فى المدارس العامة، وفى

www.ibtesama.com

أذهانهم فكرة رومانسية عن العصور اليونانية القديمة، كانوا يديرون أرض الزولو باسم التاج. أرادوا أن تكون أرض الزولو أسبرطة. أرادوا أن يكون الزولو الإغريق. وهكذا بالنسبة لجوزيف وأبيه وجده، الإغريق ليسوا قبيلة غريبة نائية على الإطلاق. قدم لهم الإغريق بواسطة حكامهم الجدد كنموذج لنوع من الناس يجب أن يوجد ويمكن أن يوجد. قُدِّمَ لهم الإغريق ورفضوهم. وبدلا من ذلك تطلعوا إلى مكان آخر فى عالم البحر الأبيض المتوسط. اختاروا أن يكونوا مسيحيين، من أتباع المسيح الحى. **اختار** جوزيف يسوع نموذجا له. تحدثى إليه. سيخبرك."

"لا أعرف ذلك الفرع من التاريخ، بلانش- رعايا بريطانيا والزولو. لا يمكن أن أجادلك؟"

"لم يحدث ذلك فى أرض الزولو فقط. حدث فى أستراليا أيضا. حدث فى كل العالم الذى استُعْمِرَ، ليس بهذا الشكل تماما. قدم هؤلاء الزملاء الشباب من أكسفورد وكمبريدج وسانت كاير لرعاياهم من البربر الجدد مثالا زائفا. قالوا: **تخلوا عن أصنامكم.** قالوا: **يمكن أن تكونوا كالآلهة، انظروا إلى الإغريق.** وفى الحقيقة، من يستطيع أن يفرق بين الرجال والآلهة فى اليونان، اليونان الرومانسية التى يعرفها هؤلاء الشبان، ورثة الإنسانيين؟ قالوا: **تعالوا إلى مدارسنا، وسوف نعلمكم الطريقة. نجعلكم من أتباع العقل والعلوم التى تتدفق من العقل؛ نجعلكم أسياد الطبيعة. من خلالنا تتغلبون على المرض وكل ما يضد الجسد. تعيشون إلى الأبد.**

www.ibtesama.com

"حسنا، يعرف الزولو أفضل." تطوح يدا باتجاه النافذة، تجاه مبانى المستشفى التى تحترق تحت الشمس، تجاه الطريق القذر الذى ينتهى إلى الهضاب القاحلة. "هذا هو الواقع: واقع أرض الزولو، واقع إفريقيا. الواقع الآن والواقع فى المستقبل بقدر ما يمكن أن نرى. لهذا يأتى الأفارقة إلى الكنيسة ليركعوا أمام يسوع على الصليب، والإفريقيات قبل الجميع، اللائى عليهن احتمال وطأة الواقع. لأنهم يعانون وهو يعانى معهم."

"ليس لأنه يعدهم بحياة أخرى أفضل بعد الموت؟"

تهز بلانش رأسها. "لا. لا أعد الناس الذين يأتون إلى هضبة ماريان بشىء سوى بأن نساعدهم على حمل صليبهم."

VII

الثامنة والنصف صباح الأحد، لكن الشمس حامية بالفعل. سوف يأتى السائق فى الظهيرة ليصطحبها إلى دربان والطيران إلى الوطن.

فتاتان صغيرتان فى ملابس مبهرجة، حافيتان، تتسابقان إلى حبل الجرس وتبدءان فى شده. يرن الجرس بشكل متقطع على قمة دعامته.

تقول بلانش: "هل ستجيئين؟"

"أجل، سأكون هناك. هل أحتاج إلى تغطية رأسى؟"

"تعالى كما أنتِ. لا رسميات هنا. لكن احذرى: لدينا زيارة من طاقم تليفزيون."

www.ibtesama.com

"تليفزيون؟"

"من السويد. ينتجون فيلما عن المعونات فى كوازولو."

"والقس؟ هل أُخبِر القس بأن الخدمة يتم تصويرها فى فيلم؟ مَن القس على أية حال؟"

"سيقيم القداس الأب مسيمُنجو من هضبة ديل. ليس لديه اعتراض."

الأب مسيمنجو، حين يصل فى جولف رائعة تماما، شاب، طويل جدا، بنظارة. يذهب إلى الصيدلية ليرتدى ثيابه؛ تنضم إلى بلانش وحفنة من الأخوات الأخريات فى الجماعة فى مقدمة المجموعة. أضواء الكاميرا مضبوطة بالفعل ومسلطة عليهن. لم تفشل فى أن ترى، فى بهرجتهن الوحشية، كم كن عجائز. أخوات مريم: ذرية محتضرة، مهنة منقرضة.

الكنيسة شديدة الحرارة تحت سقفها المعدنى. لا تعرف كيف تحتملها بلانش فى زيها الثقيل.

القداس الذى يقوده مسيمنجو يقام بلغة الزولو، إلا أنها تستطيع من حين إلى آخر التقاط كلمة إنجليزية. يبدأ برزانة شديدة؛ ولكن بانتهاء الصلاة الأولى كانت هناك بالفعل همهمة بين الحشد. على مسيمنجو، مستهلا عظته الدينية، أن يرفع صوته نُيسمَع. صوت جهورى، يثير الدهشة فى مثل هذا الشاب الصغير. يبدو أنه يأتى عميقا من الصدر بدون مجهود.

www.ibtesama.com

يستدير، يركع أمام المذبح. يسود صمت. فوقه يلوح الرأس المتوَّج للمسيح المعذَّب. ثم يستدير ويعرض خبز القربان. ثمة صيحة سعيدة من المصلين. يبدأ الضرب الإيقاعى الذى يجعل الأرضية الخشبية تهتز.

تشعر أنها تترنح. الهواء مشبع برائحة العرق. تمسك بذراع بلانش. تهمس: "لابد أن أخرج!" ترمقها بلانش بنظرة تقدير. "برهة أخرى فقط"، تهمس بدورها، وتستدير.

تأخذ نفَسًا عميقا، محاولة أن تصفى ذهنها، لكنه لا يجدى نفعا. يبدو أن موجة من البرد تصعد من أصابع قدميها. تصعد حتى وجهها، تخترق رجفة البرد رأسها، تفقد الوعى.

تستيقظ مستلقية على ظهرها فى غرفة عارية لا تتعرف عليها. بلانش هناك، تحدق فيها، وامرأة شابة فى زى أبيض. تغمغم: "آسفة." وتجاهد لتجلس: "هل فقدتُ الوعى؟"

تضع المرأة الشابة يدا على كتفها لطمأنتها. تقول: "كل شىء على ما يرام، لكن يجب أن تستريحى.

ترفع عينيها إلى بلانش. تكرر: "آسفة، قارات كثيرة جدا."

تنظر إليها بلانش باستغراب.

تكرر: "قارات كثيرة جدا. أعباء كثيرة جدا." يبدو صوتها رقيقا فى أذنيها، وبعيدا. تقول: "لم أتناول طعاما مناسبا. لابد أن ذلك هو السبب."

www.ibtesama.com

لكن هل هذا هو السبب؟ هل اضطراب المعدة يومين يسبب فقدان الوعى؟ بلانش تعرف. لابد أن لبلانش خبرة فى الصوم، وفقدان الوعى. تتوقع، من ناحيتها، أن اعتلالها ليس مجرد نتيجة لسبب جسدى. إذا اعتلت إلى هذا الحد، فعليها أن ترحب بهذه الخبرات على قارة جديدة، مارة ببعضها. لكنها ليست معتلة اعتلالا شديدا. هذا ما يقوله جسدها، بطريقته الخاصة. جسدها غريب تماما ويشكو بكثرة: أريد العودة إلى وسطى القديم، إلى حياتى التى أعرفها.

انسحاب: هذا ما تعانى منه. فقدان الوعى: عرض انسحابى. يذكرها بشخص ما. بمن؟ بالفتاة الإنجليزية الشاحبة فى "رحلة إلى الهند"[1] فتاة لا يمكن أن يصدقها المرء، ترعب أى شخص وتجلب له العار. لا تستطيع احتمال الحرارة.

VIII

السائق ينتظر. حزمت أشياءها واستعدت، إلا أنها لا تزال تشعر ببعض الوهن، ورعشة خفيفة. تقول لبلانش: "إلى اللقاء. إلى اللقاء، أيتها الأخت بلانش. أفهم ما كنت تقصدينه. لاشىء يشبه القديس باتريك[2] فى صباح الأحد. أتمنى ألا يكونوا قد صورونى فى الفيلم، مغشيا علىَّ بهذه الصورة."

---

١) رحلة إلى الهند: A Passage to India (١٩٢٤) رواية من تأليف إى إم فورستر (١٨٧٩ ـ ١٩٧٠) روائى إنجليزى.

٢) القديس باتريك St. Patrick (٣٨٩ ـ ٤٦١) مبشر أيرلندى.

www.ibtesama.com

تبتسم بلانش. "إذا كانوا قد فعلوا، فسأطلب منهم حذفها." لحظة توقف بين الاثنتين. تفكر: **ربما تقول الآن لماذا جاءت بى إلى هنا.**

تقول بلانش: "إليزابيث" (هل هناك شىء جديد فى نبرتها، شىء أرق، أم أنها تتخيل ذلك فقط؟)، "تذكرى أنه إنجيلهم، مسيحهم. هذا ما صنعوا منه، هم، الناس العاديون. ما صنعوا منه وما تركهم يصنعونه منه. نتيجة الحب. ليس فى إفريقيا فقط. ترين مشاهد مثلها بالضبط تتكرر فى البرازيل، فى الفلبين، وحتى فى روسيا. الناس العاديون لا يريدون الإغريق. لا يريدون عالم الصيغ المجردة. لا يريدون التماثيل الرخامية. يريدون شخصا يعانى مثلهم. مثلهم ومن أجلهم."

يسوع. الإغريق. ليس هذا ما توقعته، ليس ما كانت تريده، ليس فى هذه الدقيقة الأخيرة وكل منهما تودع الأخرى ربما للمرة الأخيرة. ثمة شىء لا يلين فى بلانش. حتى الموت. لابد أنها تعلَّمتْ درسَها. الأخوات لا يتركن بعضهن أبدا. على عكس الرجال، الذين يتركون بعضهم بكل سهولة. ويغلق على النهاية بعناق بلانش.

تقول، دون أن تحاول إخفاء المرارة فى صوتها: "هكذا: انتصرتِ، أيتها المسيحية الشاحبة. هل هذا ما تودين أن تسمعيه منى بلانش؟"

"إلى حد ما. عدتِ خاسرة، يا عزيزتى. إذا كنت قد راهنتِ على إغريقى آخر ربما كانت أمامك فرصة. أورفيوس بدلا من أبوللو. المنتشى بدلا من العقلانى.

www.ibtesama.com

شخص يغير الشكل، ويغير اللون، طبقا لما حوله. شخص يمكن أن يموت لكنه يعود. حرباء. عنقاء. شيء يغرى النساء. لأن النساء هن اللائى يعشن أقرب إلى الأرض. شخص يتحرك بين الناس، يمكن أن يلمسوه- يضعوا يدهم على جانبه، يشعروا بالجرح، ويشموا الدماء. لكنك لم تفعلى، وخسرْتِ. ذهبتِ إلى الإغريق الخطأ، يا إليزابيث."

IX

مر شهر. إنها فى بيتها، مستقرة فى حياتها، والمغامرة الإفريقية خلفها. لم تفعل شيئا بعد بشأن الالتقاء مرة أخرى ببلانش، إلا أن ذكرى فراقهما غير الأخوى تزعجها.

تكتب: "ثمة قصة أريد أن أرويها لك، عن أم."

تكتب لنفسها، أى، لكل من معها فى الغرفة حين تكون هى كل من فيها؛ لكن الكلمات لن تأتى، كما تعرف، إلا إذا اعتبرت هذه الكتابة خطابا إلى بلانش.

فى السنة الأولى فى أواكجروف(*) أقامت أمٌّ صداقة مع رجل اسمه فيليبس، وكان يقيم هو الآخر هناك. أذكره لك، لكن ربما لا تذكرينه. كان لديه سيارة؛ اعتادا أن يخرجا معا، إلى المسرح، وإلى الحفلات الموسيقية. كانا رفيقين، حضاريين. "مستر فيليبس"، هكذا كانت تناديه الأم من البداية إلى النهاية، واعتبرتُ ذلك تلميحا لا أعطيه أكبر من

(*) أواكجروف Oakgrove: الاسم يشير إلى أكثر من مكان فى إنجلترا.

www.ibtesama.com

حجمه. ثم تدهورت صحة مستر فيليبس، وكانت نهاية رفقتهما.

حين قابلتُ مستر "ف" أول مرة، كان رفيقا عجوزا خفيف الحركة، بغليونه وسترته الفضفاضة وكرافتة وشارب يشبه شارب ديفيد نيفين (*) كان محاميا، محاميا ناجحا تماما. يعتنى بمظهره، له هواياته، يقرأ الكتب؛ لا تزال فيه حياة، كما عبَّرت الأم.

وكانت إحدى هواياته الرسم بالألوان المائية. رأيتُ بعض أعماله. كانت صوره البشرية متخشبة، لكن كان لديه شعور بالمشهد الطبيعى، بالدغل، شعور أصيل، على ما كنتُ أظن. شعور بالضوء وما تفعله المسافة بالضوء.

رسم لوحة للأم فى زيها الأزرق الشفاف، ووشاح من الحرير يخفق خلفها. ليست صورة ناجحة تماما، لكننى احتفظتُ بها، مازالت لدىَّ فى مكان ما.

جلستُ أيضا ليرسمنى. وكان ذلك بعد أن أجريت له جراحة وقبع فى غرفة، أو اختار ألا يخرج بأى حال. كان الجلوس ليرسمنى فكرة الأم. قالت الأم: "إذا استطعتِ أن تأخذيه من نفسه قليلا. لا أستطيع. يقضى اليوم كله وحيدا ضجرا."

انطوى مستر فيليبس على نفسه بعد إجراء عملية جراحية، استئصال الحنجرة. تركتْه بثقب من المفترض أن يتكلم من خلاله بأداة تعويضية. لكنه كان يشعر بالخجل من الثقب البشع الذى يبدو فجًا فى

(*) ديفيد نيفين David Niven : (١٩١٠ ـ ١٩٨٣) ممثل إنجليزى.

www.ibtesama.com

زوره، وهكذا انسحب من المشهد العام. كان لا يستطيع أن يتكلم على أية حال، بشكل غير مفهوم - لم يبال أبدا بأن يتعلم التنفس الصحيح. كان فى أفضل الأحوال يصدر نوعا من النقيق. لابد أن ذلك كان مهينا جدا لمثل هذا الرجل المغرم بالسيدات.

تفاوضنا أنا وهو كتابة، وكانت النتيجة سلسلة من الجلسات بعد ظهيرة أيام السبت ليرسمنى. كانت يده ترتجف قليلا فى ذلك الوقت؛ لا يستطيع أن يعمل إلا ساعة فى كل مرة؛ السرطان يهاجمه بأكثر من طريقة.

كانت لديه شقة من أفضل الشقق فى أواكجروف، فى الطابق الأرضى، بأبواب فرنسية تؤدى إلى حديقة. ومن أجل رسم صورتى جلستُ بجوار باب الحديقة فى كرسى ثابت منقوش مرتدية حِرامًا اشتريته من جاكرتا، مطبوعًا باليد بالبرتقالى والبنى الغامق. لا أعرف أنه جعلنى أكثر جاذبية بشكل خاص، لكننى ظننتُ أن الألوان تمتعه كرسام، تعطيه شيئا يلعب به.

فى أحد أيام السبت - صبرًا، سأدخل فى الموضوع- وكان يوما دافئًا جميلا والحمام يهدل على الأشجار، وضع فرشاته وهز رأسه وقال شيئًا بنقيقه لم أفهمه. قلتُ: "لم أسمع، إيدان. كرر: "لا تعملُ"، ثم كتب شيئًا على ورقة وأحضرها إلىَّ. كتب: "أتمنى أن أستطيع رسمك عارية." وفى أسفل الورقة: "أحببْتِ ذلك."

www.ibtesama.com

لابد أن هذا كلفه شيئًا ليتوصل إليه. أحببتِ ذلك، ماضٍ افتراضى. لكن ماذا كان يعنى بالضبط؟ يمكن تصورٍ أنه كان يعنى 'أحببتُ أن أرسمك وأنت لا تزالين صغيرة 'لكننى لا أعتقد ذلك. 'أحببتُ لو رسمتُكِ وأنا ما أزال رجلا 'وهذا أرجح. وهو يرينى الكلمات رأيتُ شفته ترتجف. أعرف أن على المرء ألا يعول كثيرا على الشفاه المرتجفة والعيون الدامعة فى المسنين، لكن يبقى...

ابتسمتُ وحاولتُ أن أدعمه وأخذتُ وضعى مرة أخرى، وعاد إلى حامله، وعاد كل شىء إلى ما كان عليه، باستثناء أننى رأيتُ أنه لم يعد يرسم، يقف فقط والفرشاة تجف فى يده. وهكذا فكرتُ- آتى أخيرًا إلى الموضوع- فكرتُ: **يا له من جحيم**؛ حللتُ الحِرام وأزحته من على كتفىَّ وخلعتُ حمالة الثديين وعلقتها على ظهر الكرسى وقلتُ: "كيف ذلك، يا إيدان؟"

أرسمُ بقضيبى(*) ألم يقل رينوار ذلك، رينوار السيدات الممتلئات ذوات البشرة الكريمى؟ بقضيبى اسم مؤنث. حسنا، فكرتُ مع نفسى، لنرى ما إن كنا نستطيع إيقاظ قضيب مستر فيليبس من نومه العميق. وأعطيته وجهى مرة أخرى، بينما واصل الحمام على الأشجار وكأن شيئا لم يكن.

لا أستطيع أن أقول ما إن كان يعمل، ما إن كانت رؤيتى شبه عارية تشعل أى شىء فيه مرة أخرى. لكننى استطعتُ أن أشعر بكل ثقل نظرته علىَّ، على ثديىَّ، وبصراحة، كانت رائعة. كنتُ وقتها فى الأربعين،

(*) بالفرنسية فى الأصل.

www.ibtesama.com

وكان ورائى طفلان، لم يكونا ثديى امرأة شابة، لكنها كانت رائعة رغم ذلك، اعتقدتُ ذلك ومازلتُ أعتقد ذلك، فى موضع الذبول والاحتضار. بَرَكة.

وبعد برهة، حين طالت الظلال فى الحديقة وبرد الجو، تصرفتُ بشكل مهذب مرة أخرى. قلتُ: "إلى اللقاء، إيدن، يباركك الرب"؛ وكتب "شكرا" على الورقة وأراها لى، وهذا ما كان. لا أعتقد أنه كان يتوقع عودتى فى السبت التالى، ولم أعد. لا أعرف إن كان قد أنهى اللوحة بنفسه. ربما حطمها. ومن المؤكد أنه لم يُرِها للأم.

بلانش، لماذا أحكى لك هذه القصة؟ لأننى أربطها بالمحادثة التى دارت بينى وبينك فى هضبة ماريان عن الزولو والإغريق والطبيعة الحقيقية للإنسانيات. لا أريد أن أتخلى عن خلافنا؛ لا أريد أن أنصرف عن المجال.

الواقعة التى أحكيها لك عن المرور فى غرفة معيشة مستر فيليبس، واقعة ضئيلة فى ذاتها، وقد اربكتنى لسنوات؛ والآن فقط، بعد العودة من إفريقيا، أعتقد أننى أستطيع أن أفسِّرها.

بالطبع كان هناك عنصر من الانتصار فى الطريقة التى تصرفتُ بها، عنصر من التباهى، لا أزهو به: المرأة القوية تضايق الرجل الآفل، تكشف له عن جسدها إلا أنها تحافظ على المسافة بينهما. **مضايقة الديك** ـ هل تتذكرين مضايقة الديك فى تلك الأيام الغابرة؟

www.ibtesama.com

لكن المسألة كانت أكبر من ذلك. كانت بالنسبة لى نابعة من شخصية. ظللتُ أتساءل، من أين واتتنى الفكرة؟ من أين تعلمتُ ذلك الوضع، محدقة بعيدًا بهدوء وثوبى معلق حول خصرى كسحابة وجسدى المقدس مكشوف؟ من **الإغريق**، أدركُ الآن، بلانش: من الإغريق ومما صنعته أجيال من رسامى عصر النهضة بالإغريق. حين كنتُ أجلس هناك لم أكن نفسى، أو لم أكن نفسى فقط: من خلالى تكشف إلهةٌ عن نفسها، أفروديت أو حيرا أو ربما حتى أرتميس. كنتُ من الخالدات.

وليست هذه هى النهاية. استخدمتُ كلمة "بركة" منذ لحظة. لماذا؟ لأن ما كان يحدث دار حول ثديىَّ، هذا ما كنتُ متأكدة منه، حول ثديى ولبن الثدى. بصرف النظر عما فعلته هؤلاء الإلهات الإغريقيات فى العصر القديم من أشياء أخرى، فإنهن لم ينضحن، بينما كنتُ أنضح، بالمعنى المجازى: كنتُ أنضح فى غرفة مستر فيليبس، شعرتُ بذلك وأراهن أنه شعر به أيضًا، بعد أن غادرتُ بوقت طويل.

الإغريقيات لا ينضحن. التى تنضح هى مريم الناصرية. ليست العذراء الخجول فى البشارة لكن الأم التى نراها عند كورجيو(*) الأم التى ترفع حلمتها برقة بأطراف أصابعها ليتمكن طفلها من المص؛ التى تتعرى، آمنة فى فضيلتها، بجرأة تحت نظرة الرسام ومن ثم تحت نظرتنا.

(*) كورجيو (١٤٩٤ ـ ١٥٣٥) رسام إيطالى من عصر النهضة.

www.ibtesama.com

تخيلى المشهد فى أستوديو كوريجو فى ذلك اليوم، بلانش. يشير الرجل بفرشاته: "احملوها، هكذا. لا، ليس باليد، بإصبعين فقط." يعبر الأرضية، يريها. "هكذا." تطيع المرأةُ، وتفعل بجسمها ما يأمر به. يشاهد رجال آخرون اللحظة كلها من الظلال: الغلمان، الرفاق الرسامون، الزائرون.

من يعرف مَنْ كانت، موديله فى ذلك اليوم: امرأة من الشوارع؟ زوجة الراعى؟ المناخ فى الأستوديو مكهرب، لكن بماذا؟ بطاقة شهوانية؟ قضبان كل أولئك الرجال، قضبانهم، تستثار؟ بلا شك. إلا أن شيئا آخر فى الهواء أيضا. عبادة. تتوقف الفرشاة وهم يعبدون اللغز الذى يبدو لهم: من جسد امرأة، يتدفق تيار الحياة.

بلانش، هل فى أرض الزولو ما يقابل تلك اللحظة؟ أشك فى ذلك. ليس هذا المزيج الرائع من النشوة والجمال. لا يحدث إلا مرة واحدة فى تاريخ الجنس البشرى، فى عصر النهضة فى إيطاليا، حين يتم اختراق الصور والشعائر المسيحية الخالدة بحلم الإنسانيين باليونان القديمة.

فى كل حديثنا عن النزعة الإنسانية والإنسانيات كانت هناك كلمة التف كل منا حولها: **الإنسانية**. حين تبتسم مريم المباركة بين النساء ابتسامتها الملائكية البعيدة وتعرض حلمتها القرنفلية الحلوة أمام نظرتنا، حين أعرِّى، مقلدة إياها، ثديى لمستر فيليبس العجوز، نمارس أعمالا إنسانية. مثل هذه الأعمال غير متاحة للحيوانات، التى لا تستطيع أن تتعرَّى لأنها لا تغطى

www.ibtesama.com

نفسها. لا شيء يرغمنا، مريم أو أنا، على فعل ذلك. لكننا نفعله رغم كل شيء نتيجة الفيضان، تدفق قلوبنا الإنسانية: نخلع ثيابنا، ونتعرى، نكشف الحياة والجمال اللذين أُنعِمَ علينا بهما.

الجمال. بالتأكيد من أرض الزولو، حيث لديك الكثير من الأجساد العارية التى تنظرين إليها، لابد أن تسلِّمى، بلانش، بأن لا شيء أجمل إنسانيا من ثديى امرأة. لا شيء أجمل إنسانيا، لا شيء أكثر إلغازًا إنسانيًا من السبب الذى يجعل الرجال يريدون ملاطفة هاتين الحويصلتين الدهنيتين المنحنيتين الغريبتين، مرة بعد أخرى، بفرشاة الرسم أو الأزميل أو اليد، ولا شيء محبَّبًا وأكثر إنسانية من تعقدنا (أقصد تعقد النساء) فى هواجسهم.

الإنسانيات تعلمنا الإنسانية. بعد قرون طويلة من الليل المسيحى، تعيد إلينا الإنسانيات جمالنا، جمالنا الإنسانى. هذا ما نسيتِ قوله. هذا ما يعلمنا إياه الإغريق، بلانش، الإغريق الحقيقيون. فكرى فى ذلك.

أختك،

إليزابيث

هذا ما تكتبه. ما لا تكتبه، ما لا تنوى أن تكتبه، هو كيف تسير القصة، قصة مستر فيليبس، وجلساتهما بعد ظهيرة أيام السبت فى البيت القديم.

لأن القصة لا تنتهى كما قالت، بتغطيتها نفسها بذوق وكتابة مستر فيليبس كلمة أشكرك وتركها غرفه. لا، تبدأ القصة مرة أخرى بعد شهر، حين تذكر

www.ibtesama.com

الأم أن مستر فيليبس دخل المستشفى للحصول على جرعة أخرى من العلاج الإشعاعى وعاد فى حالة سيئة، مكتئبًا جدًا، ويائسًا جدا. لماذا لا تلقى نظرة عليه، تحاول أن تبهجه؟

تقرع بابه، تنتظر لحظة، تدخل.

لا خطأ فى العلامات. لم يعد رفيقًا عجوزًا نشطًا، مجرد رفيق عجوز، حقيبة قديمة من العظام فى انتظار أن تنقل بعيدا. مستلقيا على ظهره فاردا ذراعيه، ويداه مرتخيتان، اليدان اللتان كانتا فى الفضاء منذ شهر تصبحان زرقاوين مليئتين بالعقد بدرجة تجعلك تشك أنها كانت صالحة للإمساك بفرشاة ذات يوم. ليس نائمًا، يستلقى فقط، ينتظر. يسمع أيضًا، دون شك، الأصوات الداخلية، أصوات الألم. (تفكر مع نفسها: **علينا ألا ننسى ذلك، بلانش، ألا ننسى الألم. هلع الموت ليس كافيًا: على قمته الخوف، يتعاظم. كطريقة لوضع نهاية لزيارتنا لهذا العالم، أى وحشية يمكن أن تكون أكثر مهارة وأكثر شيطانية؟**)

تقف بجوار الرجل العجوز؛ تأخذ يده. ومع أنه لا شىء ممتع فى ثنى هذه اليد الباردة الزرقاء فى يدها، تفعل ذلك. لا شىء ممتع فى أى شىء من هذا القبيل. تمسك باليد وتعصرها وتقول "أيدن!" بأرق صوت وتشاهد الدموع تتدفق، دموع المسنين التى لا توضع فى الحسبان لأنها تأتى بسهولة شديدة. لا شىء يمكن أن تقوله ومن المؤكد أنه لا شىء يمكن أن يقوله من الثقب الموجود فى زوره، وهو الآن مغطى بعناية

www.ibtesama.com

بضمادة من الشاش. تقف هناك ممسكة بيده حتى تأتى المرضة نايدو بعربة الشاى والحبوب؛ ثم تساعده ليجلس ليشرب (من كوب ببزبوز، مثل طفل عمره سنتان، الإذلال لا حدود له).

تزوره من جديد فى السبت التالى، والذى يليه؛ يصبح روتينا جديدا. تمسك يده وتحاول أن تريحه بينما ترصد بعين باردة مراحل تدهوره. تتم الزيارات بالحد الأدنى من الكلمات. لكن فى أحد أيام السبت، حين كانت هناك ثرثرة أكثر بعض الشىء، ونشاط أكثر بعض الشىء، يدفع الورق تجاهها وتقرأ الرسالة التى كتبها مقدما: "لك صدر رائع. لن أنسى أبدًا. شكرًا على كل شىء، إليزابيث الحنون."

تعيد إليه الورق. ماذا يمكن أن تقول؟ **تأخذ إجازة مما أحببت.**

بقوة فجة واهية يمزق الصفحة من مجموعة الورق، ويكومها ويلقى بها فى السلة، ويرفع إصبعًا إلى شفتيه كما لو أنه يقول: **سرُّنا**.

تفكر مع نفسها مرة أخرى: يا له من جحيم. تذهب إلى الباب وتغلق الترباس. فى كوة صغيرة يعلق عليها ملابسه تخلع ثيابها، صدرية الثديين. ثم تعود مرة أخرى إلى السرير، وتجلس حيث يمكنه أن يرى بشكل جيد، وتستعيد وضع الرسم. تفكر: **متعة، لنقدمْ للولد العجوز متعة، لنُنِرْ سَبْتَه.**

هناك أشياء أخرى تفكر فيها أيضًا، وهى تجلس على سرير مستر فيليبس فى برد ما بعد الظهيرة (لم

www.ibtesama.com

نعد فى الصيف الآن بل فى الخريف، أواخر الخريف)، هذا البرد الذى يجعلها ترتجف قليلا بعد لحظة. **موافقة الراشدين: أىٌ موافقة للبالغين تتم خلف الأبواب المغلقة لا تعنى أحدا سواهم.**

يمكن أن يكون هذا موضعًا آخر مناسبًا لإنهاء القصة. لا تحتاج إلى تكرار بصرف النظر عن الطبيعة الحقيقية لما يسمى المتعة. السبت التالى، إذا كان لا يزال حيا، إذا كانت لا تزال حية، سوف تأتى وتمسك يده مرة أخرى؛ لكن لابد أن يكون آخر الوضع، آخر عرض للصدر، آخر النعمة. بعد ذلك لابد من الغلق على الثديين، ربما الغلق عليهما إلى الأبد. هكذا يمكن أن تنتهى هنا، بالبقاء على هذا الوضع عشرين دقيقة كاملة، يمكن أن تقدِّر، رغم الرجفة. كقصة، حكاية، يمكن أن تنتهى هنا ويبقى من المناسب تماما وضعها فى ظرف وإرسالها إلى بلانش بدون تخريب بصرف النظر عما كانت تريد أن تقوله عن الإغريق.

لكنها فى الحقيقة تستمر فترة قصيرة بعد ذلك، خمس دقائق أو عشر، وهذا هو الجزء الذى لا يمكن أن تقوله لبلانش. تستمر بما يكفى لها، المرأة، أن تسقط يدًا عَرَضًا على مفرش السرير وتبدأ تمررها، برقة، إلى المكان الذى يجب أن يوجد به القضيب، إذا كان القضيب حيًا ويقظًا؛ ثم، حين لم تكن هناك استجابة، تضع الأغطية جانبا وتفك رباط بيجامة مستر فيليبس، بيجامة العجوز، المصنوعة من الفلانيلة كما لم تر منذ سنوات- لم تكن تتوقع أن المرء يمكن أن يجدها فى المحلات- وتفتحها من

www.ibtesama.com

الأمام وتغرس قبلة على الشيء الصغير المرتخى تمامًا، وتأخذه فى فمها وتمضغه حتى تنبعث فيه الحياة بوهن. المرة الأولى التى ترى فيها شعر عانة تحول إلى الرمادى. غباء منها ألا تدرك أن هذا يحدث. سوف يحدث لها أيضًا، فى الوقت المناسب. والرائحة ليست طيبة أيضًا، رائحة الأجزاء السفلى لرجل عجوز، أجزاء تغسل على عجل.

تفكر، أقل من المتصور، تنسحب وتغطى مستر فيليبس وتبتسم له مربِّتة على يده. من المتصوَّر أن ترسل حسناء صغيرة لتفعلها من أجله، **فتاة متعة**(*) بثديين ممتلئين جديدين مما يحلم به الرجال المسنون. بشأن الدفع مقابل الزيارة ليس لديها أى شكوك. كان يمكن أن تسميها هدية عيد الميلاد، إذا أرادت الفتاة تفسيرًا، إذا كانت الهدية **العابرة** أيضًا فى حاجة ماسة لاسم. ولكن فى هذه الحالة، بمجرد أن تتجاوز عمرًا معينًا يكون كل شيء أقل من المتصور؛ ربما اعتاد ذلك مستر فيليبس أيضًا. الآلهة وحدها تبقى شبابًا إلى الأبد، الآلهة غير البشرية. الآلهة والإغريق.

وبالنسبة لها، إليزابيث، جثمت على حقيبة قديمة من العظام وثدياها متدليان، يؤثران من بعيد على عضو التناسل، العضو المندثر تقريبًا، أى اسم يطلقه الإغريق على مشهد بهذا الشكل؟ ليس **إيروس**، بالتأكيد- أغرب من أن يحمل هذا الاسم. **حب روحى**؟ مرة أخرى، ربما لا. هل يعنى هذا أن الإغريق ليس

(*) بالفرنسية فى الأصل.

www.ibtesama.com

لديهم كلمة له؟ هل على المرء أن ينتظر المسيحيين ليأتوا معهم بالكلمة المناسبة: كريتاس؟

لهذا تقتنع، فى النهاية، بأنه كذلك. من تورم قلبها تعرفه، من الاختلاف التام غير المتناهى بين ما فى القلب وما تراه المرضة نايدو، إذا كان على المرضة نايدو، ببعض سوء الحظ، أن تفتح الباب، مستخدمة مفتاحها، وتدخل.

إلا أن هذا ليس الأهم فى ذهنها- ما تفعل به المرضة نايدو، ما يفعل به الإغريق، ما تفعل به الأم فى الطابق التالى. الأهم ما سوف تفعل هى نفسها به، فى السيارة وهى عائدة إلى البيت، أو حين تستيقظ فى صباح الغد، أو بعد سنة. ماذا يمكن للمرء أن يفعل بأحداث من هذا النوع، غير المتوقعة وغير المخطط لها، النابعة من الشخصية؟ هل هى مجرد ثقوب، ثقوب فى القلب، يخطو إليها المرء ويسقط ويواصل السقوط؟

تفكر: بلانش، عزيزتى بلانش، لماذا يوجد حاجز بيننا؟ لماذا لا نستطيع أن نتحدث معا بشكل مباشر وصريح، كما يجب أن يفعل أناس على حافة الموت؟ رحلت الأم؛ حُرِق مستر فيليبس العجوز وتحول إلى مسحوق نثر فى الرياح؛ من العالم الذى نشأنا فيه، بمجرد أن أتركه أنا وأنت. يا أخت شبابى، لا تموتى فى حقل غريب وتتركيننى بدون رد!

●●●

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

(٦)
مشكلة الشر

دُعيتُ للحديث فى مؤتمر فى أمستردام، مؤتمر عن مشكلة قِدم الشر: لماذا يوجد شر فى العالم، وما إن كان يمكن عمل أى شىء بهذا الشأن.

تستطيع أن تخمن بذكاء السبب الذى جعل المنظمين يختارونها: بسبب كلمة ألقتها العام الماضى فى كلية فى الولايات المتحدة، كلمة هوجمت بسببها على صفحات "التعليق" (كانت التهمة الاستخفاف بالمحرقة) ودافع عنها أناس أربكها دعمهم فى معظمه: معادون للسامية متخفون، متعاطفون مع حقوق الحيوانات.

تحدثت فى تلك المناسبة عما رأت ولا تزال ترى أنه استعباد كل الأجناس الحيوانية. العبد: كائن حياته وموته فى أيدى الآخرين. هل البقر والأغنام والدجاج شىء آخر؟ لم يكن تصور معسكرات الموت ممكنا بدون غرس مثال معالجة اللحوم أمامهم.

هذا ما قالته وأكثر: بدا واضحا لها أنه يستحق بالكاد أن تتوقف عنده. لكنها ذهبت خطوة أبعد،

www.ibtesama.com

خطوة بعيدة جدا. قالت إن ذبح العزَّل يتكرر حولنا يوما بعد يوم، وهو ذبح لا يختلف فى القيمة أو الهلع أو الأهمية الأخلاقية عما نسميه المحرقة؛ إلا أننا نختار ألا نراه.

على قدر مساوٍ من الأهمية الأخلاقية: توقفوا عنده. كان هناك اعتراض من طلبة مركز الخليل. طلبوا أن تنأى أبليتون كوليج كمؤسسة بنفسها عن ثرثرتها. فى الحقيقة، على الكلية أن تتخذ خطوة أبعد وتعتذر عن تقديم المنصة لها.

فى موطنها الأصلى تناولت الصحف القصة بغبطة. كتبت صحيفة "**العصر**" تقريرًا بعنوان "**روائية فائزة بجائزة تتهم بمعاداة السامية**" وأعادت نشر الفقرات المزعجة من كلمتها، مزودة بعلامات ترقيم غير صحيحة. بدأ التليفون يرن فى كل الأوقات: صحفيون، فى معظمهم، وغرباء أيضًا، ومنهم امرأة مجهولة الاسم صرخت عبر الخط، "أنت كلبة فاشستية!" وبعد ذلك توقفت عن الرد على التليفون. كانت هى التى تُحاكَم فجأة.

ورطة، كان عليها أن تتنبأ بها وتتجنبها. ماذا يمكن أن تفعل على منصة محاضرات مرة أخرى؟ عليها الابتعاد عن الأضواء إذا كان لديها إحساس. إنها عجوز، تشعر بالإرهاق طوال الوقت، فقدتْ شهية الجدل، شهية كانت تتمتع بها دائما، وعلى أية حال، أى أمل هناك فى حل مشكلة الشر، إذا كانت "مشكلة"

www.ibtesama.com

الكلمة المناسبة للشر حقا، كبيرة بما يكفى لاحتوائه، حلها بمزيد من الحديث؟

لكن حين وصلتها الدعوة كانت تحت تأثير نوبة خبيثة لرواية تقرؤها. كانت الرواية عن فساد من أسوأ الأنواع، وقد جرفتها إلى مزاج اكتئابى بلا قاع. "**لماذا تفعل هذا بى؟**" أرادت وهى تقرأ أن تصرخ، يعلم الرب فى مَنّ. فى اليوم ذاته وصل خطاب الدعوة. هل لإليزابيث كستلو، الكاتبة المحترمة، أن تشرف مجموعة من اللاهوتيين والفلاسفة بحضورها، وحديثها، إذا كان ذلك يسعدها، تحت العنوان العام "الصمت والتعقيد والذنب"؟

الكتاب الذى كانت تقرؤه فى ذلك اليوم من تأليف بول ويست [1] وهو بريطانى، بدا أنه تحرر من اهتمامات الرواية الإنجليزية. كان كتابه عن هتلر وعن قتلته المتعطشين فى الويرمخت [2] وقد سار كل شىء على ما يرام حتى وصلت إلى الفصول التى تصف إعدام المتآمرين. إلى أين يمكن أن يمضى الغرب بمعلوماته؟ هل يمكن حقًا أن يكون هناك شهود عادوا إلى بيوتهم تلك الليلة، قبل أن ينسوا، قبل أن تتلاشى الذاكرة، لتنقذ نفسها، دونوا، بكلمات لابد أنها حرقت الصفحة، تقريرا عما شاهدوه، حتى الكلمات التى

(١) بول ويست Paul West: (١٩٣٠ -) روائى وشاعر، ولد فى إنجلترا، ويعيش حاليًا فى الولايات المتحدة.

(٢) ويرمخت Wehrmacht: الاسم الذى كان يطلق على القوات المسلحة الألمانية من ١٩٣٥ إلى ١٩٤٥ .

www.ibtesama.com

نطق بها الجلاد لأرواحٍ موكلةٍ إلى يديه، ومعظمهم رجال مسنون مرتبكون، نزعت عنهم أزياؤهم، وارتدوا ملابس لآخر حدث فى سجن المنبوذين، بناطيل من الصِّرج(*) محشوة بالسخام، بلوفرات مليئة بثقوب العثة، حفاة، بلا أحزمة، أخذت منهم أطقم أسنانهم ونظاراتهم، مستهلكين، مرتجفين، أيديهم فى جيوبهم لتمسك سراويلهم، يئنون ويبلعون دموعهم، عليهم أن يستمعوا لهذا المخلوق القاسى، هذا الجزار وآخر أسبوع من الدماء محشو تحت أظافره، يوبخهم، ويخبرهم بما يحدث حين يضيق الحبل فجأة، وكيف تجرى الدماء تحت الأقدام النحيلة للرجال المسنين وكيف ترتجف قضبان المسنين لآخر مرة؟ ذهبوا، واحدًا بعد الآخر، إلى المشنقة، فى مكان لا يوصف، قد يكون جراجًا أو مجزرًا، تحت أضواء قوس من الفحم حتى يستطيع أدولف هتلر، القائد العام، من عرينه فى الغابة، أن يشاهد، فى فيلم، بكاءهم ثم ارتجافهم ثم سكونهم، السكون الرخو للحم الميت، فيشعر بالرضا لأنه حقق انتقامه.

هذا ما كتب عنه بول ويست، الروائى، صفحة بعد صفحة، دون أن يترك شيئا؛ وهذا ما قرأته، مشمئزة من المشهد، مشمئزة من نفسها، مشمئزة من عالم حدثت فيه تلك الأشياء، حتى أنها دفعت الكتاب فى النهاية بعيدًا عنها وجلست ورأسها فى يديها. فحش! أرادت أن تصرخ لكنها لم تصرخ لأنها لم

(*) الصرج: نسيج متين مصنوع من الصوف.

www.ibtesama.com

تعرف لمن توجه الكلمة: لنفسها، للغرب، ملائكة ينظرون بهدوء لكل ما يحدث. فحش لأن تلك الأشياء يجب ألا تحدث، وفحش أيضا لأنها وقد حدثت كان يجب ألا تلقى عليها الأضواء بل تُغطَّى وتختفى إلى الأبد فى باطن الأرض، مثلمًا يحدث فى مجازر العالم، إذا أراد المرء أن يحافظ على عقله.

أتى خطاب الدعوة ولمسة الفحش للكتاب الغربى مازالت تسيطر عليها. هذا، باختصار سبب وجودها الآن فى أمستردام، وكلمة فحش مازالت تتفجر فى حنجرتها. فحش: ليست فقط أعمال جلادى هتلر، ليست فقط أعمال الجزَّار، ولكن أيضا صفحات الكتاب الأسود لبول ويست. مَشاهد لا يجب أن تظهر فى وضح النهار، ويجب حماية عيون الأطفال والعذارى منها.

كيف ستتفاعل أمستردام مع إليزابيث كستلو فى حالتها الحالية؟ هل مازال لكلمة "الشر" الكالفينية(*) القوية أى قوة بين هؤلاء المواطنين الحساسين البرجماتيين المحترمين فى أوروبا الجديدة؟ انقضى أكثر من نصف قرن على آخر مرة تبختر فيها الشر بوقاحة فى شوارعهم، إلا أنهم لم ينسوا بالتأكيد. مازال أدولف وكتائبه يستحوذون على المخيلة الشعبية. حقيقة تثير الفضول، إذا وضعنا فى الاعتبار أن كوبا

(*)الكالفينية Calvinist :نسبة إلى التعاليم الدينية لجون كالفن (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤) التى تؤكد على القوة المطلقة للرب وخلاص المختارين برحمة الرب وحده.

www.ibtesama.com

الدب، أخاه الأكبر ومعلمه، وكان بأى مقياس قاتلاً أكثر شراسة وأكثر حقارة، أكثر ترويعًا للروح، قد تلاشى تقريبًا. قياس الحقارة بالحقارة حيث يترك القياس الحقيقى طعمًا حقيرًا فى الفم. عشرون مليون، ستة ملايين، ثلاثة ملايين، مائة ألف: عند نقطة معينة ينهار العقل أمام الأعداد؛ وكلما كبرْتَ – وهذا ما حدث لها على أية حال– يأتى الانهيار أسرع. عصفور يسقط من على الفرع بنبلة، مدينة يُباد فيها الهواء: من يجرؤ أن يقول أيهما أسوأ؟ الشر، كل الشر، شر ابتكره عالَمٌ شرير على أيدى إله شرير. هل تجرؤ على قول هذا لمضيفيها الهولنديين العطوفين، لجمهورها العطوف الذكى الحساس فى هذه المدينة المضيئة، المنظمة بشكل معقول، والمدارة بشكل جيد؟ الأفضل أن تحتفظ بهدوئها، الأفضل ألا تصرخ كثيرا. يمكن أن تتخيل العنوان التالى فى "العصر": "الشر العالمى، يعتنق آراء كستلو".

من فندقها تتجول على قناة، امرأة عجوز فى سترة المطر، لا تزال تشعر ببعض الدوخة، تترنح قليلاً على قدميها، بعد رحلة طيران طويلة من الطرف الآخر من الدنيا. مشوشة: هل تنتابها هذه الأفكار السوداء لأنها، ببساطة، فقدت اتساقها مع نفسها؟ إذا كان الأمر كذلك، فربما يكون عليها أن تقلل من السفر، أو تكثر.

***

www.ibtesama.com

الموضوع الذى عليها أن تتكلم عنه، الموضوع الذى تفاوضت بشأنه مع مضيفيها، هو "الشاهد والصمت والرقيب". البحث نفسه، أو معظمه، ليس من الصعب أن تكتبه. بعد سنوات على رأس كتاب أستراليا تستطيع أن تتحدث عن الرقابة فى نومها. إذا أرادت أن تجعل الأمور أسهل بالنسبة لها، يمكنها أن تقرأ عليهم بحثها المعتاد عن الرقابة، وتقضى بضع ساعات فى المتحف القومى، ثم تستقل القطار إلى نيس(*) حيث تقيم، عادة، ابنتها ضيفة على إحدى المؤسسات.

بحثها المعتاد عن الرقابة يحمل أفكارا ليبرالية، وربما لمسة التشاؤم الثقافى الذى ميز تفكيرها مؤخرًا: حضارة الغرب قائمة على إيمان بمسعى غير محدود وغير قابل للتحديد، الوقت متأخر جدا لنعمل شيئًا بهذا الشأن، لابد أن نتمسك به ونذهب إلى حيث تأخذنا الرحلة. يبدو أن آراءها تتغير تماما فى موضوع غير قابل للتحديد. وقد ساهمت قراءتها لكتاب ويست فى ذلك التغير، كما تظن، مع أنه من المحتمل أن التغير حدث بأية طريقة، لأسباب أكثر غموضًا بالنسبة لها. لم تعد، بشكل خاص، موقنة من أن الناس يصبحون دائما أفضل بالقراءة. بالإضافة إلى أنها ليست موقنة من أن الكتَّاب الذين يتجرأون على الدخول فى المناطق الأكثر ظلمة من الروح

(*) Nice :مدينة تقع جنوب شرق فرنسا على البحر المتوسط.

www.ibtesama.com

يعودون دائما دون أن يتعرضوا للأذى. بدأت تتساءل إن كانت الكتابة التى يحبها المرء شيئًا طيبًا فى ذاته أكثر من القراءة التى يحبها.

ذلك، على أية حال، ما تخطط لقوله هنا فى أمستردام. كما أن مثالها الذى تخطط لطرحه أمام المؤتمر هو "الساعات الغنية جدا للكونت فون ستوفنبرج [١] التى جاء إليها فى رزمة من الكتب، بعضها جديد، وبعضها أعيدت طباعته، أرسلها بناء على طلبها محرر من أصدقائها فى سِدْنى. كان الكتاب الوحيد الذى شغلها حقا هو "الساعات الغنية جدا"؛ وكانت نتيجة القراءة مراجعة سحبتها فى اللحظة الأخيرة ولم تنشرها أبدا.

حين وصلت إلى الفندق كان هناك ظرف فى انتظارها: خطاب ترحيب من المنظمين، برنامج المؤتمر، خرائط. الآن، تجلس على طاولة على قناة الأمير [٢] فى الدفء المؤقت لشمس الشمال، تلقى نظرة على البرنامج. سوف تتكلم فى صباح اليوم التالى، اليوم الأول فى المؤتمر. تنتقل إلى الملاحظات

(١) الساعات الغنية جدًا للكونت فون ستوفنبرج": رواية بول ويست، صدرت عام ١٩٩١عرف ستوفنبرج بمشاركته فى أحداث ٢٠ يوليو ١٩٤٤حيث تم التخطيط لزرع قنبلة لقتل هتلر. ومع أن القنبلة انفجرت إلا أن هتلر لم يصب إلا بجراح طفيفة فى ساقه، وقتل أربعة من مستشاريه العسكريين فى الانفجار. وحين قبض الجستابو على ستوفنبرج أطلقت عليه النيران وتم شنق أخيه بسلك بيانو.

(٢) قناة الأمير Prinsengracht : إحدى القنوات الرئيسية فى أمستردام.

www.ibtesama.com

الموجودة فى نهاية البرنامج. "إليزابيث كستلو، روائية أسترالية وكاتبة مقالات مرموقة، مؤلفة **'منزل فى شارع إكليز** 'وكتب أخرى كثيرة." ليست الطريقة التى يمكن أن تعلن بها عن نفسها، لكنهم لم يسألوها. تجمدتْ فى الماضى، كالعادة؛ تجمدت فى إنجازات شبابها.

تنتقل عينها إلى القائمة. لم تسمع عن معظم الرفاق المشاركين فى المؤتمر. ثم يلفت نظرها الاسم الأخير فى القائمة، يرتجف قلبها. "بول ويست، روائى وناقد." بول ويست: الغريب الذى تضحى عن حالة روحه بصفحات عديدة. تسأل فى محاضرتها: هل يمكن لأحد أن يتوغل بعمق مثلمًا يفعل بول ويست فى غابة الهلع النازى ويخرج دون أن يصاب بأذى؟ كيف تقدم الكلمة، كيف تطرح مثل هذا السؤال، وبول ويست نفسه يجلس بين المستمعين؟ سيبدو هجومًا، هجومًا وقحًا، بلا مبرر، وفوق كل شىء هجومًا شخصيًا على رفيق من الكُتَّاب. مَنْ يصدق الحقيقة: لم تتعامل مع بول ويست أبدا، لم تقابله أبدا، ولم تقرأ له إلا هذا الكتاب؟ ماذا تفعل؟

من بين عشرين صفحة يتكون منها نص كلمتها، نصفها تمامًا مكرَّس لكتاب فون ستوفنبرج. بالحظ لم يكن الكتاب قد تُرجِم إلى الهولندية؛ وقد بلغ الحظ مداه حيث لم يكن أحد من المستمعين قد قرأه. يمكنها ألا تذكر اسم ويست، وتشير له فقط بوصفه "مؤلف كتاب عن الفترة النازية". يمكنها حتى أن تجعل الكتاب نفسه افتراضيا: رواية افتراضية عن النازيين، ألحقتْ

www.ibtesama.com

كتابتها الأذى بروح كاتبها المفترض. ولن يعرف أحد، بالطبع إلا ويست نفسه، إذا كان موجودا، إذا اهتم بالحضور لسماع كلمة لسيدة من أستراليا.

الرابعة بعد الظهر. لا تنام، عادة، فى رحلات الطيران الطويلة، إلا نوما متقطعا. إلا أنها جربت فى هذه الرحلة قرصا جديدا ويبدو أنه أثَّر. تشعر أنها فى حالة طيبة، وعلى استعداد للانغماس فى العمل. هناك وقت كاف لتنقيح الكلمة، وإزاحة بول ويست وروايته إلى الخلفية العميقة، تاركة البحث واضحًا، البحث الذى يمكن أن تكون كتابته نفسها، كمغامرة أخلاقية، خطيرة. لكن أى كلمة يمكن أن تكون- بحثا بدون أمثلة؟

هل هناك شخص آخر يمكن أن تضعه مكان بول ويست ـ سيلين [1] على سبيل المثال؟ إحدى روايات سيلين، اسمها يروغ منها، تموج بالسادية والفاشستية ومعاداة السامية. قرأتّها منذ سنوات. هل يمكن أن تضع يديها على نسخة، يفضل ألا تكون بالهولندية، وتُضيف سيلين إلى كلمتها؟

لكن بول ويست ليس سيلين، لا يشبهه. الولع بالسادية هو بالضبط ما لا يفعله ويست؛ بالإضافة إلى أن كتابه يذكر اليهود بالكاد. الهلع الذى يكشف اللثام عنه مثال فريد[2] لابد أن ذلك كان رهانه مع

(١) سيلين : Céline (١٨٩٤ ـ ١٩٦١) كاتب وطبيب فرنسى. من أكثر الكُتَّاب تأثيرا فى القرن العشرين، أثار كثيرًا من الخلافات بسبب معتقداته السياسية ومواقفه أثناء الحرب العالمية الثانية.

(٢) باللاتينية فى الأصل.

www.ibtesama.com

نفسه: أن يكون موضوعه حفنة من الضباط الألمان المقهورين غير الملائمين بالشفرة نفسها، شفرة تنشئتهم للتخطيط لاغتيال وتنفيذه، ليروى قصة حماقتهم وتوابعها من البداية إلى النهاية، ويترك المرء وهو يشعر، فى دهشة، بشفقة حقيقية، وهلع حقيقى.

قالت ذات مرة، كل الشرف لكاتب يحمل على عاتقه تتبع هذه القصة إلى أكثر ثناياها ظلمة. الآن ليست متأكدة. هذا ما يبدو أنه تغير فيها. على أية حال، سيلين ليس على هذه الشاكلة، سيلين لن يكون مناسبا.

على ظهر مركب راسٍ قبالتها يجلس زوجان إلى طاولة يتحدثان ويشربان البيرة. يثير ركاب الدراجات جلبة. بعد ظهيرة عادية فى يوم عادى فى هولندا. هل قطعت آلاف الأميال لتسبح بدقة فى هذا التنوع العادى، هل لابد أن تتخلى عنه لتجلس فى غرفتها تكافح مع نص لمؤتمر ينسى خلال أسبوع؟ ولأى هدف؟ لتنقذ رجلا لم تقابله أبدا من الارتباك؟ فى التخطيط الأعظم للأشياء ماذا تعنى لحظة من الارتباك؟ لا تعرف كم يبلغ بول ويست من العمر- أليس مكتوبًا على غلاف كتابه، ربما تعود الصورة الفوتوغرافية لسنوات مضت- لكنها على يقين من أنه ليس صغيرًا. ربما هو وهى، بطريقتين مختلفتين، ليسا كبيرين بما يكفى ليبتعدا عن الارتباك؟

تعود للفندق فتجد رسالة للاتصال بهنك بادنجز، رجل من الجامعة الحرة كانت تراسله. يسأل بادنجز،

www.ibtesama.com

هل كانت الرحلة طيبة؟ هل تقيم إقامة مريحة؟ هل تود الانضمام إليه هو وواحد أو اثنين من الضيوف الآخرين على العشاء؟ ترد، أشكرك، لكن لا: تفضل ليلة مبكرة. وقفة، ثم تطرح سؤالها. الروائى بول ويست: هل وصل إلى أمستردام؟ نعم، يأتى رد بادنجز: لم يصل بول ويست فقط، ولكن يسعدها أن تعرف أنه يقيم معها فى الفندق نفسه.

إذا كانت فى حاجة لشىء يثيرها، فهو هذا. من غير المتوقع أن يجد بول ويست نفسه يتشاجر مع امرأة تعنفه على الملأ كساذج خدعه الشيطان. عليها أن تحذفه من الكلمة أو عليها أن تنسحب، هذا كل شىء.

تبقى طوال الليل تكافح مع المحاضرة. تحاول فى البداية حذف إسم ويست. تسمى الكتاب، **رواية جديدة، تصدر عن ألمانيا**. لكن ذلك بالطبع غير مناسب. حتى لو خُدِع معظم مستمعيها، فسيعرف ويست أنها تقصده.

ماذا لو تحاول أن تخفف من حدة بحثها؟ ماذا لو تقترح، فى تمثيل أعمال الشر، أن الكاتب قد يجعل الشر، **بدون قصد**، يبدو جذابا، فيؤذى أكثر مما ينفع؟ هل سيخفف ذلك من العاصفة؟ تشطب الفقرة الأولى من الصفحة الثامنة، بداية الصفحات السيئة، ثم الثانية، ثم الثالثة، وتبدأ فى كتابة التعديلات فى الحواشى، ثم تحدق بفزع فى الفوضى. لماذا لم تنسخ نسخة قبل أن تبدأ؟

www.ibtesama.com

الشاب الذى يجلس على طاولة الاستقبال ويضع سماعات، يهز كتفيه من جانب إلى آخر. ينتبه حين يراها. تقول: "آلة تصوير. هل توجد آلة تصوير يمكن أن أستخدمها؟"

يأخذ مجموعة الأوراق، ويلقى نظرة على العنوان. الفندق يعقد فيه الكثير من المؤتمرات، لابد أنه اعتاد على الغرباء الغارقين فى تنقيح محاضراتهم فى منتصف الليل. حياة النجوم الصغيرة. محصول ينتج فى بنجلاديش. الروح وفسادها المتنوع. الكل سواء بالنسبة له.

تتقدم، والنسخة فى يدها، لتخفيف حدة كلمتها، لكن الشك يزداد ويزداد فى قلبها. الكاتب كساذج يتبع الشيطان: أى هراء! بشكل لا يمكن تجنبه تتجادل مع نفسها وكأنها رقيب من الطراز القديم. ما مبرر كل هذا الجُبّن على أية حال؟ لإحباط فضيحة تافهة؟ من أين يأتى خوفها من الاتهام؟ ستموت عما قريب. ما القضية إذن إذا أزعجت ذات مرة شخصا غريبا فى أمستردام؟

تتذكر أنها وهى فى الثامنة عشرة، سمحت لنفسها أن تُلتَقَط من على جسر فى شارع سبنسر بالقرب من المياه فى ملبورن، وكانت منطقة وعرة فى ذلك الوقت. كان الرجل عاملاً فى حوض للسفن، فى الثلاثينيات من عمره، جميل بشكل فج، كان يسمى نفسه تيم أو توم. كانت طالبة فى الفنون ومتمردة، متمردة أساسًا على خلفيتها: الاحترام، البرجوازية

www.ibtesama.com

الصغيرة، الكاثوليكية. لم يكن أصيل فى عينيها، فى تلك الأيام، إلا الطبقة العاملة وقيم الطبقة العاملة.

أخذها تيم أو توم إلى بار وبعد ذلك إلى البنسيون الذى كان يعيش فيه. لم تكن قد فعلت ذلك من قبل، النوم مع رجل غريب؛ فى الدقيقة الأخيرة لم تستطع أن تسايره. قالتْ: "آسفة. آسفة حقًا، يمكن أن نتوقف." لكن تيم أو توم لم يكن ليسمع. حين قاومتْ، حاول أن يرغمها. لوقت طويل، فى صمت، لاهثة، قاومته، بالدفع والخربشة. اتخذها لعبة منذ البداية. ثم أرهق من ذلك، أو أُرهِقتْ رغبته، وتحول إلى شىء آخر، وبدأ يضربها بعنف. رفعها من على السرير، ضربها فى ثدييها، ضربها فى بطنها، ضربها ضربة رهيبة بكوعه فى وجهها. حين ملَّ من ضربها مزق ثيابها وحاول أن يشعل النار فيها فى سلة النفايات. عارية تمامًا، زحفت واختبأت فى الحمام على السلم. وبعد ساعة، حين تأكدت أنه نائم، زحفت عائدة واستردت ما بقى. أشارت لتاكسى وهى لا ترتدى إلا خِرَقًا محروقة من ملابسها. بقيت فى البداية لأسبوع مع صديقة، ثم مع أخرى، رافضة أن تفسر ما حدث. انكسر فكها؛ وكان لابد من خياطته؛ عاشت على اللبن وعصير البرتقال، وكانت تمصه من خلال ماصة.

كان أول اصطدام لها بالشر. أدركت أنه لم يكن أقل من الشر، حين خمد تحدى الرجل وحلت مكانه غبطة ثابتة فى إيذائها. أحبَّ إيذاءها، كان يمكنها أن ترى ذلك؛ ربما أحبَّ ذلك أكثر مما أحب الجنس. ومع

www.ibtesama.com

ذلك ربما لم يكن يعرف ذلك حين التقطها، أنه اصطحبها إلى غرفته ليؤذيها بدلاً من أن يمارس الحب معها. بمقاومتها له خلقتْ فتحة انبثق منها الشر، انبثق على شكل غبطة، فى البداية من ألمها (همس وهو يثنى حلمتيها: "تحبين ذلك، أليس كذلك؟ تحبين ذلك؟")، ثم فى التدمير الصبيانى الخبيث لملابسها.

لماذا يعود تفكيرها إلى هذا الماضى البعيد وحادثة غير مهمة- حقا؟ الإجابة: لأنها لم تكشفها أبدا أكثر من ذلك، ولم تستخدمها أبدا. لا يوجد فى قصة من قصصها اعتداء جسدى لرجل على امرأة انتقاما لرفضها. ما حدث فى البنسيون يخصها ويخصها وحدها إلا إذا كان تيم أو توم نفسه قد بقى على قيد الحياة حتى بلغ خرف الشيخوخة، إلا إذا حفظت لجنة المراقبين الملائكيين دقائق ما حدث فى تلك الليلة. على مدى نصف قرن استقرت الذكرى فى أعماقها مثل بيضة، بيضة من الحجر، بيضة لن تفتح أبدًا، لن تفقس أبدا. ترى ذلك حسنا، يسرها، صمتها هذا، صمت تتمنى أن تحافظ عليه حتى القبر.

هل ما تحتاج إليه من ويست قدرا مساويًا من التكتم: قصة عن مؤامرة اغتيال لا يقول فيها ما حدث للمتآمرين حين سقطوا فى أيدى أعدائهم؟ لا، بالتأكيد. ماذا تريد إذًا أن تقول بالضبط لهذا الجمع من الغرباء بعد- تلقى نظرة على ساعتها - أقل من ثمانى ساعات؟

www.ibtesama.com

تحاول أن تصفى ذهنها، أن تعود للبدايات. ماذا انبثق داخلها بغضب ضد ويست وكتابه حين قرأته أول مرة؟ كتقريب أولى، أعاد هتلر وسفاحيه إلى الحياة، ومنحهم نفوذا جديدا على العالم. حسن جدا. لكن ما الخطأ فى ذلك؟ ويست روائى، مثلها؛ كل منهما يكسب قوته بحكى القصص أو إعادة حكيها؛ وفى قصصهما، إذا كانت قصصهما على قدر من الجودة، شخصيات، حتى سفاحون، يعيشون حياتهم الخاصة. كيف يمكن إذًا أن تكون أفضل من ويست؟

الإجابة، بقدر ما يمكن أن ترى: لم تعد تؤمن أن حكى القصص حسن فى ذاته، بينما يبدو أن السؤال لم يكن مطروحًا على ويست، أو على الأقل ويست كما كان حين كتب كتاب ستوفنبرج. إذا كان عليها، كما فى هذه الأيام، أن تختار بين حكى قصة وعملٍ خيِّر، فستفضل، كما تعتقد، عمل الخير. سيفضل ويست، كما تعتقد، حكى قصة، مع أنه قد يكون عليها أن تعلق الحُكْم حتى تسمعه من شفتيه.

ثمة أشياء كثيرة تشبه عملية حكى القصص. أحدها (هذا ما تقوله فى فقرة لم تشطبها بعد) قارورة بها جن. حين يفتح راوى القصة القارورة، ينطلق الجن فى العالم، وستكون إعادته إلى القارورة مرة أخرى باهظة التكلفة. وضعها، وضعها المعدَّل، وضعها فى شفق الحياة: أفضل، على العموم، أن يبقى الجن فى القنينة.

www.ibtesama.com

حكمة التشبيه، حكمة القرون (وهذا سبب تفضيلها أن تفكر بالتشبيه بدلا من فهم الأشياء بالعقل)، أن تقود الجن فى صمت وتغلق عليه القارورة. تقول: من الأفضل أن يبقى الجن سجينا.

جن أو شيطان. ليس لديها أدنى شك فى الشيطان، مع فكرتها الواهية عما قد يعنيه الإيمان بالرب. الشيطان فى كل مكان تحت جلد كل شىء، يبحث عن مخرج للنور. دخل الشيطان العامل فى حوض السفن فى تلك الليلة فى شارع سبنسر، دخل الشيطان سفاح هتلر. ومن خلال العامل، طوال ذلك الزمن، دخلها الشيطان: يمكن أن تشعر به جاثمًا فى الداخل، جاثما مثل طائر، فى انتظار فرصة للطيران. ومن خلال سفاح هتلر دخل شيطانٌ بول ويست، وقد أعطى ويست فى كتابه ذلك الشيطان حريته، وأطلقه على العالم. شعرتُ بحركة جناحه الجلدى، بنعومة، وهى تقرأ تلك الصفحات السوداء.

تدرك تمامًا كم يبدو ذلك قديمًا. سيجد ويست مدافعين بالآلاف. يقول هؤلاء المدافعون: **كيف يمكن أن نعرف هلع النازيين، إذا منع فنانونا من جلبهم للحياة من أجلنا؟ بول ويست ليس شيطانا بل بطلا: غامر بالدخول إلى متاهة الماضى الأوروبى وواجه الشبح**(*) وعاد ليحكى حكايته.

* الشبح أو Minotaur مسخ نصفه إنسان ونصفه ثور كانت تتم التضحية له بفتيان أثينا وفتياتها حتى قتله تيسيوس Theseus بطل أثينا وملكها.

www.ibtesama.com

ماذا يمكن أن تقول فى الرد؟ كان من الأفضل لو بقى بطلنا فى البيت، أو على الأقل احتفظ بمآثره لنفسه؟ فى الأوقات التى يتشبث فيها الفنانون بأسمال الكرامة التى تركوها، أى عرفان بالجميل يجلبه لها هذا النوع من الإجابة بين الرفاق الكُتَّاب؟ سيقولون: **تهوى بنا إلى الحضيض، إليزابيث كستلو تحولت إلى الأم جرندى العجوز.**

تتمنى لو كانت معها "**الساعات الغنية جدا للكونت فون ستوفنبرج**". هل يمكن أن تلقى مجرد نظرة على تلك الصفحات، تمرر عينيها عليها، فتتلاشى كل شكوكها، إنها متأكدة، على الصفحات التى يعطى فيها ويست للسفاح، الجزار- نسيت اسمه لكن لا يمكن أن تنسى يديه، بالضبط كما حمل ضحاياه ذكرى هاتين اليدين، وهما تتحسسان أعناقهم، معهم إلى الأبدية- حيث يعطى الجزار صوتا، سامحًا له أن يهزأ بطريقة قاسية، أسوأ من قاسية، لا يمكن وصفها، بارتجاف مسنين على وشك أن يقتلهم، يهزأ من الطريقة التى ستخدعهم بها أجسادهم وهى تقاوم بعناد وترقص فى نهاية الحبل. أمر مرعب، مرعب بطريقة لا توصف: مرعب وجود مثل هذا الرجل، والأكثر رعبا سحبه من القبر وقد ظننا أنه ميت فى أمان.

فحش. تلك هى الكلمة، كلمة ذات أصل مختلف عليه، لابد أنها تحتفظ بها كطلسم. تختار أن تؤمن بأن تلك **البشاعة تعنى بعيداً عن الأنظار**. لنحمى

www.ibtesama.com

إنسانيتنا، بعض الأشياء التى قد نريد رؤيتها (**ربما نريد رؤيتها لأننا بشر!**) يجب أن تبقى بعيدًا عن الأنظار. كتب بول ويست كتابا فاحشا، كشف ما لا يجب كشفه. يجب أن يكون هذا خيط كلمتها حين تواجه الحشد، الذى يجب ألا تتركه ينصرف عنها.

يغلبها النوم على طاولة الكتابة، بكامل ثيابها، ورأسها على ذراعيها. فى السابعة يدق جرس المنبه. مترنحة، منهكة، تفعل ما تستطيع لتصلح وجهها وتنزل فى ذلك المصعد الصغير المضحك إلى اللوبى. "هل وصل مستر بول ويست؟" تسأل الولد الذى عند الطاولة، الولد ذاته.

"مستر ويست... أجل، مستر ويست فى الغرفة ٣١١".

تتدفق الشمس من نافذة غرفة الإفطار. تحضر لنفسها قهوة وبعض الكعك، تعثر على مقعد بالقرب من نافذة، تتفحص بعض الطيور الأخرى المبكرة. هل يمكن أن يكون الرجل القصير الممتلئ الذى يلبس نظارة ويقرأ الجريدة ويست؟ لا يشبه الصورة الفوتوغرافية التى على غلاف الكتاب، لكن ذلك لا يدل على شىء. هل تذهب إليه وتسأل؟ "مستر ويست، كيف حالك، أنا إليزابيث كستلو ولدىَّ قضية معقدة أود أن أطرحها، إذا استمعتَ إلىَّ. تتعلق بك وبتعاملك مع الشر." كيف يمكن أن يكون شعورها إذا فعل غريب ذلك معها وهى تتناول فطورها؟

www.ibtesama.com

تنهض، تشق طريقها بين الطاولات، آخذة الطريق الطويل إلى البوفيه. الصحفية التى يقرؤها الرجل هولندية، **صحيفة الشعب** [١] يوجد قشر شعر على ياقة سترته. يجدق إلى أعلى من تحت نظارته. وجه عادى هادئ. يمكن أن يكون أى شخص: تاجر أقمشة، بزوفيسور فى السنكريتية [٢] يمكن أيضا أن يكون شيطانا فى أحد أقنعته. تتردد، تمر.

الصحيفة الهولندية، قِشْر الشعر... ليس ذلك بول ويست ربما لا يقرأ الهولندية، ليس ذلك بول ويست ربما لا يكون هناك قشر فى شعره. ولكن إذا نصَّبتْ نفسها خبيرة فى الشر، ألا يجب أن تكون قادرة على شم الشر؟ ماذا تشبه رائحة الشر؟ الكبريت؟ البريمستون[٣] زيكلون بى [٤] أم أن الشر صار بلا لون وبلا رائحة، مثل بقية الأخلاقيات الأخرى فى العالم؟

***

فى الثامنة والنصف يتصل بها بادنجز. يتمشيان معا عبر بضعة مبانٍ إلى المسرح حيث يعقد المؤتمر.

---

(١) الفولك سكرانت de Volkskrant: جريدة هولندية يومية، ويعنى الاسم "صحيفة الشعب".

(٢) السنكرتية: لغة هندية قديمة، لغة الهندوسية والفيدا، اللغة الأدبية الكلاسيكية للهند.

(٣) البريمستون Brimstone : اسم قديم للكبريت.

(٤) زيكلون بى Zyklon B : الاسم التجارى لغاز مصنوع من مادة السيانيد استخدم لقتل أكثر من مليون شخص فى غرف الغاز فى الهولوكوست.

www.ibtesama.com

فى قاعة الاجتماعات يشير إلى رجل يجلس وحده فى الصف الخلفى. يقول بادنجز: "بول ويست. هل تودين أن أقدمك له؟"

مع أنه ليس الرجل الذى رأته على الإفطار، لا يبدو الاثنان مختلفين فى البنية، ربما حتى يبدوان متشابهين.

تهمهم: "ربما فيما بعد."

يستأذن بادنجز، يمضى ليتولى مهمته. هناك عشرون دقيقة قبل أن تبدأ الجلسة. تعبر القاعة. تقول بألطف ما تستطيع: "مستر ويست؟" سنوات على آخر مرة قامت فيها بما قد يسمى الخداع الأنثوى، لكنها ستستخدم الخداع إذا كان سيفى بالغرض. "هل يمكن أن أتكلم معك لحظة؟"

ويست، ويست الحقيقى، يرفع عينيه عما يقرأ، الذى يبدو، يا للغرابة، نوعا من الكتب المصورة.

تقول: "اسمى إليزابيث كستلو"، وتجلس بجانبه. "الأمر ليس سهلا بالنسبة لى، لذا دعنى أدخل فى الموضوع. تحتوى محاضرتى اليوم على إشارات إلى أحد كتبك، كتاب فون ستوفنبرج. فى الحقيقة، المحاضرة إلى حد كبير عن هذا الكتاب، وعنك كمؤلف له. حين أعددتُ المحاضرة لم أتوقع أن تكون فى أمستردام. لم يخبرنى المنظمون. لكن بالطبع، لماذا يخبروننى؟ لم تكن لديهم فكرة عما أنوى قوله."

تتوقف. يحدق ويست بعيدا، ولا يقدم لها أى عون.

www.ibtesama.com

"أستطيع، أفترض"، تواصل، وهى الآن لا تعرف حقا ما يأتى بعد ذلك، "أطلب عفوك مقدما، أطلب ألا تأخذ إشاراتى بشكل شخصى. لكن ربما تتساءل، بشكل مبرر تماما، لماذا أصر على وضع إشارات تحتاج مقدمًا إلى اعتذار، لماذا لا أحذفها ببساطة من المحاضرة.

"فكرتُ فعلا فى حذفها. جلستُ معظم الليلة السابقة، بعد أن سمعتُ أنك ستكون هنا، محاولة أن أجعل إشاراتى أقل حدة، أقل إزعاجا. حتى أننى فكرتُ فى أن أغيب تماما- متظاهرة بأننى معتلة. لكن ذلك ليس عدلا بالنسبة للمنظمين، ألا تعتقد ذلك؟"

افتتاحية، فرصة ليتكلم. يسلِّكُ حنجرته، لكنه لا يقول شيئا، يواصل التحديق بعيدا، مقدما لها صورة جانبية جميلة إلى حد ما.

تقول: "ما أقوله"، ملقية نظرة على ساعتها (عشر دقائق متبقية، بدأ المسرح يمتلئ، لابد أن تندفع مباشرة، لا وقت لتحرى الدقة)، "ما أناقشه هو أننا يجب أن نكون حذرين من هلع على شاكلة ما تصفه فى كتابك. نحن ككتَّاب. ليس فقط لمصلحة قرائنا لكن نتيجة لاهتمامنا بأنفسنا. يمكن أن نعرض أنفسنا للخطر بما نكتب، أو هذا ما أؤمن به. لأنه إذا كان لما نكتبه القدرة على أن يجعلنا أفضل فمن المؤكد أن له القدرة على أن يجعلنا أسوأ. لا أعرف ما إن كنت توافق."

www.ibtesama.com

افتتاحية مرة أخرى. مرة أخرى، بعناد يحافظ الرجل على صمته. ماذا يدور فى عقله؟ هل يتساءل عما يفعله فى هذه الجلسة فى هولندا، أرض طواحين الهواء والتوليب(*) وساحرة عجوز مجنونة تخاطبه، مع توقع أن عليه أن يجلس أثناء إلقاء الخطبة نفسها مرة ثانية؟ عليها أن تذكِّره: إن حياة الكاتب ليست حياة سهلة.

تستقر مجموعة من الشباب، ربما طلبة، فى المقاعد أمامهما مباشرة. لماذا لا يرد ويست؟ تتوتر؛ تنتابها رغبة ملحة فى رفع صوتها، وهز إصبعها النحيل فى وجهه.

"تأثرتُ بعمق بكتابك، أى أنه أثر علىَّ كما يؤثر حديد متوهج. بعض الصفحات احترقت بنيران الجحيم. يجب أن تعرف ما أتحدث عنه. مشهد الشنق خاصةً. أشك فى أننى أستطيع أن أكتب مثل تلك الصفحات بنفسى. أى أننى قد أستطيع كتابتها، لكننى لن أكتبها، لن أسمح لنفسى، لا أكثر، ليس كما أنا الآن. لا أعتقد أن أحدا يمكن أن يبتعد دون أن يتعرض للأذى، ككاتب، من استدعاء مثل هذه المشاهد. أعتقد أن كتابة من هذا النوع يمكن أن تؤذى المرء. هذا ما أنوى قوله فى محاضرتى." تمسك بالملف الأخضر الذى به نصها، تنقر عليه. "هكذا لا أطلب منك العفو، حتى لا أطلب منك التساهل، فقط افعل الشىء اللائق وأخبرك، محذرة إياك، مما هو

* التوليب tulips: نوع من الزهور متعددة الألوان.

www.ibtesama.com

على وشك الحدوث. لأن" (وفجأة تشعر أنها أقوى، أكثر ثقة فى نفسها، أكثر استعدادًا للتعبير عن توترها، وحتى عن غضبها، أمام هذا الرجل الذى لا يبالى بالرد عليها) "لأنك رغم كل شىء لست طفلا، لابد أنك تعرف الخطر الذى تتعرض له، لابد أن تدرك أن هناك نتائج، نتائج غير متوقعة، والآن، انظرْ"- تقف، تضم الملف على صدرها كما لو كانت تحمى نفسها من اللهب الذى يومض حوله- "وصلت النتائج. هذا كل شىء. أشكرك على سماعك لى، مستر ويست."

بادنجز، فى مقدمة القاعة، يشير بحذر. حان الموعد.

الجزء الأول من المحاضرة روتينى، يغطى أرضية مألوفة: التأليف والسلطة، ادعاءات الشعراء على مر العصور بأنهم يتحدثون عن حقيقة أسمى، حقيقة تكمن سلطتها فى الإلهام، ويدعون أكثر، فى العصور الرومانسية، التى يتصادف أن تكون عصور استكشافات جغرافية بشكل فريد، الحق فى المغامرة بالدخول فى الأماكن الممنوعة أو المحرَّمة.

تواصل: "السؤال الذى أطرحه اليوم، إن كان الفنان هو المستكشف البطل تماما كما يتظاهر، إن كنا محقين دائما حين نرحب به وهو يخرج من كهفه بسيف مضرج بالدماء فى يد ورأس الوحش فى الأخرى. لأوضح حالتى أشير إلى إنتاج المخيلة الذى ظهر منذ بضع سنوات، كتاب مهم وجرىء من نواح عديدة عن أقرب شبه، فى عصرنا المتحرر من

www.ibtesama.com

الأوهام، إلى وحش الأسطورة، أقصد أدولف هتلر. أشير إلى رواية بول ويست **'الساعات الغنية جدا للكونت فون ستوفنبرج'** وخاصة إلى الفصل التصويرى الذى يحكى فيه مستر ويست تنفيذ إعدامات يوليو١٩٤٤ فى المتآمرين (باستثناء فون ستوفنبرج، الذى أطلق النار عليه ضابط عسكرى متحمس جدا، لتكدير هتلر، الذى كان يريد لعدوه أن يموت ميتة بطيئة).

"إذا كانت هذه محاضرة عادية لقرأتُ لكم هنا فقرة أو فقرتين، لتشعروا بهذا الكتاب غير العادى. (ليس سرا، بالمناسبة، أن مؤلفه بيننا. دعونى أستجدى عفو مستر ويست على جرأتى على إلقاء محاضرة عنه فى وجوده: حين كتبتُ كلمتى لم أكن أعرف بوجوده هنا.) كان علىَّ أن أقرأ لكم من تلك الصفحات المرعبة، لكننى لن أقرأ، لأننى لا أؤمن بأنه سيكون عملا طيبا لكم أو لى أن نسمعها. حتى أننى أؤكد (وهنا أدخل فى الموضوع) أننى لا أعتقد أنه كان من المناسب لمستر ويست، إذا سامحنى على هذا الكلام، أن يكتب تلك الصفحات.

"هذا بحثى اليوم: هناك أشياء معينة ليس من المناسب أن نقرأها أو **نكتبها**. ولصياغة القضية بطريقة أخرى: أتعامل بجدية مع ادعاء أن الفنان يتعرض لقدر كبير من الخطر بالمغامرة بالدخول إلى الأماكن المحرمة: يعرِّض نفسه بشكل خاص للخطر؛ وربما يعرض الجميع للخطر. أتعامل مع هذا الادعاء

www.ibtesama.com

بجدية لأننى أتعامل بجدية مع تحريم الأماكن المحرمة. القبو الذى شُنِق فيه المتآمرون فى يوليو١٩٤٤ من هذه الأماكن المحرمة. لا أعتقد أن علينا، على أى منا، دخول ذلك القبو. لا أعتقد أن على مستر ويست أن يذهب إلى هناك؛ وإذا اختار أن يذهب رغم ذلك، أعتقد أن علينا ألا نتبعه. على العكس، أعتقد أنه يجب وضع حواجز على مدخل القبو، مع لوحة تذكارية برونزية مكتوب عليها **هنا مات**... بعدها قائمة بالموتى وتاريخ موتهم، هكذا يجب أن تكون الأمور.

"مستر ويست كاتب، أو اعتادوا أن يقولوا ذات يوم إنه شاعر. أنا أيضا شاعرة. لم أقرأ كل ما كتب مستر ويست، لكن يكفى أن أعرف أنه يتعامل مع حرفته بجدية. وهكذا لا أقرأ مستر ويست، حين أقرؤه، باحترام فقط بل بتعاطف.

"قرأتُ كتاب فون ستوفنبرج بتعاطف، لا أستثنى (يجب أن تصدقونى) مشاهد الإعدام، لدرجة أننى قد أكون مثل مستر ويست الذى أمسك بالقلم وتتبع الكلمات. أرافقه إلى الظلام كلمة كلمة، خطوة خطوة، نبضة نبضة. أسمعه يهمس، وأهمس أنا أيضا، كأن نفَسى ونفَسه امتزجا: **لم يكن هنا أحد من قبل؛ لم يدخل أحد هذا المكان منذ دخله الرجال الذين ماتوا والرجل الذى قتلهم. موتنا هو الموت الذى سيموت، يدنا هى اليد التى ستعقد الحبل.** (أمر هتلر رجله: "استخدم حبلا رفيعا. اشنقهم. أريد أن يشعروا بأنهم يموتون." وأطاع رجلُه، صنيعه، وحشُه.)

www.ibtesama.com

"أى غطرسة، أن نراهن على ادعاء معاناة هؤلاء الرجال الجديرين بالشفقة وموتهم! ساعاتهم الأخيرة تخصهم وحدهم، ليست ساعاتنا لندخلها ونمتلكها. إذا كان ذلك ليس شيئا حسنا نقوله عن زميل، إذا كان ذلك سيسهل اللحظة، يمكن أن نتظاهر بأن الكتاب لم يعد كتاب مستر ويست بل كتابى، صار كتابى بجنون قراءتى. بصرف النظر عن التظاهر الذى نحتاج إلى تبنيه، دعونا بحق السماء نتبناه ونواصل."

ثمة صفحات أخرى عليها أن تقرأها، لكنها تتوتر فجأة ولا تستطيع مواصلة القراءة، أو تخذلها الروح. محاضرة دينية: لتنتهِ هنا. الموت مسألة خاصة؛ ليس للفنان أن يقتحم موت الآخرين. موقف شنيع بقسوة فى عالم اعتاد تسليط عدسات الكاميرات على وجوه الجرحى والمحتضرين.

تغلق الملف الأخضر. موجة هادئة من التصفيق. تنظر إلى ساعتها. خمس دقائق على انتهاء الجلسة. اندهشت طويلا من قلة ما قالته بالفعل. وقت لسؤال، أو اثنين على الأكثر، شكرا للرب. رأسها يلف. تأمل ألا يطلب أحد أن تقول المزيد عن بول ويست، الذى، تراه (تضع نظارتها)، فى مكانه فى الصف الخلفى (تتذكر: **رفيق يعانى طويلا**، وتشعر تجاهه، فجأة، بمزيد من الود).

يرفع رجل بلحية سوداء يده. يقول: "كيف تعرفين؟ كيف تعرفين أن مستر ويست - يبدو أننا نتكلم كثيرًا عن مستر ويست اليوم، آمل أن يكون لمستر

www.ibtesama.com

ويست الحق فى الرد، من الممتع أن نسمع رده"- ابتسامات بين الجمهور- تعرض للأذى بما كتب؟ إذا كنتُ أفهمك فهما صحيحًا، تقولين إنك لو كتبتِ أنتِ نفسك هذا الكتاب عن فون ستوفنبرج وهتلر لأصابكِ الشر النازى. لكن ربما يعنى كل ذلك أنك، إذا جاز التعبير، إناء هش. ربما خلق مستر ويست من مادة أصلب. وربما نحن، قراؤه، خلقنا من مادة أصلب أيضا. ربما نستطيع قراءة ما يكتب مستر ويست والتعلم منه، ونخرج أقوى لا أضعف، وأكثر عزيمة على ألا ندع الشر يعود. هل تهتمين بالتعليق؟"

تعرف الآن أنه كان عليها ألا تأتى أبدا، ألا تقبل الدعوة أبدا. ليس لأنها ليس لديها ما تقوله عن الشر، مشكلة الشر، مشكلة تسمية الشر مشكلة، وليس حتى لسوء الحظ وحضور ويست، ولكن لأنه تم الوصول إلى أقصى، أقصى ما يمكن أن يُنجَز مع مجموعة من المثقفين الحديثين المتوازنين فى قاعة محاضرات نظيفة وجيدة الإضاءة فى مدينة أوروبية جيدة التنظيم والإدارة فى فجر القرن الحادى والعشرين.

"لستُ، على ما أعتقد"، تقول ببطء، تخرج الكلمات كلمة كلمة، كالحجارة، "إناءً هشًّا. ولا مستر ويست على ما أظن. الخبرة التى تقدمها الكتابة، أو القراءة- إنهما الشىء ذاته، بالنسبة لأهدافى، هنا، اليوم-" (لكن هل هما الشىء نفسه، حقا؟"- تفقد مسارها، ما مسارها؟) "الكتابة الحقيقية، القراءة الحقيقية، ليست نسبية، نسبية بالنسبة للكاتب

www.ibtesama.com

وقدرات الكاتب، نسبية بالنسبة للقارئ" (لا يعلم إلا الرب منذ متى لم تنم، ما مر عن النوم على الطائرة ليس نوما). " مس مستر ويست، حين كتب تلك الفصول، شيئًا مطلقا. شرا مطلقا. نعمته ونقمته، كما يمكن أن أقول. بقراءته نُقِل هذا المس الشرير إلىَّ. كالصدمة. كالكهرباء." تنظر إلى بادنجز، واقفا فى الكواليس. تقول نظرتها: **ساعدنى، ضعْ نهاية لهذا.** "شىء لا يمكن توضيحه"، متحولة مرة أخيرة لسائلها. "شىء يمكن تجربته فقط. ومع ذلك، أنصح بألا تحاول أن تجربه. لن تتعلم من تجربة بهذا الشكل. لن تكون طيبة بالنسبة لك. هذا ما أردتُ قوله اليوم. شكرا."

تحاول، والجمهور ينهض ويتفرق (حان الوقت لكوب من القهوة، كفاية من هذه المرأة الغريبة من أستراليا المحيِّرة، ماذا يعرفون عن الشر هناك؟)، أن تثبت عينها على بول ويست فى الصف الخلفى. إذا كانت هناك أية حقيقة فيما قالت (لكنها مفعمة بالشك، واليأس أيضا)، إذا كانت كهرباء الشر قفزت حقا من هتلر إلى جزار هتلر ومنه إلى بول ويست، فمن المؤكد أنه سيعطى إشارة. لكن ليست هناك إشارة يمكن أن تحددها، من هذه المسافة، مجرد رجل أسود يرتدى ملابس سوداء فى طريقه إلى آلة القهوة.

بادنجز عند كوعها. يهمهم، قائما بمهمة المضيف. تصافحه، ليس لديها أية رغبة فى أن تهدأ. ورأسها إلى أسفل، لا تلتقى بعين أى شخص، تشق طريقها إلى غرفة السيدات وتغلق على نفسها فى مهجع.

www.ibtesama.com

ابتذال الشر. هل هذا سبب عدم وجود أية إشارة أو بادرة؟ هل تقاعد الأبالسة الكبيرة، أبالسة دانتى وميلتون إلى الأبد، وأخذت مكانهم زمرة من الشياطين الصغيرة المغبرة التى تجثم على كتف المرء مثل الببغاوات، ولا تقدم أى وهج، لكنها، على العكس، تمتص الضوء؟ أم أن كل ما قالتْ، كل إشاراتها واتهاماتها، لا يتسم بالعناد فقط لكنه جنون، جنون مطلق؟ ما مهمة الروائى، رغم كل شىء، ماذا كانت مهمة حياتها هى نفسها، إلا أن يبث الحياة فى المادة الخاملة؛ ولم يفعل بول ويست، كرجل برمح حاد، إلا أن بث الحياة، أعاد الحياة، فى تاريخ ما حدث فى ذلك القبو فى برلين؟ ما جاءت إلى أمستردام لتعرضه على هؤلاء الغرباء المحيرين ليس إلا هاجسًا، هاجسًا يخصها وحدها ولا تفهمه بجلاء؟

فحش. العودة إلى الكلمة السحرية، القبض عليها بثقة. القبض بثقة على الكلمة، والوصول إلى الخبرة التى وراءها: كانت تلك هى القاعدة التى تتبعها دائما حين تشعر أنها تنزلق إلى التجريد. ماذا كانت خبرتها؟ ماذا حدث وهى جالسة تقرأ الكتاب الملعون على العشب فى صباح ذلك السبت؟ ماذا أزعجها إلى هذا الحد حتى أنها بعد ذلك بسنة مازالت تقتلع جذوره؟ هل يمكن أن تجد طريق العودة؟

عرفتْ، قبل أن تبدأ الكتاب، قصة متآمرى يوليو، عرفت أنه قبض عليهم بعد أيام من محاولتهم اغتيال هتلر، على معظمهم، وحوكموا وأعدموا. وعرفت،

www.ibtesama.com

عمومًا، أنهم ماتوا بالوحشية الخبيثة التى تخصص فيها هتلر وأزلامه. ومن ثم لم يأت شىء فى الكتاب بدهشة حقيقية.

تعود إلى السفاح، بصرف النظر عن اسمه. فى هزئه برجال كانوا على وشك الموت بين يديه بطاقةٍ مبهجة **فاحشة** زادت من جريمته. من أين أتت هذه الطاقة؟ بالنسبة لها سمَّتْها شيطانية، لكنها ربما تتخلى عن تلك الكلمة الآن. لأن الطاقة جاءت، بمعنى معين، من ويست نفسه. ابتكر ويست الهزء (الهزء الإنجليزية، لا الألمانية)، ووضعه فى فم السفاح. توافق الكلام مع الشخصية: ما الشيطانى فى ذلك؟ تفعل هى نفسها ذلك طوال الوقت.

العودة. العودة إلى ملبورن، إلى صباح السبت حين شعرت، يمكنها أن تقسم، بلمسة جناح الشيطان، الجناح القوى الساخن. هل كانت تهذى؟ قالت لنفسها: **لا أريد أن أقرأ هذا**؛ إلا أنها واصلت القراءة، مستثارة رغما عنها. **الشيطان يقودنى**: أى عذر هذا؟

لم يفعل بول ويست إلا واجبه ككاتب. كان يفتح عينيها، فى شخصية سفاحه، على فسق بشرى فى شكل آخر من أشكاله المتعددة. كان يذكِّرها، فى شخصيات ضحايا السفاح، بالمخلوقات المسكينة المشتتة المرتجفة التى هى نحن جميعا. ما الخطأ فى ذلك؟

ماذا قالت؟ لا أريد أن أقرأ هذا. لكن أى صواب فى أن ترفض؟ أى صواب فى ألا تعرف، بكل معنى

www.ibtesama.com

الكلمة، ما كانت تعرفه بالفعل؟ ماذا كان يريد أن يقاوم فيها، أن يرفض الكأس؟ ولماذا شربته رغم ذلك- شربته كله حتى أنها بعد عام مازالت تحتج على الرجل الذى وضعه على شفتيها؟

لو كانت هناك مرآة على ظهر هذا الباب بدلا من مجرد خُطَّاف، إذا كان لها أن تخلع ملابسها وتركع أمام المرآة، هى، بثدييها المرتخيين وردفيها المغضنين، قد تبدو أكثر شبها بالنساء فى تلك الصور الفوتوغرافية الحميمة، الأكثر من حميمة، من الحرب الأوروبية، أولئك الناظرات إلى الجحيم، اللائى ركعن عاريات على حافة خندق سيسقطن فيه، فى الدقيقة التالية، فى الثانية التالية، ميتات أو محتضرات بطلقة فى المخ، باستثناء أن أولئك النساء لم يكن فى معظم الحالات مسنات مثلها، منهكات فقط من سوء التغذية والرعب. لديها شعور بأولئك الأخوات الميتات، وبالرجال أيضا الذين ماتوا فى أيدى الجزارين، رجال مسنين مروعين بما يكفى لأن يكونوا أخوتها. لا تحب أن ترى أخواتها وأخوتها مهانين، بالطريقة التى يسهل بها إهانة المسنين، بتعريتهم، على سبيل المثال، وخلع أطقم أسنانهم، والسخرية من أجزائهم الخاصة. إذا كان أخوتها، فى ذلك اليوم فى برلين، على وشك أن يُشنَقوا، إذا كانوا سيهتزون فى نهاية حبل، تحمر وجوههم، وتتدلى ألسنتهم وتجحظ عيونهم، فإنها لا تريد أن ترى. اعتدال أخت. دعنى أحولّ عينى بعيدا.

www.ibtesama.com

دعنى لا أنظر. كان ذلك هو الالتماس الذى وجهته إلى بول ويست (إلا أنها لم تكن قد رأت بول ويست حينذاك، كان مجرد اسم على غلاف كتاب). **لا تجعلنى أمضى معه!** لكن بول ويست لم يلطف بها. جعلها تقرأ، **أثارها** لتقرأ. لذلك لن تسامحه بسهولة. لذلك طاردته عبر البحار بطول الطريق إلى هولندا.

هل هذه هى الحقيقة؟ هل هذا يقدم تفسيرا؟

إلا أنها تفعل الشىء نفسه، أو اعتادت عليه. إلى أن فكرت فيه بشكل أفضل، لم يكن لديها ارتياب فى انزعاج الناس لما جرى، على سبيل المثال، فى المجازر. إذا لم يكن الشيطان متحفزًا فى المجزر، مسقطًا ظلال أجنحته على البهائم التى بركت على قوائمها الأمامية، وقد امتلأت أنوفها برائحة الموت، تجاه الرجل الذى يحمل البندقية والسكين، رجل قاس **وتافه** (مع أنها بدأت تشعر أن تلك الكلمة أيضا يجب أن تتوارى، كانت لها أيامها) مثلما كان رجل هتلر (الذى تعلم حرفته، مع ذلك، على البقر) ـ إذا لم يكن الشيطان متحفزا فى المجزر، فأين يكون؟ عرفتُ، ليس أقل من بول ويست، كيف تلعب بالكلمات لتجعلها مناسبة، الكلمات التى قد ترسل صدمة كهربية فى نخاع القارئ. **جزارون بطريقتنا الخاصة**.

ماذا حدث لها الآن إذًا؟ الآن صارت متزمتة فجأة. لم تعد الآن تحب أن ترى نفسها فى المرآة، لأنها تجعلها تفكر فى الموت. الأشياء البشعة تفضل لفها وتخزينها فى دُرَج. عجوز تعيد الساعة إلى

www.ibtesama.com

الوراء، إلى ملبورن الأيرلندية الكاثوليكية فى طفولتها. هل هذا كل ما تعنيه؟

العودة إلى الخبرة. خفق الجناح القوى، جناح الشيطان: ما الذى منحها هذه القناعة التى شعرتْ بها؟ وإلى أى مدى تستطيع أن تحتل مهجعا من المهجعين الموجودين فى هذه الغرفة الصغيرة الضيقة المخصصة للنساء قبل أن يقرر شخص حسن النية أنها أصيبتْ بانهيار ويستدعى البواب لكسر القفل؟

القرن العشرون قرن سيدنا، قرن الشيطان، انتهى ورحل. قرن الشيطان وقرنها أيضا. إذا حدث أن زحفت على خط النهاية إلى العصر الجديد، فمن المؤكد أنها ليست فى الوطن. فى هذه الأوقات غير المألوفة مازال الشيطان يتحسس طريقه، مجرِّبا حيلا جديدة، صانعًا تجهيزات جديدة. ينصب خيمته فى أماكن غريبة - على سبيل المثال فى بول ويست، رجل طيب، بكل ما تعرفه، أو طيب كرجل يمكن أن يكون روائيا أيضا، بمعنى، ربما لا يكون طيبا على الإطلاق، لكنه يميل مع ذلك لأن يكون رجلا طيبا، بمعنى جوهرى، وإلا لماذا يكتب؟ يسكن النساء أيضا. مثل ثقابة الكبد(*)مثل الدودة الشريطية: يمكن أن يعيش المرء ويموت جاهلا أنه كان مضيفا لأجيال منها. فى كبده، فى أمعائه كان الشيطان، ذلك يوم مشئوم فى السنة الأخيرة حين شعرتْ مرة أخرى، بلا شك، بوجوده: فى ويست أم فى نفسها؟

(*) ثقابة الكبد liver fluke: نوع من الديدان الطفيلية التى تصيب كبد أنواع مختلفة من الحيوانات بما فى ذلك الإنسان.

www.ibtesama.com

رجال مسنون، أخوة، موتى مشنوقون وبناطيلهم حول كواحلهم، مثيرون. فى روما كان الأمر مختلفا. فى روما صنعوا عرضا للإعدامات: سحبوا ضحاياهم بين جماهير صائحة إلى موضع الجماجم وخوزقوهم أو سلخوهم أو غطوهم بالزفت وأشعلوا النار فيهم. النازيون، بالمقارنة، معتدلون بسطاء يطلقون البنادق الآلية على الناس فى ميدان، يقتلون بالغاز فى غرف محصنة، يشنقونهم فى قبو. ومن ثم ما الذى كان كثيرا جدا فى الموت على أيدى النازيين ولم يكن كثيرًا جدا فى روما، حين كان كل كفاح روما أن ينتزعوا من الموت أقصى قدر ممكن من الوحشية والألم؟ هل مجرد حقارة ذلك القبو فى برلين، حقارة تشبه كثيرا جدا الشىء الحقيقى، الشىء الحديث، أكثر من أن تحتملها؟

يشبه حائط تقابله مرة بعد أخرى. لم تكن تريد أن تقرأ لكنها قرأت؛ عنف تم معها لكنها ساهمت فى الاعتداء. تقول **جعلنى أفعلها**، إلا أنها تجعل آخرين يفعلونها.

كان عليها ألا تأتى أبدا. المؤتمرات لتبادل الأفكار، هذه، على الأقل، الفكرة من وراء المؤتمرات. لا تستطيع تبادل الأفكار حين لا تعرف ما تفكر فيه.

ثمة خربشة على الباب، صوت طفلة. "ماما، امرأة فى الداخل، أستطيع أن أرى حذاءها!"(*)

(*) بالهولندية فى الأصل.

www.ibtesama.com

باستعجال تعثر على الفتحة، تفتح الباب، تظهر. تقول: "آسفة"، متجنبة عيون الأم وابنتها.

ماذا كانت تقول الطفلة؟ **لماذا تستغرق كل هذا الوقت؟** إذا كانت تتكلم اللغة لكان باستطاعتها أن تُفهِم الطفلةَ. **لأنك كلما كبرتِ كلما استغرق الأمر وقتا أطول. لأنك تحتاجين أحيانا إلى أن تكونى وحدك. لأن هناك أشياء لا نفعلها على الملأ، ليس إلا.**

أخوتها: هل تركوهم يستخدمون التوليت مرة أخيرة، أم كان تبرزهم على أنفسهم جزءا من العقاب؟ هذا، على الأقل، أمر وضع عليه بول ويست نقابا، لتحل به الرحمة من أجل ذلك، شكرًا.

لم يكن أحد لينظفهم، رغم كل شىء. عمل النساء فى ذلك الوقت موغل فى القدم. لا وجود للمرأة فى مهمة القبو. الدخول يقتصر على الرجال فقط. لكن ربما حين انتهى كل شىء، حين لمستْ أصابع الفجر الوردية السماوات الشرقية، وصلت النساء، نساء النظافة الألمانيات الخارجات من أعمال بريخت، وأخذن ينظفن الفوضى، ويغسلن الجدران، ويفركن الأرضية، جاعلات كل شىء يبدو نظيفا تماما، بحيث لا يمكنك أبدا أن تخمن، حين فعلن ذلك، أية لعبة لعبها الأولاد فى الليل. لا يمكن التخمين أبدا حتى أتى مستر ويست وفتحه تماما من جديد.

الحادية عشرة. الجلسة التالية، المحاضرة التالية، لابد أن تبدأ بالفعل. أمامها اختيار. يمكن أن تذهب

www.ibtesama.com

إلى الفندق وتختبئ فى غرفتها، وتواصل أساها؛ أو تتسحب إلى القاعة وتحتل مقعدا فى الصف الخلفى وتفعل الشىء الثانى الذى من أجله أتوا بها إلى أمستردام: تسمع ما على الناس الآخرين أن يقوله عن مشكلة الشر.

كان يجب أن يكون هناك بديل ثالث، شكل من قضاء الوقت المتبقى من الصباح وإعطائه شكلاً ومعنى: مواجهة تؤدى إلى كلمة أخيرة. كان يجب أن يكون هناك ترتيب بحيث تلتقى بشخص فى الدهليز، ربما بول ويست نفسه؛ يجب أن يحدث شىء بينهما، فجأة كالبرق، سينير المشهد لها، حتى لو عاد بعد ذلك إلى ظلمته الأصلية. لكن الدهليز خاوٍ، على ما يبدو.

●●●

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

(٧)
إيروس

التقتْ روبرت دونكان[١] مرة واحدة، فى ١٩٦٣ بعد رجوعها من أوروبا مباشرة، دونكان وشاعرًا آخر أقل أهمية اسمه فيليب والن [٢]جاءت بهما وكالة المعلومات الأمريكية فى جولة: كانت الحرب الباردة دائرة، وكانت هناك أموال للدعاية الثقافية. قدم دونكان ووالن قراءة فى جامعة ملبورن؛ بعد القراءة توجه الشاعران ورجل من القنصلية ومجموعة من الكُتَّاب الأستراليين من كل الأعمار، بما فيهم هى، إلى بار.

قرأ دونكان مطولته "قصيدة تبدأ ببيت لبندار[٣] فى تلك الليلة، وقد أثرت فيها وحركتها. انجذبتْ لدونكان، بشكله الرومانى الوسيم بشكل خطير؛ لم

(١) روبرت دونكان Robert Duncan (١٩١٩ ـ ١٩٨٨): شاعر أمريكى.

(٢) فيليب والن Philip Walen (١٩٢٣ ـ ٢٠٠٢) : شاعر أمريكى.

(٣) بندار Pindar (٥٢٢ ـ ٤٤٣قبل الميلاد): شاعر يونانى، يعتبر من أعظم الشعراء الغنائيين فى اليونان القديمة.

www.ibtesama.com

تفكر فى نزوة معه، ولا حتى، فى الحالة المزاجية التى كانت عليها فى تلك الأيام، فكرتْ فى أن يكون طفله المحبوب ابنها، كواحدة من أولئك السيدات الفانيات فى الأسطورة، اللائى حبلن من إله عابر وتركن لينجبن طفلا نصف إلهى.

تتذكر دونكان لأنها مرت فى كتاب أرسله صديق أمريكى للتو برواية أخرى لقصة "إيروس وسايك (١) من تأليف سوزان ميتشيل(٢) لم تقرأها من قبل. تتساءل: لماذا الاهتمام بسايك بين الشعراء الأمريكان؟ هل يجدون شيئا أمريكيا فيها، الفتاة التى لابد أن تشعل مصباحا، غير مقتنعة بالنشوة التى يقدمها لها الزائر إلى سريرها ليلة بعد ليلة، لتقشع الظلمة، وتنظر إليه عاريا؟ هل يرون، فى توترها، فى عجزها عن ترك البئر وحده، شيئا من أنفسهم؟

وهى أيضا ليست أقل فضولا بشأن الممارسات الجنسية بين الآلهة والفانيات، مع أنها لم تكتب عنها أبدا، ولا حتى فى كتابها عن ماريون بلوم وزوجها ليوبولد الذى طاردتّه الآلهة. تثير الميتافيزيقا فضولها أقل مما تثيره الميكانيكا، التطبيقات العملية لاجتماع

(١) إيروس وسايك Eros and Psyche إيروس إله الحب عند الإغريق وابن أفروديت. وسايك اسم المرأة التى أحبت إيروس وأحبها، وقد ارتبطت به بعد التغلب على غيرة أفروديت، واسمها يعنى الروح، وتعتبر تجسيدًا لها. وقد اشتق من اسمها علم النفس psychology والطب النفسى psychiatry.

(٢) سوزان ميتشيل Susan Mitchel (١٩٤٤ -) شاعرة أمريكية.

www.ibtesama.com

عبر فجوة فى الوجود. أمر بالغ السوء أن يكون هناك ذكر إوز عراقى ناضج يضرب ظهرك بأقدامه ذات الغشاء وهو يشق طريقه، أو ثور يزن طنا يميل بوزنه الرهيب عليك؛ كيف يتكيف الجسد الآدمى مع عاصفة رغبة الإله حين لا يهتم بتغيير شكله ويبقى بالصورة التى تبعث الرهبة فى النفس؟

لنقل لسوزان ميتشيل إن تلك الأسئلة لا تقلل منها. فى قصيدتها، يتمدد إيروس الذى يبدو أنه جعل نفسه فى حجم الإنسان لهذه المناسبة، فى سرير على ظهره وجناحاه مضمومان إلى جانبيه، والفتاة (التى يفترضها المرء) فوقه. يبدو أن بذرة الآلهة تتدفق هائلة (لابد أن هذه كانت خبرة مريم نيتشه أيضا، التى كانت لا تزال ترتجف رجفة خفيفة بعد أن استيقظت من حلمها ونَسْل الشبح المقدس ينساب فى ردفيها). حين يأتى حبيب سايك، يبقى جناحاه مبللين؛ أو ربما يقطِّران بذورا، ربما يصيران عضوين يستهلكان نفسيهما. كان ينهار أحيانا حين يصلان معا إلى الذروة، مثل (بكلمات ميتشيل إلى حد ما) طائر أصيب بطلقة وهو يطير. (تريد أن تسأل الشاعرة: **ماذا عن الفتاة - إذا كنت تستطيعين أن تقولى ماذا كان الأمر بالنسبة له، فلماذا لا تخبريننا عن الأمر بالنسبة لها؟**)

إلا أن ما كانت تريد حقا أن تتحدث عنه إلى روبرت دونكان، فى تلك الليلة فى ملبورن حين حدد بصرامة أنها لا تجذبه مهما قدمتْ، لم تكن الفتيات

www.ibtesama.com

التى تزورها الآلهة لكن الظاهرة الأكثر ندرة الخاصة برجال تعطفت عليهم إلهات. انخسيس، على سبيل المثال، عشيق افروديت ووالد إينياس[١] قد يفكر المرء، بعد حادث لا يمكن توقعه ونسيانه فى كوخه على جبل إدا[٢] انخسيس ـ ولد بهى الطلعة، إذا كان للمرء أن يصدق الترنيمة، وإلا فهو مجرد راعى ماشية- أراد ألا يتحدث عن شىء آخر، إلى من يسمع مهما يكن: كيف ضاجع إلهة، الأكثر نضارة فى الإسطبل كله، ضاجعها طوال الليل، وحملت منه أيضا.

الرجال وكلامهم الشهوانى. ليس لديها أية أوهام عن طريقة تعامل كائنات فانية مع آلهة، حقيقية أم مختلقة، قديمة أم حديثة، تسقط لسوء حظها فى أيديهم. تفكر فى فيلم رأته ذات يوم، ربما كتبه نتنيال ويست [٣] مع أن الأمر فى الحقيقة ليس كذلك: تلعب يسيكا لانج[٤] دور إلهة جنس من هوليود انهارت وينتهى بها الحال فى عنبر عام فى مصحة للمجانين، مخدرة، وقد بتر لها الفص الجبهى من المخ[٥] مربوطة

(١) إينياس Aeneas: بطل طروادة فى ملحمة فرجيل "الإنيادة"، وهو ابن انخسيس وأفروديت.

(٢) جبل إدا Ida : أعلى جبل فى جزيرة كريت وارتبط فى العصور القديمة بعبادة زيوس.

(٣) نتنيال ويست Nathanael West (١٩٠٣ ـ ١٩٤٠) روائى أمريكى.

(٤) يسيكا لانج Jessica Lange (١٩٤٩ ـ) ممثلة أمريكية.

(٥) إزالة الفص الأمامى من المخ lobotomy: عملية جراحية كانت تجرى لبعض من يعانون من اضطراب عقلى شديد ولا يستجيبون للعلاجات الأخرى.

www.ibtesama.com

فى سريرها، بينما الممرضات يبعن تذاكر لقضاء عشر دقائق معها فى كل مرة. يلهث أحد زبائنهن، دافعا دولاراته إليهن: "**أريد أن أضاجع نجمة سينمائية!**" فى صوته جانب سفلى بشع من الوثنية: الحقد والاستياء القاتل. جَلَبُ خالدة إلى الأرض، فُرْجتها على الحياة الحقيقية، الطَرْق عليها حتى تصبح فجة. **خذ ذلك! خذ ذلك!** مشهد حذفوه من نسخة معدة للتليفزيون، كان قريبا إلى هذا الحد من عظام أمريكا حتى تقطعه.

لكن الإلهة، فى حالة انخسيس، حذرت حبيبها، حين نهضت من سريره، بصراحة جميلة، من أن يفتح فمه. وهكذا لم يُترَك شىء لرفيق حصيف إلا أن يخسر نفسه، شىء أخير فى الليل، فى ذاكرة مشوشة: كيف كان الإحساس، لحم بشرى امتزج فى لحم إلهى؛ أم أنه، حين كان فى حالة مزاجية أكثر صحوا وأكثر ميلا للفلسفة، يتعجب: حيث أن الاندماج الجسدى لنوعين من الكائنات، وخاصة تفاعل الأعضاء البشرية مع ما يناظرها من أعضاء فى بيولوجيا الآلهة، مستحيل بكل معنى الكلمة، مستحيل طالما بقيت قوانين الطبيعة على حالها، أى نوع من الكائنات، أى هجين من جسد عبد وروح إله، لابد أنها كانت أفروديت الضحوك وقد تحولت إلى هذه الصورة، على مدى ليلة، لتنسجم معه؟ أين كانت الروح العظيمة حين أخذ فى ذراعيه الجسد الذى لا يضاهى؟ ستهلكت فى جزء منعزل، فى غدة ضئيلة فى نجمجمة، على سبيل المثال؛ أو انتشرت بدون أذى فى

www.ibtesama.com

الجسد كله كومضة، بشارة؟ إلا أنه حتى لو توارت روح الإلهة، لمصلحته، كيف لم يشعر، حين مسته أطرافها، بنيران الشهية الإلهية ـ شعر بها ولسعتْه؟ لماذا كان يجب أن يُكشَف له، فى الصباح التالى، عما حدث حقا ("لمس رأسها شعاع السقف، شع وجهها بجمال خالد، قالتْ: **استيقظ، انظر إلىَّ، ألا أشبه التى طرقت بابك الليلة الماضية؟**") ؟ كيف يمكن لأى شىء من هذا أن يحدث بدون أن يكون الرجل تحت تأثير الفتنة من البداية إلى النهاية، فتنة مثل مخدِّر لتغطية المعرفة المخيفة بأن العذراء التى خلع عنها ملابسها، وعانقها، وباعد ما بين فخذيها، واخترقها، خالدة، غيبة لحمايته من اللذة التى لا تحتمل، لذة ممارسة الحب كالآلهة، التى لا تسمح له إلا بالأحاسيس المملة لفانٍ؟ لماذا كان على إلهة، اختارت لنفسها حبيبا فانيا، أن تضع الحبيب نفسه تحت تأثير هذه الفتنة لفترة لا يكون فيها نفسه؟

هذا ما جرى مع انخسيس المسكين المرتبك، كما يمكن للمرء أن يخمن، بقية حياته: دوامة من الأسئلة، لا يجرؤ أن يبوح بأى منها لرفاقه من رعاة الماشية إلا فى أكثر الأشكال عمومية، خوفا من أن يسقط ميتا فى طريقه.

إلا أن الأمر لم يكن كذلك، لم يكن كما رواه الشعراء. إذا كان للمرء أن يصدق الشعراء، عاش انخسيس حياة طبيعية بعد ذلك، حياة مميزة لكنها حياة إنسانية طبيعية، حتى جاء يوم أشعل غرباءُ مدينتَه وأخذ إلى المنفى. مع أنه لم ينس تلك الليلة

www.ibtesama.com

الرائعة، إلا إنه لم يفكر فيها كثيرا، لم يفكر فيها كما نفهم التفكير.

هذا هو الشيء الرئيسى الذى كانت تحب أن تسأل روبرت دونكان عنه، كخبير فى المضاجعات الاستثنائية، الشيء الذى تفشل فى فهمه بشأن الإغريق، أو إذا لم يكن انخسيس وابنه من الإغريق بل من الطروادين، من الغرباء، يكون بشأن الإغريق والطروادين باعتبارهما من الشعوب المتوسطية الشرقية القديمة ومواضيع لصنع الأساطير الهيلينية. ما تسميه افتقارهم للقدرة على الاستنباط. كان انخسيس على علاقة حميمة بكائن إلهى، حميمة بقدر ما يمكن أن تكون حميمة. لم تكن خبرة عامة. فى كل الميثولوجيا المسيحية، إذا استبعدنا الأبوكريفا[1] يوجد حدث وحيد موازٍ، وهو فى الشكل الأكثر شيوعا، مع إله ذكر- يجب أن يقال، غير شخصى بالأحرى، بعيد بالأحرى- تحمل منه المرأة الفانية. **تعظم نفسى الرب**،[2] (يفترض أن هذا ما قالته مريم بعد ذلك، ربما سمع بشكل خطأ من **عظمنى الرب**.[3] ذلك تقريبا كل ما تقوله فى

(١) الأبوكريفا Apocrypha: جزء من الكتابات الدينية فى الكتاب المقدس، تقبله بعض الطوائف المسيحية كجزء من الكتاب المقدس، ولا تقبله بعض الطوائف الأخرى، وهو لا يوجد ضمن الترجمة العربية للكتاب المقدس، وينشر فى ترجمته العربية منفصلا عن الكتاب المقدس.

(٢) باللاتينية فى الأصل. إنجيل لوقا، الإصحاح الأول، ٤٦.

(٣) باللاتينية فى الأصل.

www.ibtesama.com

الأناجيل، هذه العذراء التى لا نظير لها، كما لو أنها أصيبت بالبكم بقية حياتها نتيجة ما نزل بها. لا أحد من حولها كان عديم الحياء ليسأل: ماذا كان يشبه، كيف بدا الإحساس به. كيف حملت به؟ إلا أن السؤال دار بالتأكيد فى أذهان الناس، صديقاتها فى الناصرة على سبيل المثال. لابد أنهن تهامسن فيما بينهن: كيف حملت به؟ لابد أن الأمر كان يشبه مضاجعة حوت. لابد أن الأمر كان يشبه مضاجعة الوحش؛ واحمرت وجوههن خجلا وهن ينطقن الكلمة، أولئك الأطفال الحفاة من قبيلة يهودا، مثلما هى، إليزابيث كستلو، تجد نفسها غالبا محمرة الوجه خجلا أيضًا، وهى تدونها على الورقة. وقحة بما فيه الكفاية بين قوم مريم؛ مخلة بالأدب تماما بالنسبة لإنسان أكبر بألفى عام وأكثر حكمة.

سايك، انخسيس، مريم: لابد من طرق أفضل للتفكير، أقل شهوانية، وأكثر فلسفة، بشأن مهمة الإله والإنسان برمتها. لكن هل لديها الوقت أو الأدوات، إذا تناسينا الميول، لفعل هذا؟

الاستنباطية. هل يمكن أن **نتوحد مع** إله بعمق يكفى لفهم وجود إله **والإحساس به؟** سؤال يبدو أنه لا أحد عاد يطرحه، إلا سوزان ميتشيل التى تكتشفها حديثا، وهى أيضا ليست فيلسوفة؛ سؤال خرج عن المألوف أثناء حياتها (تتذكره يحدث، تتذكر دهشتها)، ولم يدخل فى المألوف إلا قبل بداية حياتها بوقت

www.ibtesama.com

قصير. أنماط أخرى من الوجود. ربما هناك طريقة ألطف للتعبير عنه. هل هناك **أنماط أخرى من الوجود** بجانب ما ندعوه الإنسانى يمكن أن ندخلها، وإذا لم تكن هناك أنماط أخرى، ما تأثير ما يقال عنا وعن حدودنا؟ لا تعرف الكثير عن كانط، لكنه يبدو لها سؤال من النوع الكانطى. إذا كانت أذنها محقة، فإن الاستنباطية بدأت مسارها مع رجل من كونيجسبرج [١] وانتهت، إلى حد ما، مع ويتجنشتاين[٢] المدمر الفيينى[٣].

يكتب فردريك هولدرين[٤] الذى قرأ مواطنه كانط: "الآلهة موجودة، لكنهم يعيشون حياتهم فى مكان ما فوقنا فى عالم آخر، ولا يهتمون كثيرا، على ما يبدو، بما إن كنا نوجد أم لا." نزلوا، فى الأزمنة الغابرة، إلى الأرض، وساروا بين الناس. لكننا نحن المعاصرين لم نعد نلمحهم، ولم نعد نعانى من حبهم. "أتينا متأخرين جدا."

تقل قراءتها كلما كبرت. ليست ظاهرة غير شائعة. ومع ذلك كان لديها دائما وقت لهولدرلين،

---

(١) كونسيبرج: كانت مدينة تابعة لبروسيا، وهى المدينة التى ولد فيها الفيلسوف الألمانى الشهير إيمانويل كانط، وهى الآن تحمل اسم كلينينجراد: ميناء روسى على بحر البلطيق بين بولندا وليتوانيا.

(٢) ويتجنشتاين Wittgenstein (١٨٨٩ ـ ١٩٥١) فيلسوف بريطانى، ولد فى النمسا، يهتم بتحليل اللغة والمعنى.

(٣) نسبة إلى فيينا.

(٤) هولدرين (١٧٧٠ ـ ١٨٤٣) شاعر ألمانى، قضى النصف الثانى من حياته فى مصحة للأمراض العقلية.

www.ibtesama.com

هولدرلين الروح العظيمة، كما يمكن أن تسميه إذا كانت إغريقية. ومع ذلك، لم يكن لديها شك فيما كتب هولدرلين عن الآلهة. تفكر: برىء جدا، مستعد تماما بدرجة لا تجعله يرى الأشياء بقيمتها الظاهرية؛ ليس متيقظا بما يكفى لمكر التاريخ. تود لو أخبرته أن الأشياء من النادر أن تبدو بقيمتها الحقيقية. حين نهتز رثاء لفقد الآلهة، فمن المؤكد تماما أن الآلهة هى التى تهزنا. الآلهة لم تتراجع: لا تستطيع أن تتحمل.

غريب ذلك الرجل الذى يضع إصبعه فى **الأباثيا الإلهية** (*) عدم قدرة الآلهة على الإحساس، وبالتالى احتياجها لآخرين يحسون من خلالهم، كان يجب أن يفشل فى رؤية تأثيرات الأباثيا على حياتهم الشهوانية.

الحب والموت. ابتكر الآلهة الخالدون الموت والتعفن؛ إلا أنهم باستثناء أو استثناءين بارزين لم تواتهم الشجاعة ليجربوا اختراعهم على أنفسهم. وهذا سبب فضولهم، الذى لا ينتهى، لمعرفتنا. نَصِفُ سايك بأنها فتاة سخيفة متطفلة، لكن ماذا كان يفعل إله فى سريرها أولا؟ منحنا الآلهة، بتنبيهنا للموت، تفوقا عليهم. من الاثنين، الآلهة والفانين، نحيا نحن حياة أكثر إلحاحًا، ونشعر بالأحاسيس الأكثر شدة. لهذا لا يمكنهم أن يكفوا عن التفكير فينا، لا يمكنهم

(*) الأباثيا apatheia: تصور، أو تدريب ذهنى على التخلص من كل المشاكل، على الأقل من المشاكل التى لا يمكن السيطرة عليها، وتتركها للرب.

www.ibtesama.com

أن يستمروا بدوننا، يشاهدوننا بلا توقف وينقضون علينا. وهذا، فى النهاية، هو السبب الذى يجعلهم لا يعلنون حظرًا على ممارسة الجنس معنا، يضعون فقط قواعد لمكان الممارسة وشكلها وعددها. مبتكرو الموت؛ مبتكرو السياحة الجنسية أيضا. فى النشوة الجنسية للفانين، رعدةُ الموت، وتشويهاته، واسترخاؤه: يتحدثون عنها بلا نهاية حين كان لديهم الكثير ليشربوه ـ ماذا كانت تشبه بالنسبة لمن جربوها أول مرة معهم. يتمنون لو كان لهم تلك الجعبة الصغيرة الفريدة فى ذخيرتهم الشهوانية، ليثير كل منهم رفيقه. لكنهم لم يكونوا على استعداد لدفع الثمن. الموت، الإبادة: ماذا لو لم يكن هناك بعث، يتساءلون فى شك؟

نرى أولئك الآلهة مطلقى المعرفة، لكنهم فى الحقيقة لا يعرفون إلا القليل جدًا، وما يعرفونه لا يعرفونه إلا بأكثر الطرق عمومية. ليس هناك مجال من المعرفة يمكن أن ينسبوه لأنفسهم، لا فلسفة، بمعنى الكلمة. الكوزمولوجيا الخاصة بهم تشكيلة من الملاحظات المبتذلة. خبرتهم الوحيدة فى الطيران بين النجوم، عِلْمهم الوطنى الوحيد الأنثروبولوجيا. يتخصصون فى الجنس البشرى بسبب ما لدينا وما يفتقرون إليه؛ يدرسوننا لأنهم حسودون.

كما بالنسبة لنا، هل يخمنون (أية سخرية!) أن ما يجعل عناقنا قويا إلى هذه الدرجة، لا ينسى إلى هذه الدرجة، هى اللمحة التى يقدمونها لنا عن حياة

www.ibtesama.com

نتخيلها كحياتهم، حياة نسميها (حيث لا توجد فى لغتنا كلمة أخرى) **الآخرة**؟ تكتب مارتا كليفورد[١] إلى صديقها بالمراسلة ليوبولد بلوم: **لا أحب ذلك العالم الآخر**؛ لكنها تكذب: لماذا تكتب عمومًا إذا لم تكن تريد أن يحملها عشيق شيطانى إلى عالم آخر؟

يتمشى ليوبولد، أثناء ذلك، حول المكتبة العامة فى دبلن مختلسا النظر، حيث لا أحد ينظر، بين سيقان تماثيل الإلهات. إذا كان لأبوللو ديك وكرات من الرخام، فهل لأرتميس [٢] يتساءل، فتحات تناظرها؟ الأبحاث فى علم الجمال، ذلك ما يريد أن يقول لنفسه إنه مشغول به: إلى أى مدى تمتد مهمة الفنان تجاه الطبيعة؟ إلا أن ما يريد حقا أن يعرفه، ولديه وحده الكلمات للتعبير عنه، هو ما إن كان الجماع مع الإلهى ممكنا.

وهى نفسها؟ كم تعلمت عن الآلهة فى جولاتها حول دبلن مع ذلك الرجل العادى الذى لا شفاء منه؟ كأنها متزوجة منه تقريبا. إليزابيث بلوم، الزوجة الثانية والشبح.

ما تعرفه على وجه اليقين عن الآلهة هو أنهم يختلسون النظر إلينا طوال الوقت، يختلسون النظر حتى بين سيقاننا، مفعمين بالفضول، مفعمين بالحسد؛ ويتمادون أحيانا حتى يزعجوا قفصنَا

(١) مارتا كليفورد Martha Clifford: إحدى شخصيات "عوليس" جيمس جويس.

(٢) أرتميس Artemis: الاسم الإغريقى لديانا، أخت أبوللو.

www.ibtesama.com

الأرضى. لكنها تسأل نفسها اليوم، إلى أى عمق يتدفق ذلك الفضول حقا؟ بصرف النظر عن هباتنا الشهوانية، هل فضولهم تجاهنا، عيناتهم الأنثربولوجية، بدرجة فضولنا تجاه الشمبانزى، أو تجاه الطيور، أو تجاه الذباب؟ برغم بعض الأدلة على العكس، تود أن تعتقد، فى حالة الشمبانزى. تود أن تعتقد أن الآلهة يعجبون، مهما يكن بتذمر، بطاقتنا، الأصيلة اللانهائية التى نحاول أن نراوغ بها قدرنا. تود أن تعتقد أن كل واحد منهم ينبه الآخر إلى طعامهم اللذيذ: **مخلوقات فاتنة، يشبهوننا من نواح كثيرة إلى حد بعيد؛ عيونهم خاصة معبرة جدا؛ لا** أعرف(*) **أية شفقة يفتقرون إليها بدونها لا يمكنهم أبدا الصعود والجلوس بجوارنا!**

لكن ربما تكون مخطئة بشأن اهتمامهم بنا. أو بالأحرى، ربما اعتادت أن تكون صائبة، لكنها الآن مخطئة. فى عنفوانها، كانت تود أن تعتقد، أنها يمكن أن تقدم لإيروس ذى الأجنحة نفسه سببا لزيارة الأرض. ليس لأنها كانت على قدر كبير من الجمال بل لأنها كانت تواقة للمسة الإله، تواقة لدرجة الألم؛ لأنها فى توقها، الذى لا يمكن أن يكون له مقابل ومن ثم يكون هزليا حين تتصرف وفقا له، ربما وعدت بطعم أصيل لما كان مفقودًا فى الوطن الأصلى على الأولمب. لكن يبدو أن كل الأشياء تغيرت الآن. أين يجد المرء نيوم فى العالم هذا التوق الخالد كما اعتاد توقها أن

(*) لا أعرف: بالفرنسية فى الأصل.

www.ibtesama.com

يكون. ليس فى الأعمدة الشخصية بالتأكيد. "أرملة وحيدة، خمس أقدام وثمانى بوصات، فى الثلاثينيات، سمراء، تهوى التنجيم، والدراجات، تبحث عن أرمل وحيد، ٣٥ ـ ٤٥ للصداقة، والمتعة والمغامرة." لا يوجد فى أى مكان: "أرملة لمرتين، خمسة أقدام وثمانى بوصات، فى الستينيات، تعدو إلى الموت، والموت يقابلها بسرعة، تبحث عن إله، خالد، الشكل الأرضى غير مهم، لنهايات لا تفى بها الكلمات." قد يعبسون فى مكتب التحرير. قد يقولون: رغبات غير لائقة، ويلقون بها فى السلة نفسها مع اللوطيين.

لم نعد ندعو الآلهة لأننا لم نعد نؤمن بهم. تكره الجمل المربوطة فى "لأن". يُغلَق فكَّا المصيدة، لكن الفأر هرب فى كل مرة. ويا لها من طريقة غريبة على أية حال! كم أنا مضلَّلة! أسوأ من هولدرلين! من يهتم بما نؤمن؟ السؤال الوحيد هو إن كان الآلهة سوف يواصلون الإيمان بنا، إن كنا نستطيع أن نحافظ على حياةٍ آخر ومضة من اللهب الذى اعتاد ذات يوم أن يحرقهم. "للصداقة والمتعة والمغامرة": أى استغاثة هذه بإله؟ متعة أكثر مما يكفى من حيث يأتون. وجمال أكثر مما يكفى أيضًا.

غريبة الطريقة التى ترى بها، حين ترخى الرغبة قبضتها عن جسدها، كونا تحكمه الرغبة بوضوح أكثر وأكثر. تود أن تقول للناس ووكالة التأريخ (تود أن تقول لنيتشه أيضا إذا استطاعت أن تلتقى به): ألم تقرأوا

www.ibtesama.com

نيوتن؟ تدير الرغبة الطريقين: أ يدفع ب لأن ب يدفع أ، والعكس بالعكس: بهذه الطريقة تطوف فى كون. أو إن كانت الرغبة مازالت كلمة بدائية جدا، فماذا عن الشهوة؟ الألفة والصدفة: ثنائى قوى، أكثر من قوى بما يكفى لبناء كوزمولوجيا، من الذرات والأشياء الضئيلة ذات الأسماء التى لا معنى لها التى تتكون منها الذرات إلى القنطروس ألفا (١) وذات الكرسى(٢) والظهر المظلم العظيم للآخرة. الآلهة وأنفسنا، نلتف بيأس برياح الصدفة، إلا أننا نُدفع بالقوة نفسها باتجاه بعضنا البعض، ليس باتجاه ب، ت، ث، فقط ولكن باتجاه هـ، و، ى، وأوميجا أيضا. ليس أقل شىء، ليس آخر شىء لكنه يُستدعى بالحب.

رؤية، افتتاحية، كما تفتح السماوات بقوس قزح حين يتوقف المطر عن السقوط. هل يكفى، لشعب قديم، أن يكون له هذه الرؤى الآن ومرة أخرى، أقواس قزح هذه، استراحة، قبل أن يبدأ المطر فى الهطول مرة أخرى؟ هل لابد أن يكون للمرء صرير شديد لينضم للرقص قبل أن يستطيع رؤية النمط؟

●●●

---

(١) القنطروس ألفا Alpha Centauri : نجم متعدد فى برج القنطروس، تمثل مكوناته الثلاثة أسطع ما فى البرج.

(٢) ذات الكرسى Cassiopeia : برج على شكل حرف W يظهر فى النصف الشمالى من الكرة الأرضية بين برج المرأة المسلسلة وبرج القيناوس (الملتهب).

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

(٨)
على البوابة

بعد ظهيرة حارة. ميدان مزدحم بالزوار. يلقى بعض الناس نظرة على امرأة بيضاء الشعر تنزل من الأتوبيس وحقيبتها فى يدها. ترتدى عباءة زرقاء من القطن؛ يحمر عنقها، فى الشمس، وتظهر عليه قطرات من العرق.

تصر عجلات الحقيبة على الحجارة، بجانب طاولات الرصيف، بجانب الشبان، تشق طريقها إلى البوابة حيث يقف رجل فى الحراسة بزيه، دائخًا، مستندًا على البندقية التى يمسك بعقبها أمامه.

تسأل: "هل هذه هى البوابة؟"

تحت القبعة البارزة يرمش مؤكِّدا.

"هل يمكن أن أمر منها؟"

يشير بحركة من عينيه إلى كوخ على جانب.

الكوخ، من ألواح خشبية مجهزة، حار خانق. يجلس فى الداخل، خلف طاولة صغيرة منصوبة، رجل فى ذراعيه كُمَّا قميص، يكتب. تدفع مروحة كهربية صغيرة تيارا من الهواء فى وجهه.

www.ibtesama.com

تقول: "اعذرنى". لا يعيرها انتباهًا. "اعذرنى. هل يمكن أن يفتح أحد البوابة لى؟"

مشغول بشكل ما. بدون أن يتوقف عن الكتابة، يقول. "عليك أولا أن تقدمى إقرارا."

"أقدم إقرارا؟ لمن؟ لك؟"

بيده اليسرى يدفع ورقة إليها. تترك الحقيبة وتلتقط الورقة. إنها بيضاء.

تكرر: "قبل أن أتمكن من المرور يجب أن أقدم إقرارا. إقرارا بماذا؟"

"بالإيمان. بم تؤمنين؟"

"إيمان. هل هذا كل شىء؟ ليس إقرارا بالولاء؟ ماذا إذا كنتُ لا أؤمن؟ ماذا إذا لم أكن مؤمنة؟"

يهز الرجل كتفيه. يتطلع إليها مباشرة للمرة الأولى. "إننا جميعا نؤمن. لسنا ماشية. لدى كل منا ما يؤمن به. سجليه، ما تؤمنين به. اكتبيه فى الإقرار."

لم يعد لديها شك فى المكان الذى توجد فيه، وفى حقيقتها. إنها متوسلة على البوابة. الرحلة التى أتت بها إلى هنا، إلى هذه البلاد، إلى هذه البلدة، التى بدا أنها انتهت حين توقف الأتوبيس وفُتِحتْ أبوابه فى الميدان المزدحم، لم تكن نهايتها على الإطلاق. الآن تبدأ محاولة من نوع مختلف. مطلوب منها فعل شىء، توكيد وُصِف بشكل غير محدد، قبل أن تعتبر طيبة ويمكنها أن تمر. لكن هل هذا هو الشخص الذى سيحكم عليها، هذا الرجل المتورد الثقيل الذى يرتدى

www.ibtesama.com

زيًا غامضًا إلى حد ما (زيًا عسكريًا؟ زيَّ حارسٍ مدنى؟) لا يمكن أن تحدد أية علامة على رتبة، لكن مروحةً، لا تلف يسارًا أو يمينًا، تصب عليه برودة تتمنى لو أنها تُصَب عليها؟

تقول: "أنا كاتبة. ربما لم تسمع عنى هنا، لكننى أكتب، أو كتبتُ، تحت اسم إليزابيث كستلو. ليست مهنتى أن أؤمن، أكتب فقط. ليست شغلتى. أقلِّدُ، كما قال أرسطو."

تتوقف، ثم تنطق بالجملة التالية، الجملة التى ستحدد إن كان هذا هو الذى يحكم عليها، الشخص المناسب للحكم عليها، أو، على العكس، مجرد الشخص الأول فى صف طويل إلى، من يعرف، موظف خامل فى سكرتارية سفارة فى قلعة. "يمكن أن أقلد المعتقد، إذا أحببْتَ. هل يفى ذلك بأغراضك؟"

لاستجابته رائحة نفاد الصبر، كما لو كان هذا عرضًا قدم له مرات كثيرة من قبل. يقول: "اكتبى الإقرار كما هو مطلوب. رديه حين يكتمل."

"حسن جدا، سأفعل ذلك. متى تنتهى من مهامك؟"

يرد: "أنا هنا دائما". من ذلك تفهم أن هذه البلدة التى تجد نفسها فيها، حيث حارس البوابة لا ينام أبدًا و يبدو أن الناس فى المقاهى ليس لديهم مكان يذهبون إليه، لا التزام سوى أن يملأوا الهواء بثرثرتهم، ليست حقيقية أكثر من ذلك: ليست حقيقية أكثر وربما ليست أقل.

www.ibtesama.com

تجلس على إحدى طاولات الرصيف تؤلف بسرعة ما يمكن أن يكون إقرارها. يقول الإقرار: **أنا كاتبة، أتاجر فى القصص. أتبنى المعتقدات بشكل مؤقت فقط: قد تقف المعتقدات الراسخة فى طريقى. أغير المعتقدات كما أغير مسكنى أو ملابسى، طبقًا لاحتياجاتى. على هذه الخلفيات- المهنية، الوظيفية - أطلب الإعفاء من قاعدة أسمعها الآن لأول مرة، أعنى تمسك كل من يلتمس المرور من البوابة بمعتقد أو أكثر.**

تعيد إقرارها إلى مقر الحراسة. رُفِض، كما كانت شبه متوقعة. لا يحوله الرجل الذى يجلس إلى الطاولة إلى سلطة أعلى، من الواضح أنه لا يستحق ذلك، يكتفى بهز رأسه ويترك الصفحة تسقط على الأرض ويدفع إليها بورقة جديدة. يقول: "ما تؤمنين به".

تعود إلى مقعدها على الرصيف. هل أنا على وشك أن أصبح مؤسسة، تتساءل: المرأة العجوز التى تقول إنها كاتبة معفاة من القانون؟ المرأة التى تكتب، وحقيبتها السوداء بجوارها دائما (ماذا تحتوى؟ لم تعد تستطيع أن تتذكر)، التماسات، واحدًا بعد الآخر، تضعها أمام الرجل فى مقر الحراسة ويدفعها ذلك الرجل الذى فى مقر الحراسة جانبًا لأنها ليست مناسبة بما يكفى، ليست المطلوب قبل أن يتمكن المرء من العبور؟

تقول مع محاولتها الثانية: "هل يمكن فقط أن ألقى نظرة خلالها؟ ألقى نظرة على ما يقع فى الجانب الآخر؟ لأرى إن كان يستحق كل هذه القلق."

www.ibtesama.com

ينهض الرجل من طاولته متثاقلا. ليس كبيرًا فى السن مثلها، لكنه ليس صغيرًا أيضًا. يلبس حذاء رياضيا؛ على بنطلونه الأزرق الصوفى شريط أحمر على الجانبين. تفكر، أى حر يشعر به! وفى الشتاء، أى برد! ليست وظيفة هينة، أن تكون حارس البوابة.

يأخذها بعد العسكرى الذى يميل على بندقيته، حتى وقفا أمام البوابة ذاتها، هائلة بما يكفى لرد جيش. من محفظة فى حزامه يأخذ مفتاحا بطول ساعده تقريبا. هل ستكون البوابة عند هذه النقطة التى يشير إليها مخصصة لها ولها وحدها، ومع ذلك قُدِّر ألا تمر منها على الإطلاق؟ هل تذكِّره، وتجعله يعرف أنها تعرف النتيجة؟

يدور المفتاح مرتين فى القفل. يقول الرجل: "هناك، اقنعى".

تضع عينها على شق. يفتح الباب ملليمترًا أو ملليمترين، ويغلقه مرة أخرى.

يقول: "رأيتِ. سوف توضح المدوَّنة ذلك."

ماذا رأت؟ توقعتْ، رغم عدم إيمانها، أن يوجد خلف هذا الباب المصنوع من خشب الساج والنحاس ولكنه بدون شك من أنسجة لا يمكن أن تتخيلها قصة مجازية: ضوء شديد حتى أنه قد يذهل الأحاسيس الأرضية. لكن الضوء ليس مستحيل التخيل على الإطلاق. إنه ساطع، أكثر سطوعًا ربما من كل الأضواء التى عرفتها حتى الآن، لكنه ليس من مرتبة

www.ibtesama.com

أخرى، وليس أكثر سطوعا، مثلا، من وميض الماغنسيوم الذى يبقى بلا نهاية.

يربت الرجل على ذراعها. إيماءة مدهشة، وقد أتت منه، مدهشة بشكل شخصى. تتأمل: مثل واحد من أولئك المعذِّبين الذين يدعون أنهم يتمنون ألا يعرضوك لأذى، إنهم فقط يقومون بمهمتهم الحزينة. يقول: "الآن رأيتِ. الآن تحاولين بشكل أكثر جدية."

***

فى المقهى تطلب مشروبا بالإيطالية- تقول لنفسها: اللغة المناسبة لمثل هذه البلدة فى أوبرا هزلية- وتدفع ثمنه من أوراق نقدية تجدها فى محفظتها، أوراق نقدية لا تتذكر من أين حصلت عليها. تبدو، فى الحقيقة، مثيرة للريبة مثل فلوس اللعب: على أحد وجهيها صورة لملتحٍ جدير بالقرن التاسع عشر، وعلى الوجه الآخر الفئة ٥، ١٠، ٢٥، ١٠٠، فى ظلال من الأخضر والكرزى. خمسة ماذا؟ عشرة ماذا؟ إلا أن النادل يقبل الأوراق النقدية: لابد أنها صالحة بمعنى ما.

مهما تكن النقود، لم يكن معها الكثير منها: أربعمائة وحدة. يكلف المشروب خمس وحدات بالبقشيش. ماذا يحدث حين تنتهى النقود التى مع المرء؟ هل هناك إدارة عامة يمكن للمرء أن يعول على هباتها؟

تثير المسألة مع حارس البوابة. تقول: "إذا ظللت ترفض إقراراتى فسيكون علىَّ أن أقيم معك فى كوخك. لا أستطيع تحمل مصاريف فندق."

www.ibtesama.com

نكتة، تحاول فقط أن تهز هذا الرفيق الصارم إلى حد ما.

يرد: "بالنسبة لمقدمى الالتماسات لوقت طويل، يوجد مبنى لإقامتهم. مزود بمطبخ ووسائل للغُسْل. تم التنبؤ بكل الاحتياجات."

تسأل: "مطبخ أم مطعم للمحتاجين؟" لا يظهر عليه رد فعل. من الواضح أنهم ليسوا معتادين فى هذا المكان على أن يهزل معهم أحد.

***

المبنى عبارة عن غرفة بلا نوافذ، طويلة ومنخفضة. مصباح وحيد عار ينير الممر. على كل جانب أسرَّة فى طابقين، مصنوعة من خشب يبدو قديما، ومدهونة بلون الصدأ القاتم، تذكرها بالجذوع الملتفة. يمكنها فى الحقيقة وبنظرة أكثر دقة أن ترى حروفا مكتوبة بالإستنسيل: ١٠٠٣٧٧/٣ سى جيه جى٢٨٢٢٢٠/. ، سى إكس إكس... معظم الأسرة عليها فراش من القش: قش فى أكياس تفوح منه، فى الحرارة المكتومة، رائحة الدهون والعرق القديم.

تفكر، يمكن أن تكون فى أحد المعتقلات السوفيتية(*) يمكن أن تكون فى أحد معسكرات الرايخ الثالث. كلها أكليشيهات وضعتْ معا، بدون ذرة من الأصالة.

(*) المعتقلات السوفيتية Gulag: نظام من معسكرات الاعتقال فى الاتحاد السوفيتى للمعتقلين السياسيين، مات فيها ملايين السجناء من الجوع وسوء المعاملة فى عصر ستالين.

www.ibtesama.com

تسأل المرأة التى قادتها إلى الداخل: "ما هذا المكان؟"

لم تكن بحاجة إلى أن تسأل. ستعرف الإجابة قبل أن تسمعها: "إنه حيث تنتظرين."

المرأة نفسها ـ تردد حتى الآن فى أن تدعوها **الكابو**[1] أكليشيه: فلاحة ثقيلة الحركة ترتدى جلبابا رماديا بلا شكل، ووشاحا، وصندلا، وجوربا أزرق من الصوف. إلا أن نظرتها مباشرة وذكية. يؤرقها إحساس بأنها رأت المرأة من قبل، أو قرينتها، أو صورة فوتوغرافية لها.

تقول: "هل لى أن أختار سريرى. أم أن هذا أيضا محدد سلفا بالنيابة عنى؟"

تقول المرأة: "اختارى." وجهها غامض.

بتنهيدة تختار، تحمل حقيبتها، تفكها.

***

يمر الوقت، حتى فى هذه البلدة. يأتى اليوم، يومها. تجد نفسها أمام منصة مرتفعة، فى غرفة خالية. على المنصة تسعة ميكروفونات فى صف. على الحائط خلف المنصة، شعار بارز من الجص: درعان، رمحان متقاطعان، وما يبدو مثل الإيمو[2] لكن ربما

(١) الكابو Kapo: مصطلح كان يستخدم للإشارة إلى السجناء الذين كانوا يعملون فى وظائف وضيعة فى معسكرات الإعدام النازية أثناء الحرب العالمية الثانية.

(٢) الإيمو emu : طائر أسترالى كبير ولا يطير، يشبه النعامة لكنه أصغر منها.

www.ibtesama.com

قُصِد به طائرٌ أكثر نبلا، يحمل إكليلا من الغار فى منقاره.

يحضر لها رجل، تعتقد أنه حاجب المحكمة، مقعدا ويشير إلى إمكانية أن تجلس. تجلس، تنتظر. كل النوافذ مغلقة، الغرفة خانقة. تلمِّح لحاجب المحكمة، تقوم بحركة تعنى أنها تريد أن تشرب. يتظاهر بأنه لا يلاحظ.

ينفتح الباب، ويدخل القضاة فى صف، قضاتها، قضاتها. تحت العباءات السوداء تتوقع إلى حد ما أنهم كائنات من جرندفيه [١] تمساح، حمار، غراب، خنفساء الموت[٢] لكن لا، إنهم من نوعها، شُعْبتها. حتى وجوههم بشرية. ذكور، كلهم؛ ذكور مسنون.

لا تحتاج تنبيه حاجب المحكمة (أتى خلفها الآن) لتقف. سيُطلَب منها أداء دورها؛ تتمنى أن تلتقط مفاتيح الكلام.

يومئ إليها القاضى الذى فى المنتصف إيماءة صغيرة؛ ترد عليه بإيماءة.

يقول: "أنتِ...؟"

"إليزابيث كستلو."

---

(١) جرندفيه Grandville: لقب رسام الكاريكاتير الفرنسى جان إيجناس إزيدور جيرارد، يرسم أناسا برءوس كبيرة، وصورا بأجسام بشر ووجوه حيوانات، يعتبر من المصادر التى استوحاها لويس كارول فى "أليس فى بلاد العجائب".

(٢) خنفساء الموت deathwatch beetle: خنفساء تنقر الخشب ويحدث رأسها صوتا متكتكا كان يعتبر نذيرًا بالموت.

www.ibtesama.com

"أجل. مقدمة الطلب."

"أو المتوسلة، إذا كان ذلك يحسِّن من فرصى."

"وهذه جلستك الأولى؟"

"أجل."

وتريدين - ؟"

"أريد أن أمر من البوابة. أن أمر خلالها. أن أتعرف على ما يأتى بعد ذلك."

أجل. هناك مسألة المعتقد، كما لابد أنك عرفْتِ الآن. معك إقرار تكتبينه لنا؟"

"معى إقرار، نُقِّح، نُقِّح بكثافة، نُقِّح مرات كثيرة. أغامر وأقول نُقِّح فى حدود قدراتى. لا أعتقد أن أستطيع تنقيحه أكثر. لديكم نسخة، أعتقد."

"لدينا نسخة. منقحة فى حدود، كما تقولين. يرى بعضنا إمكانية أن يتم تنقيح آخر. أرينا. هل يمكن أن تقرئى لنا إقرارك، من فضلك."

تقرأ.

"أنا كاتبة. قد تعتقدون أنه يجب أن أقول، بدلا من ذلك، كنتُ كاتبة. لكن أنا كاتبة أو كنت كاتبة لأن هذه حقيقتى أو ما كانتْ حقيقتى. لم أعد أنا. حتى الآن. أو هذا ما يبدو لى.

"أنا كاتبة، وما أكتبه هو ما أسمعه. أنا سكرتيرة المحجوب، واحدة من سكرتيرات كثيرات على مر العصور. تلك دعواى: سكرتيرة الإملاء. ليس لى أن أتساءل، أن أحكم على ما يمنح لى. أدوِّنُ الكلماتِ

www.ibtesama.com

فقط ثم أختبرها، أختبر دقتها، لأتأكد من صحة ما سمعتُ.

"سكرتيرة المحجوب: ليست جملتى، أتعجل القول. أستعيرها من سكرتير من مرتبة أعلى، شيزلاف ميلوش(*) شاعر، ربما يكون معروفا لكم، أُمْلِيَتْ عليه منذ سنوات."

تتوقف. هنا حيث تتوقع أن يقاطعوها. تتوقع أن يسألوا: من **أملاها؟** إجابتها جاهزة: **قوى أبعد منا.** لكن ليست هناك مقاطعة، لا سؤال. وبدلا من ذلك يحرك المتحدث باسمهم قلمه الرصاص تجاهها. "استمرى."

تقرأ: "قبل أن أتمكن من المرور مطلوب منى أن أحدد معتقداتى. أردُّ: على السكرتيرة الجيدة ألا يكون لها معتقدات. إن ذلك لا يتلاءم مع الوظيفة. على السكرتيرة أن تكون مستعدة فقط، فى انتظار النداء."

مرة أخرى تتوقع مقاطعة: من ينادى؟ لكن ليس هناك من أسئلة، على ما يبدو.

"المعتقد فى عملى عائق، عقبة. أحاول أن أتخلص من العوائق."

"بدون معتقدات لا نكون بشرا." يأتى الصوت من أقصى اليسار، صوت الشخص الذى لقبته بشكل خاص بالهرة العجوز، رفيق ضئيل ذاوٍ بالغ القصر

(*) شيزلاف ميلوش Czeslaw Milosz: كاتب وشاعر أمريكى ولد فى بولندا عام ١٩١١ومات فى ٢٠٠٤ حصل على جائزة نوبل فى الأدب عام١٩٨٠ .

www.ibtesama.com

حتى أن ذقنه تصل المنصة بالكاد. توجد فى كل منهم، فى الحقيقة، سمة هزلية بشكل مزعج. تفكر، **أدبية بشكل مفرط. فكرة رسام كاريكاتير عن منصة القضاة.**

يكرر: "بدون معتقدات لا نكون بشرا. ماذا تقولين عن ذلك، إليزابيث كستلو؟"

تتنهد. "بالطبع، أيها السادة، لا أدعى أننى مجردة من كل المعتقدات. لدىَّ ما أعتقد أنها آراء وأحكام مسبقة، وهى لا تختلف فى النوع عما يعرف عادة بالمعتقدات. حين أدعى أننى سكرتيرة نقية من المعتقد فأنا أشير إلى ذاتى المثالية، ذات قادرة على إبعاد الآراء والأحكام المسبقة التى تعتنقها والكلمة، التى تتصرف فيها بحكم وظيفتها، تمر خلالها."

يقول الرجل الضئيل: "قدرة سلبية. هل تفكرين فى القدرة السلبية، التى تدَّعين امتلاكها؟"

"أجل، إذا أحببتَ. بتعبير آخر. لدىَّ معتقدات لكننى لا أؤمن بها. ليست مهمة بما يكفى لأؤمن بها. قلبى لا ينشغل بها. قلبى وإحساسى بالواجب."

يزم الرجل الضئيل شفتيه. يلتفت إليه جاره ويرمقه بنظرة (يمكن أن تُقْسِمَ أنها تسمع حفيف الريش). يسأل الرجل الضئيل: "وما تأثير عدم الإيمان، فيما تعتقدين، على إنسانيتك؟"

"على إنسانيتى؟ هل ذلك من النتائج؟ يفوق ما أقدمه لمن يقرأوننى، ما أُساهِمُ به فى إنسانيتهم، على ما آمل، خوائى من هذه الناحية."

www.ibtesama.com

"تقصدين أن تقولى، نزعتك الكلبية(*)"

النزعة الكلبية. كلمة لا تحبها، لكنها فى هذه المناسبة مستعدة للاحتفاء بها. بالحظ، ستكون الفرصة الأخيرة. بالحظ لن يكون عليها أن تعرض نفسها مرة أخرى للدفاع عن النفس والأبهة التى تصاحبها.

"عن نفسى، أجل. ربما أكون كلبية، بالمعنى التقنى. لا أستطيع أن أحتمل التعامل مع نفسى، أو دوافعى، بجدية شديدة. ولكن فيما يتعلق بالآخرين، فيما يتعلق بالجنس البشرى أو الإنسانية، لا أؤمن بأننى كلبية على الإطلاق."

يقول الرجل الذى يجلس فى الوسط: "لستِ إذًا غير مؤمنة."

"لا. عدم الإيمان إيمان. كافرة، لو كنت ستقبل التمييز، مع أننى أشعر أحيانا بأن الكفر يصبح عقيدة أيضا."

ثمة صمت. يقول الرجل: "استمرى. أكملى إقرارك."

"هذه نهايته. لا شىء لم تتم تغطيته. عرضتُ حالتى."

"حالتك أنك سكرتيرة. سكرتيرة المحجوب."

(*) النزعة الكلبية Cynicism: معتقدات الكلبيين القدماء، وهم مجموعة من الفلاسفة اليونانيين آمنوا بأن الفضيلة وحدها هى الخير. وبأن السيطرة على النفس هى الوسيلة الوحيدة لتحقيق الفضيلة.

www.ibtesama.com

"ولا أستطيع أن أحتمل الإيمان."

"لأسباب مهنية."

"لأسباب مهنية."

"وماذا لو لم يعتبرك المحجوب سكرتيرته. ماذا لو كان تعيينك قد انتهى منذ فترة طويلة، ولم تعد الرسالة تصل إليك؟ ماذا لو لم يكن قد تم تعيينك أبدا. هل وضعتِ هذا الاحتمال فى اعتبارك."

"أضعه فى اعتبارى كل يوم. مضطرة إلى وضعه فى الاعتبار. لو لم أكن ما أقول، فأنا زائفة إذًا. إذا كان ذلك هو قرارك المبجل، إننى سكرتيرة زائفة، لا أستطيع إذًا إلا أن أحنى رأسه وأقّبله. أفترضُ أنك وضعْتَ سجلى فى الحسبان، سجل حياتى. إنصافا لى لا يمكنك أن تتجاهل ذلك السجل."

"ماذا عن الأطفال؟"

الصوت مشروخ ومتقطع. فى البداية لا يمكنها أن تحدد من أى منهم يصدر. هل هو رقم ثمانية، الشخص ذو الخدين السمينين والألوان الزاهية؟

"الأطفال؟ لا أفهم."

يواصل: "وماذا عن التسمانيين(*) ماذا عن مصير التسمانيين؟"

(*) التسمانيون Tasmanians منسوب إلى تسمانيا Tasmania وهى ولاية أسترالية، تقع على بعد ٢٠٠ كم جنوب الجانب الشرقى من القارة. وتضم ولاية تسمانيا جزيرة تسمانيا ومجموعة الجزر المحيطة بها.

www.ibtesama.com

التسامنيون؟ هل كان يحدث شيء في تسمانيا، في الفاصل، شيء لم تسمع به؟

ترد: "ليس لدى آراء خاصة عن التسمانيين. وجدتُهم دائما أناسًا مهذبين تماما."

يلوِّح بنفاد صبر. "أقصد التسمانيين القدماء الذين أبيدوا. هل لديك آراء خاصة عنهم؟"

"هل تقصد، هل وصلت أصواتهم إليَّ؟ لا، لم تصل، حتى الآن. ربما لا تكون لي قيمة، في عيونهم. ربما استخدموا سكرتيرة خاصة بهم، إنهم مؤهلون لذلك."

يمكنها أن تسمع التوتر في صوتها. ماذا تفعل، تفسر نفسها لمجموعة من المسنين ربما كانوا أيضا إيطاليين من بلدات صغيرة، أو مجر نمساويين(*) من بلدات صغيرة، إلا أنهم يجلسون بشكل ما في محاكمتها؟ لماذا أتحمل. ماذا يعرفون عن تسمانيا؟

يقول الرجل: "لم أقل شيئا عن الأصوات. سألتُك عن أفكارك."

أفكارها عن تسمانيا؟ إذا انتابتْها الحيرةُ، فقد انتابتْ بقية هيئة المستشارين أيضا، حتى إن سائلها يلتفت إليهم ويشرح. يقول: "تحدث أعمال شنيعة. اعتداء على الأطفال الأبرياء. إبادة الشعب كله. ماذا تعتقد بشأن هذه الأمور؟ أليس لديها معتقدات ترشدها؟"

(*) مجر نمساويون: نسبة إلى مملكة تكونت سنة ١٨٦٧ في وسط أوروبا وكانت تتكون من النمسا والمجر وبوهيميا وأجزاء من رومانيا ويوغسلافيا وإيطاليا واستمرت حتى عام ١٩١٨.

www.ibtesama.com

إبادة التسمانيين القدماء على أيدى مواطنيها، أسلافها. هل هذا ما يكمن فى النهاية وراء هذه الجلسة، هذه المحاكمة: مسألة الذنب التاريخى؟

تأخذ نفَسًا. "هناك أمور يتكلم عنها المرء وأمور من المناسب أن يصمت عن الخوض فيها، حتى أمام محكمة، حتى لو كانت محكمة نهائية، إذا كنتم كذلك. أعرف ما تشيرون إليه، وأرد فقط بأنه إذا كانت النتيجة التى خرجتم بها مما قلتُ اليوم أمامكم أننى لا أعى هذه الأمور، فأنتم مخطئون، مخطئون بكل معنى الكلمة. دعونى أضف، لتنويركم: المعتقدات ليست دعاماتنا الأخلاقية وحدها. نستطيع أن نعتمد على قلوبنا أيضا. هذا كل ما فى الأمر. ليس لدى شىء آخر أقوله."

الاستهانة بالمحكمة. تقترب بسرعة من الاستهانة بالمحكمة. هذا الميل للاشتعال، أمر يتعلق بها لم تحبه أبدًا.

"لكنك ككاتبة؟ لا تقدمين نفسك اليوم بشخصك ولكن كحالة خاصة، قَدَر خاص، كاتبة لم تكتب فقط لمجرد التسلية بل تكتب كتبا تستكشف تعقيدات السلوك الإنسانى. تصدرين فى تلك الكتب أحكامًا متتالية، لابد أنها كذلك. ماذا يرشدك فى هذه الأحكام؟ هل تصرين على القول إنها كلها مسألة تتعلق بالقلب فقط؟ أليست لديك معتقدات ككاتبة؟ إذا كان الكاتب مجرد كائن بشرى بقلب بشرى، ما الخاص فى حالتك؟"

www.ibtesama.com

ليس أحمق. ليس خنزيرا فى عباءات من الساتان، **خنزيرًا أبهة**(*) من أعمال جرندفيه. ليست حفلة شاى صانع القبعات المجنون. للمرة الأولى هذا اليوم تبدو مجربة. حسن جدا: لترَ مدى إدراكها.

"السكان البدائيون لتسمانيا يُعَدُّون اليوم من المحجوبين، المحجوبين وأنا سكرتيرتهم، واحدة من كثيرات. كل صباح أجلس إلى طاولتى وأستعد لاستدعاء اليوم. هذا أسلوب حياة السكرتيرة، وحياتى. حين يستدعينى التسمانيون القدماء، إذا اختاروا أن يستدعونى، فسأكون مستعدة وسأكتب، بأفضل ما أستطيع.

"وبالمثل مع الأطفال، حيث إنكم تذكرون الأطفال المنتهكين. لم يستدعنى طفلٌ حتى الآن، لكننى مرة أخرى مستعدة.

"إلا أننى أنبهكم: إننى منفتحة على كل الأصوات، لا أصوات القتلى والمنتهَكين فقط." تحاول هنا أن تحافظ على هدوء صوتها، تحاول ألا تتفوه بملاحظة قد تقع تحت طائلة القانون. إذا كان هناك قتلة ومنتهِكون يختارون أن يستدعونى بدلاً من ذلك، ليستخدمونى ويتكلموا من خلالى، لن أغلق أذنى، لن أحاكمهم."

"هل ستتكلمين من أجل القتلة."

"سأتكلم."

---

* : باللاتينية فى الأصل.

www.ibtesama.com

"لا تحكمين بين القاتل وضحيته؟ هل هكذا تكون السكرتيرة: أن تكتبى كل ما يقال لك؟ أن تكونى إفلاس الضمير؟"

تعرف أنها محاصرة. ولكن ماذا يعنى أن تكون محاصرة، إذا كانت ما تبدو أنها مبارزة خطابية، إلى حد بعيد، أقرب إلى نهايتها! تقول: "هل تعتقد أن مَنْ يشعرون بالذنب لا يعانون أيضا؟ هل تعتقد أنهم لا يجأرون من لهيبهم؟ **لا تنسنى!** ـ هذا ما يصيحون به. أى ضمير ذلك الذى لا يكترث بصرخة الألم الأخلاقى؟"

يقول الرجل السمين: "وهذه الأصوات التى تستدعيك، لا تسألين من أين تأتى؟"

"لا . لا، طالما تنطق بالحقيقة."

"وأنت ـ أنتِ، مستشيرة قلبك فقط، من تحكم على تلك الحقيقة؟"

تومئ بنفاد صبر. تفكر، مثل استجواب جان دارك. **كيف تعرفين من أين تأتى أصواتك؟** لا تستطيع أن تصمد لأدبيتها على الإطلاق. ليسوا من الفطنة ليأتوا بجديد؟

خيم الصمت. يقول الرجل مشجعا: "استمرى."

تقول: "هذا كل شىء. سألتَ فأجبتُ."

"هل تعتقدين أن الأصوات تأتى من الرب؟ هل تؤمنين بالرب؟"

www.ibtesama.com

هل تؤمنين بالرب؟ سؤال تفضل أن تبتعد عنه بحذر. لماذا، حتى بافتراض أن الرب موجود- بصرف النظر عن معنى **موجود**- هل يجب إزعاجه فى سباته الملكى المهيب من أسفل بصخب **يؤمن ولا يؤمن**، وكأننا فى استفتاء عام؟

تقول: "مسألة حميمة جدا. ليس عندى ما أقوله."

"ليس هنا إلا أنفسنا. أنت حرة فى أن تفصحى عما فى قلبك."

"لا تفهمنى. أقصد، أتوقع أن الرب لا يتطلع بعطف إلى مثل هذه الفرضية- فرضية الحميمية. أفضل أن أدع الرب وشأنه. كما آمل أن يدعنى وشأنى."

صمت. تعانى من صداع. تفكر مع نفسها: الكثير جدا من الأفكار التجريدية المتهورة، تحذير من الطبيعة.

ينظر الرئيس حوله. يسأل: "مزيد من الأسئلة؟"

لا أسئلة.

يتحول إليها. "ستعرفين رأينا. فى الوقت المناسب. عبر القنوات الرسمية."

***

تعود إلى المبنى، تستلقى على سريرها. تفضل أن تجلس، لكن الأسرة مصنوعة بحواف مرتفعة مثل نصوانى، لا يمكن للمرء أن يجلس.

www.ibtesama.com

تكره هذه الغرفة الحارة الخانقة التى خُصِّصتْ لها بيت. تكره الرائحة، تشمئز من لمس المفارش الدهنية. والساعات هنا تبدو أطول من الساعات التى اعتادت عليها، خاصة فى منتصف النهار. كم مضى عليها فى هذا المكان؟ فقدت الإحساس بالزمن. يبدو أنها أسابيع، وربما حتى شهور.

تظهر فرقة موسيقية فى الميدان بمجرد أن تخف حدة الحرارة بعد الظهيرة. يعزف الموسيقيون فوق منصة مزخرفة، بأزياء بيضاء منشاة وقبعات بارزة والكثير من الجدائل الذهبية، يعزفون مارشات سوزا[١] ؤلمسات شتراوس[٢] وأغانى شعبية: "إل بيبيستريلو"، "سورينتو[٣]. لقائد الفرقة شارب لطيف بارع، لوثاريو[٤] بلدة صغيرة؛ بعد كل قطعة يبتسم وينحنى للتصفيق، بينما عازف البوق، العازف البدين، يخلع قبعته ويجفف جبهته بمنديل قرمزى.

تفكر مع نفسها: بالضبط، ما يمكن أن يتوقعه المرء فى بلدة حدودية إيطالية أو إيطالية نمساوية فى

(١) سوزا Souza: موسيقى أمريكى ألف فى نهايات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ما يعرف بمارش الملك، بالإضافة إلى مارشات أخرى كثيرة.

(٢) شتراوس Strauss: موسيقى نمساوى من القرن التاسع عشر، يعرف أحيانا بملك الفالس.

(٣) سورينتو Sorrento : بلدة فى جنوب إيطاليا فى شبه جزيرة سورينتو.

(٤) لوثاريو Lothario شخصية فى مسرحية نيكولاس روى١٧٠٣ "The Fair Penitent" : يغوى النساء، وقد صار اسمه يطلق على من يغوى النساء.

www.ibtesama.com

عام ١٩١٢ .مشهد من كتاب، بالضبط كما أن المبنى بمفارشه المصنوعة من القش ومصباحه الأربعين فولتا مشهد من كتاب، وكل ما يجرى فى قاعة المحكمة أيضا، حتى الحاجب الدائخ. هل يتم هذا كله من أجلها، لأنها كاتبة؟ هل فكرة شخص عما سيكون عليه جحيم كاتبة، أو المَطْهر على الأقل: مطهر الأكليشيهات؟ مهما تكن الحالة، لابد أن تكون فى الخارج فى الميدان، لا هنا فى هذا المبنى. يمكنها أن تجلس على إحدى الطاولات فى الظل بين لغط العشاق، وأمامها مشروب بارد، فى انتظار أولى لمسات النسيم على خدها. شىء مألوف بين الأشياء المألوفة، لكن ماذا يعنى ذلك إذا استمر فترة أطول؟ ماذا يعنى إذا كانت سعادة الرفاق الشباب سعادة مختلقة، وضجر الحارس ضجرا مختلقا، والنغمات الزائفة التى ينفخها عازف البوق بأعلى صوت نغمات زائفة مختلقة؟ هذه هى الحياة منذ وصولها إلى هذا المكان: مجموعة مدروسة من أشياء مألوفة متداخلة، بما فى ذلك الأتوبيس المقعقع بالمحرك التعبان والحقائب المحزومة على السطح، بما فى ذلك البوابة نفسها بمساميرها الهائلة البارزة. لماذا لا تخرج وتلعب دورها، دور مسافرة تهبط فى بلدة محكوم عليها بألا تغادرها أبدًا؟

من يستطيع القول، حتى وهى تتوارى فى المبنى، إنها لا تلعب دورا؟ لماذا عليها أن تعتقد أنها وحدها تستطيع النأى بنفسها عن المسرحية؟ وهل يمثل العناد الحقيقى، العزيمة الحقيقية، على أية حال إلا مواصلة

www.ibtesama.com

الأداء، مهما يكن؟ دع الفرقة تعزف نغمة راقصة، دع الرفاق ينحنى كل منهم للآخر ويخطو إلى الأرضية، وهناك، بين الراقصين، لتكنّ، إليزابيث كستلو، العضو العجوز، فى ثيابها غير المناسبة، تدور بطريقتها الجامدة إلا أنها ليست سمجة. وإذا كان ذلك أكليشيه أيضا ـ **إنها صاحبة مهنة، تلعب دورها** ـ فليكن أكليشيهًا. ماذا يؤهلها للارتجاف من الأكليشيهات حين يبدو أن الآخرين جميعا يرحبون بها ويتعايشون معها؟

الوضع مماثل فى مسألة الإيمان. ما كان يجب أن تقوله لقضاتها: **أؤمن بالروح الإنسانية المتعذر كبتها**. ربما جعلها ذلك تجتازهم، وبتصفيق شديد أيضا. **أؤمن أيضا بأن الجنس البشرى كله واحد**. يبدو أن الآخرين كلهم يعتنقونه، يؤمنون به. حتى هى تؤمن به، من حين لآخر، طبقًا لحالتها المزاجية. لماذا لا يمكنها أن تتظاهر ولو مرة واحدة؟

التقتْ، وهى صغيرة، فى عالم ضاع الآن وانتهى، أناسًا يؤمنون بالفن، أو على الأقل بالفنان، الذى حاول أن يسير على خطى الأساتذة العظماء. بصرف النظر عن فشل ذلك الرب، والاشتراكية: كان هناك دوستوفيسكى ليرشده، أو ريلكه، أو فان جوخ بأذنه المضمدة التى تمثل العاطفة. هل حملت هذا الإيمان الطفولى إلى سنواتها الأخيرة، وما وراءها: الإيمان بالفنان وحقيقته؟

تميل فى البداية إلى أن تقول لا. لا تدل كتبها على أى إيمان بالفن. تستطيع الآن وقد انتهى وتحقق

www.ibtesama.com

عبء الكتابة طوال العمر، إلقاء نظرة عليها بهدوء تام، تؤمن، بهدوء تام، أنها ليست مخدوعة. كتبها لا تعلم شيئًا، ولا تبشر بشيء؛ توضح، بأوضح ما يمكن، كيف عاش الناس فى زمن معين ومكان معين. توضح، بتعبير أكثر تواضعا، كيف عاش شخص واحد، واحد من بلايين: شخص تسميه لنفسها، **هى**، ويسميه الآخرون **إليزابيث كستلو**. إذا كانت تؤمن، فى النهاية، بكتبها نفسها بأكثر مما تؤمن بذلك الشخص، فهو إيمان فقط بالمعنى الذى يؤمن به نجار بطاولة ثابتة أو صانع براميل ببرميل متين. تعتقد أن كتبها أفضل منها إذا قورنت بها.

تعرف من تغير الجو، تغير يخترق حتى الفضاء الخامل فى المبنى، أن الشمس تغرب. تركتْ بعد الظهيرة كلها تنزلق منها. لم تذهب للرقص ولم تعمل فى الإقرار، شعرت بالملل فقط، وضيعت وقتها.

تنتعش، فى الكنيف البسيط الضيق فى الخلفية، بأفضل ما تستطيع. تجد، حين تعود، قادمة جديدة، امرأة أصغر منها، تستلقى على سرير وعيناها مغلقتان. رأتها من قبل، فى الميدان، فى صحبة رجل يرتدى قبعة بيضاء من القش. اعتبرتها من السكان المحليين. لكن من الواضح أنها ليست كذلك. من الواضح أن ملتمسة أيضًا.

ليست المرة الأولى، يخطر السؤال على ذهنها: **هل هذه هى حقيقتنا، كلنا: متوسلون فى انتظار محاكماتنا الخاصة، بعضنا جديد، والبعض، الذين**

www.ibtesama.com

أسميهم محليين، لهم فترة طويلة هنا تكفى لاستقرارهم، استقروا هنا، وأصبحوا جزءا من المشهد الجميل؟

ثمة شىء أليف فى المرأة التى على السرير هنا، شىء لا يمكنها الإمساك به. حتى حين رأتها أول مرة فى الميدان بدت مألوفة. لكن من البداية كان هناك شىء مألوف فى الميدان نفسه، البلدة كلها. كما لو أنها نُقِلتْ إلى فيلم تتذكره بصورة باهتة. عاملة التنظيف البولندية، على سبيل المثال، إذا كانت بولندية حقًا: أين رأتها من قبل، ولماذا تربطها بالشِّعْر؟ هل هذه المرأة الأصغر شاعرة أيضا؟ هل ذلك سبب وجودها هنا: ليست على الأرجح فى المطهر بل فى حديقة فى موضوع أدبى، تخضع للتحول وهى تنتظر، مع ممثلين فى مكياج ليبدو كأنهم كتاب؟ ولكن إذا كان الأمر كذلك، لماذا المكياج بهذا الفقر؟ لماذا لا يتم إنجاز الأمر كله بشكل أفضل؟

ذلك، أخيرا، هو المخيف جدًا فى هذا المكان، أو المخيف إذا لم يكن إيقاع الحياة فاترًا إلى هذه الدرجة: الهوة بين الممثلين والأدوار التى يلعبونها، بين العالم الذى يُقدَّم لها لتراه وما يمثله هذا العالم. إذا كانت الحياة الآخرة، إذا كان كذلك، إذا أطلقنا عليه ذلك الاسم للحظة ـ إذا تبين أن الحياة الآخرة ليست سوى تهريج، زيف من البداية إلى النهاية، لماذا يفشل الزيف بكل هذا الثبات، لا يفشل فشلا هيِّنًا- بحيث يمكن للمرء أن يتسامح معها- بل يفشل فشلا ذريعًا؟

www.ibtesama.com

تشبه أعمال كافكا. الجدار، البوابة، الحارس، من كافكا مباشرة. وأيضا الاحتياج إلى اعتراف، وقاعة المحكمة بالحاجب الدائخ وهيئة قضاة من الرجال المسنين فى عباءاتهم السوداء للفت الانتباه وهى تتقلب فى شِباك كلماتها. كافكا، لكن المظاهر الخارجية لكافكا فقط؛ كافكا مختصرا ومسطحا فى محاكاة ساخرة.

ولماذا يُدفَع كافكا بشكل خاص إليها؟ ليست متعصبة لكافكا. لا يمكنها، غالبا، أن تقرأه بدون نفاد صبر. كثيرا ما تجده، أو على الأقل ذواته التى يشير إليها بحرف ك، وهو يترنح بين اليأس واللهفة، بين الغضب والخنوع، طفوليًا ببساطة. لماذا **الرهان فى المشهد**(*) الذى قُذِفتْ فيه- تكره الكلمة لكن ليست هناك كلمة أخرى- كافكاوى تماما؟

إحدى الإجابات التى تخطر ببالها أن العرض وضع مع بعضه بهذه الطريقة **لأنه** ليس عرضها. **لا تحبين الكافكاوى، فلنغيظك به إذًا**. ربما لهذا وُجِدتْ هذه البلدات الحدودية: لتعلم الحجاج درسًا. حسن جدًا؛ لكن لماذا يذعنون للدرس؟ لماذا تؤخذ الأمور بكل هذه الجدية؟ ماذا يمكن أن يفعل لها هؤلاء الذين يُدعَون قضاةً إلا أن يوقفوها، يوما بعد يوم؟ والبوابة نفسها، التى تعترض طريقها: رأت ما يقع خلفها. ثمة ضوء، بالتأكيد، لكنه ليس الضوء الذى شاهده دانتى فى الفردوس، وليس حتى من النوع نفسه. إذا واصلوا

(*) بالفرنسية فى الأصل.

www.ibtesama.com

منعها من المرور عبرها، حسن جدا إذًا، كفى(*) فليمنعوها. لتقضِ بقية عمرها، إذا جاز التعبير، هنا، تضيع ساعات النهار فى الميدان وتتراجع عند هبوط الليل لتستلقى فوق رائحة عرق شخص آخر. ليس المصير الأسوأ. لابد أن هناك ما يمكن أن تفعله ليمر الوقت. من يعرف، ربما حتى تبدأ كتابة الروايات مرة أخرى، إذا وجدت محلا يؤجر آلات كاتبة..

***

الصباح، وهى عند طاولتها على الرصيف، تعمل فى إقرارها، محاولة بطريقة جديدة. حيث إنها تتباهى بأنها سكرتيرة المحجوب، فلتركز انتباهها، وتحوله إلى الداخل. أى صوت يمكن أن تسمعه من المحجوب اليوم؟

لا تسمع، للحظة، إلا صوت الدماء بطيئًا فى أذنيها، ولا تشعر إلا بلمسة رقيقة للشمس على جلدها. ليس عليها أن تبتكر هذا على الأقل: تحوَّلَ هذا الجسد الأخرس المؤمن الذى رافقها فى كل خطوة من طريقها، هذا الشبح الدمث المتثاقل الذى أعطى لها ليرعاها، هذا الظل، إلى لحم يقف على قدمين مثل دب ويغتسل باستمرار من الداخل بالدماء. ليست وحدها فى هذا الجسد، شىء لم تكن لتحلم به ولو بعد ألف سنة، أبعد بكثير من قدراتها، إنها بشكل ما هذا الجسد؛ وكل ما حولها فى الميدان، فى هذا

(*) بالفرنسية فى الأصل.

www.ibtesama.com

الصباح الجميل، هؤلاء الناس، هم أجسادهم أيضا بشكل ما.

بشكل ما؛ لكن كيف؟ كيف لا يمكن للأجساد على هذه الأرض أن تحافظ على نظافتها إلا باستخدام الدم (الدم!) لكنها تتأمل سر وجودها وتعبر عنه بكلمات وربما تنتشى من حين لآخر نشوة بسيطة؟ هل يُعَدُّ معتقدا، مهما تكن خاصيته التى تسمح لها بالاستمرار فى أن تكون هذا الجسد حين لا تعرف كيفية حدوث الخدعة؟ هل يَقْنَعون، منصة القضاة، هيئة الممتحنين، منبر القضاة، مَنْ يطلبون منها الكشف عن معتقداتها- هل يَقْنَعون بهذا: **أؤمن بأننى أنا؟ أؤمن بأن من تقف أمامكم اليوم أنا؟** أم أن هذا يشبه الفلسفة إلى حد بعيد، يشبه غرفة السيمينار إلى حد بعيد؟

فى الأوديسة حادثة تهزها من أعماقها. نزل أوديسيوس فى مملكة الموتى ليستشير العراف تريزياس(*) متبعا تعليماته، يحفر خندقا، ويقطع حنجرة كبشه المفضل، ويترك دماءه تنساب فى الخندق. والدماء تتدفق، يسيل لمذاقه لعاب حشد الموتى الشاحبين من حوله، وكان على أوديسيوس أن يجرد سيفه ليبعدهم.

بركة الدم القاتم، الكبش الخامد، الرجل، عند المنحنى، مستعد للضرب والطعن إذا تطلب الأمر،

(*) تريزياس Tiresias : عراف أعمى فى الميثولوجيا، اكتشف حقيقة جرائم أوديب. ويقول أوفيد أن تريزياس قضى جزءا من حياته كرجل وجزءا منها كامرأة.

www.ibtesama.com

والأرواح الشاحبة يصعب تمييزها عن الجيف: لماذا يأسرها المشهد؟ ماذا يقول، قادما من المحجوب؟ تؤمن، بدون شك، بالكبش، الكبش الذى جره سيده إلى هذا المكان الرهيب. الكبش ليس مجرد فكرة، الكبش حى مع أنه يحتضر الآن. إذا كانت تؤمن بالخروف، فهل تؤمن بدمائه أيضا، هذا السائل المقدس، اللزج، القاتم، الذى يكاد يكون أسود، يتدفق على التربة حيث لا ينبت شىء؟ الكبش المفضل عند ملك إيثاكا(*) هكذا تجرى القصة، مع أنه يعامل فى النهاية وكأنه مجرد حقيبة من الدماء، تُفْتَح ويتدفق منها. يمكنها أن تفعل ذلك، هنا والآن: تضع نفسها فى حقيبة، تقطع أوردتها فتتدفق الدماء على الرصيف، فى البالوعة. لذلك هل يعنى كل ذلك، فى النهاية، أنها حية: قدرتها على أن تموت. هل هذه الرؤية محصلة إيمانها: رؤية الكبش وما يحدث للكبش؟ هل ستكون هذه القصة مناسبة لهم بما فيه الكفاية، لقضاتها الجائعين؟

تجلس امرأة قبالتها. لا تبدو مشغولة.

"هل تعملين فى اعترافك؟"

المرأة التى رأتها فى المبنى، المرأة ذات اللكنة البولندية، المرأة التى تظن أنها كابو. ترتدى هذا الصباح ثوبا من القطن، منقوشا بزهور، أخضر ليمونى، ثوبا من طراز قديم، بحزام أبيض. يناسبها،

(*) إيثاكا Ithaca: جزيرة غرب اليونان، كانت وطن أوديسيوس، بطل الأوديسة.

www.ibtesama.com

يناسب شعرها الأشقر القوى وجلدها الذى حرقته الشمس وهيكلها العريض. تبدو مثل فلاحة فى موسم الحصاد، قوية، قادرة.

"لا، ليس اعترافا، إنه إقرار بالمعتقد. هذا ما طُلِب منى."

"نسميها اعترافات هنا."

"حقا. لا أسميها كذلك. ليس بالإنجليزية. ربما باللاتينية، ربما بالإيطالية."

ليست المرة الأولى، تتعجب كيف أن كل من تقابله يتحدث الإنجليزية. أم أنها مخطئة؟ هل هؤلاء الناس فى الحقيقة يتكلمون لغات أخرى، لغات لا تعرفها- البولندية، المجرية، الوندية [1] وهل يترجم ما ينطقون به إلى الإنجليزية، فورا، بمعجزة، من أجلها؟ أم أنها، من ناحية أخرى، حالة من الوجود فى هذا المكان أن يتكلم الجميع لغة مشتركة، اسبرانتو [2] على سبيل المثال، وأن هذه الأصوات التى تخرج من بين شفتيها ليست، كما تعتقد خطأ، كلمات إنجليزية بل كلمات اسبرانتوية، بالضبط كما أن الكلمات التى تنطقها المرأة الكابو اسبرانتوية، مع أن المرأة قد تعتقد أنها بولندية؟ لا تتذكر هى نفسها، أى إليزابيث كستلو، أنها

(١) الوندية Wendish :أو الصربية. إحدى اللغات السلافية، يتحدث بها الونديون (الصرب).

(٢) اسبرانتو Esperanto: لغة دولية مصطنعة من معجم على جذور الكلمات المشتركة فى كثير من اللغات الأوروبية (تنسب إلى دكتور اسبرانتو، عالم بولندى فى فقه اللغة).

www.ibtesama.com

درست الاسبرانتوية، لكنها قد تكون مخطئة، كما كانت مخطئة فى أشياء كثيرة. لكن لماذا إذًا كل البُّدُل إيطاليون؟ أم أن ما تعتقد أنها لغة إيطالية ليست إلا اسبرانتو بلكنة إيطالية وإيماءات إيطالية باليد؟

الرفيقان الجالسان على الطاولة المجاورة يشبكان إصبعيهما الصغيرين معا. يشد كل منهما الآخر بضحك؛ يخبطان جبهتيهما، يتهامسان. ليس لديهما اعترافات يكتبانها على ما يبدو. لكن ربما لا يكونان ممثلين، ممثلين بكل معنى الكلمة مثل المرأة البولندية أو المرأة التى تمثل دور امرأة بولندية؛ ربما كانا مجرد شخصين إضافيين، طلب منهما أن يفعلا ما يفعلانه كل يوم فى حياتهما ليملآ نشاط الميدان، ليمنحاه احتمال الصدق، التأثير الواقعى. لابد أنها حياة لطيفة، حياة الشخص الإضافى. لكن لابد أن يبدأ القلق فى الزحف بعد سن معينة. بعد سن معينة، تبدو، بالضرورة، حياة الشخص الإضافى وكأنها تضييع لوقت ثمين.

"ماذا تقولين فى اعترافك؟"

"ما قلتُ من قبل: لا يمكن أن أحتمل الإيمان. على المرء فى مهنتى أن يعلق الإيمان. هذا الإيمان تدليل. ترف. عقبة فى الطريق."

"حقا. قد يصف بعضنا الترف الذى لا يمكن أن نحتمله بأنه كفر."

تنتظر المزيد.

www.ibtesama.com

تواصل المرأة: "الكفر- مفكرة فى كل الاحتمالات، متنقلة بين المتناقضات- دليل على وجودٍ مترفٍ، وجود ترفى. على معظمنا أن يختاروا. وحدها الروح الخفيفة تحلق فى الهواء." تتكئ أكثر. "من أجل الروح الخفيفة، دعينى أقدم نصيحة. قد يقولون إنهم يحتاجون إلى إيمان، لكنهم عمليا يرضون بالعاطفة. أريهم العاطفة وسيَدَعونك تمُرِّين."

تكرر: "عاطفة؟ العاطفة الحصان الأسود؟ كنتُ أعتقد أن العاطفة تبعد المرء عن الضوء، وليس باتجاهه. إلا أن العاطفة فى هذا المكان، كما تقولين، مناسبة جدا. أشكرك على المعلومة.

نبرتها ساخرة، لكن رفيقتها لا ترفض. على العكس، تستقر أكثر هدوءا فى مقعدها وتومئ إيماءة بسيطة، وتبتسم ابتسامة بسيطة، كما لو كانت تبتكر السؤال الذى يأتى الآن.

"أخبرينى، كيف يمكن لكثير منا أن يمروا، أن يجتازوا الامتحان، أن يمروا عبر البوابة؟"

تضحك المرأة، ضحكة هادئة، جذابة بشكل غريب. أين رأتها من قبل؟ لماذا كل هذا الجهد لتتذكر، مثل إحساس المرء بطريقه عبر الضباب؟ تقول المرأة: "عبر أية بوابة؟ هل تعتقدين أنه لا توجد إلا بوابة واحدة؟" تهزها ضحكة جديدة، رجفة طويلة مترفة فى الجسد تجعل ثدييها الثقيلين يهتزان. تقول: "هل تدخنين؟ لا؟ هل تفكرين؟"

www.ibtesama.com

من علبة سجائر ذهبية تأخذ سيجارة، وتشعل عود ثقاب، تنفث. يدها غليظة وعريضة، يد فلاحة. إلا أن الأظافر نظيفة وملونة ببراعة. من هى؟ **وحدها الروح الخفيفة تحلق فى الهواء. يبدو وكأنه اقتباس.**

تقول المرأة: "من يعرف ما نعتقده حقا. إنه هنا دفين فى قلبنا." بخفة تضرب ثديها. "دفين حتى عن أنفسنا. ليس الإيمان ما تبحث عنه اللجان. التأثير كافٍ، تأثير الإيمان. أظهرى لهم أنك تحسين وسيرضون."

"ماذا تعنين باللجان؟"

"لجان الممتحنين. نسميهم لجنة. ونسمى أنفسنا الطيور المغردة. نغنى للجان، لبهجتهم."

تقول: "لا أقدم استعراضات. لستُ مغنية." ينجرف دخان السيجارة إلى وجهها؛ تبعده. "لا يمكن أن أخترع ما تسمينه العاطفة حين لا توجد. لا يمكن أن أفتحها وأغلقها. إذا لم تفهم لجانكم ذلك-" تهز كتفيها. كانت على وشك أن تقول شيئا عن تذكرتها، عن إعادة تذكرتها. لكن ذلك سيكون عظيما جدا، أدبيا جدا، فى مناسبة بهذه التفاهة.

تطفئ المرأة سيجارتها. تقول: "يجب أن أذهب. أحتاج لشراء بعض الأشياء."

قد لا تفصح عن طبيعة هذه الأشياء. لكن يصدمها، إليزابيث كستلو (هنا تبهت الأسماء: حسنا، لا يبهت اسمها بأى شكل)، مدى السلبية التى آلت إليها، مدى لا مبالاتها. هناك أشياء تود هى الأخرى

www.ibtesama.com

شراءها. تحتاج، بعيدا عن فنتازيا الآلة الكاتبة، إلى كريم واق من الشمس، وصابون خاص بها، لا صابون الفينول المزعج الموجود فى الكنيف. إلا أنها لا تأتى بأية حركة لتسأل عن المكان الذى يشترى المرء منه أشياءه فى هذا المكان.

ثمة شىء آخر يصدمها. فقدت شهيتها تماما. منذ الأمس تتذكر بصعوبة أنها لم تتناول سوى جيلاتى ليمون ومكرونة مع القهوة. تنفر اليوم تماما من فكرة الأكل نفسها. تشعر أن جسدها ثقيل بشكل بغيض، مادى بشكل بغيض.

هل يبدأ مسار جديد فى الدعوة: كواحدة من أناس نحاف، صائمين بشكل قهرى، فنانين جائعين؟ هل سيشفق عليها قضاتها حين يرونها تضمر؟ ترى نفسها، نحيفة كالعصا على منصة عامة وفى بقعة من ضوء الشمس تكتب باستعجال عن غايتها، غاية لن تكتمل أبدا. تهمس لنفسها: **يحفظنى الرب! أدبية جدا! أدبية جدا! لابد أن أخرج من هنا قبل أن أموت!**

تعود العبارة إليها مرة أخرى فى العتمة، وهى تقوم بجولة حول سور البلدة، تشاهد طيور السنونو تنقض وتهبط فوق الميدان. **روح خفيفة**. هل هى روح خفيفة؟ ما الروح الخفيفة؟ تفكر فى فقاعات الصابون تطفو مرتفعة بين طيور السنونو، ترتفع إلى السماء الزرقاء. هل هكذا تراها المرأة، المرأة التى وظيفتها أن تمسح الأرضية وتنظف الكنيف (لم ترها أبدا تفعل هذه الأشياء)؟ من المؤكد أن حياتها لم تكن حياة

www.ibtesama.com

صعبة، بمعظم المعايير، لكنها أيضا لم تكن سهلة. ربما كانت هادئة، ربما آمنة: حياة فى الناحية الأخرى من الكرة الأرضية، بعيدة عن أسوأ تاريخ؛ لكنها مدفوعة أيضا، الكلمة ليست قوية. هل عليها أن تبحث عن المرأة وتعرف حقيقتها؟ هل ستفهم المرأة؟

تتنهد، تواصل المشى. كم هو جميل هذا العالم، حتى لو كان مجرد صورة مقلدة! على الأقل هناك ما تستند عليه.

***

قاعة المحكمة نفسها، والحاجب نفسه، لكن هيئة القضاة (اللجنة، كما لابد أن تتعلم الآن تسميتها) جديدة. يوجد سبعة منهم، لا تسعة، بينهم امرأة؛ لا تعرف وجهًا من هذه الوجوه. والمنصات العامة لم تعد خاوية. لها مشاهِد، مؤيد: المرأة المنظفة، تجلس وحدها وحقيبة من الخيوط فى حِجْرها.

"إليزابيث كستلو، مقدمة طلب، الجلسة رقم اثنين"، ينطق المتحدث باسم لجنة اليوم (القاضى الرئيسى؟ كبير القضاة؟). "نقحتِ إقرارك، نفهم. من فضلك ابدئى."

تخطو إلى الأمام. تقرأ بصوت ثابت، كطفل يسمِّع ما حفظه: "ما أعتقده، إننى ولدتُ فى ملبورن، لكننى قضيتُ جزءًا من طفولتى فى فيكتوريا، فى منطقة قارية: جفاف محرق تتبعه أمطار غزيرة تملأ الأنهار بجثث الحيوانات الغريقة. على أية حال، هذا ما أتذكره.

www.ibtesama.com

"حين تنحسر المياه ـ أتحدث الآن عن مياه نهر واحد بشكل خاص، الدُّلجانون- تخلف وراءها هكتارات من الطمى. فى الليل تسمع نقيق عشرات الآلاف من الضفادع الصغيرة ابتهاجا بسخاء السماوات. وقد يمتلئ الهواء بندائها كامتلائه فى الظهيرة بصوت الزيز(*).

"من أين تصل فجأة، هذه الآلاف من الضفادع؟ الإجابة: إنها هناك دائما. تذهب فى موسم الجفاف تحت الأرض، تختبئ أبعد وأبعد من حرارة الشمس حتى تصنع كل منها قبرا صغيرا لنفسها. وتموت فى هذه القبور، إذا جاز التعبير. تقل نبضات قلوبها، يتوقف تنفسها، تتحول بلون الطمى. وتصمت الليالى مرة أخرى.

"تصمت حتى تأتى الأمطار التالية، فتدق، إذا جاز التعبير، على الآلاف من أغطية التوابيت الضئيلة. وفى تلك التوابيت تنبض القلوب، وتنتفض الأطراف، تلك التى كانت بلا حياة لشهور. يستيقظ الموتى. وحين تلين كتل الطمى، تشق الضفادع طريقها إلى الخارج، وبسرعة يظهر صوتها من جديد بابتهالات سعيدة تحت قبة السماوات.

"سامحونى على لغتى. أنا، أو كنتُ، كاتبة محترفة. أراعى عادةً إخفاء غلو التخيل. لكننى فكرتُ اليوم، بهذه المناسبة، ألا أخفى شيئا، أن أكشف كل

(*) الزيز cicada : نوع من الحشرات، برأس عريض وأجنحة رقيقة، ويوجد فى الذكر عضوان يصدران صوتا مدندنا عالى النبرة.

www.ibtesama.com

شىء. الفيضان الغامر، كورس النقيق المبهج، الذى يتبعه انحسار المياه والتراجع إلى المقبرة، ثم الجفاف بلا نهاية على ما يبدو، ثم الأمطار الجديدة وبعث الموتى ـ هذه قصة أقدمها بشفافية، دون قناع.

"لماذا؟ لأننى لستُ اليوم أمامكم ككاتبة بل كامرأة عجوز كانت طفلة ذات يوم، أحكى لكم ما أتذكره عن مسطحات طمى الدلجانون فى طفولتى وعن الضفادع التى تعيش هناك، بعضها صغير فى حجم أنملة إصبعى الصغير، كانت عديمة الأهمية تماما وبعيدة تماما عن اهتماماتكم الأسمى حتى أنكم ربما لم تسمعوا عنها من قبل. أظن أن دورة حياة الضفدعة، أتوسل عفوكم لسقطاتها الكثيرة، قد تبدو مجازية، لكنها بالنسبة للضفادع نفسها ليست مجازية، إنها الحقيقة، الحقيقة الوحيدة.

"بم أؤمن؟ أؤمن بتلك الضفادع الصغيرة. أين أجد نفسى اليوم، فى سنى الكبيرة وربما سنى الكبرى، لستُ متأكدة. ثمة لحظات أشعر أنها تبدو مثل إيطاليا، لكننى قد أكون مخطئة بسهولة، قد يكون مكانا مختلفا تماما. البلدات فى إيطاليا ليس فيها، بقدر ما أعرف، منافذ (لن أستخدم الكلمة المتواضعة، بوابة، فى وجودكم) يمنع المرور خلالها. لكن القارة الأسترالية، حيث ولدتُ فى هذا العالم، أرفس وأصرخ، حقيقة (حتى لو كانت بعيدة جدا)، الدلجانون ومسطحات الطمى حقيقية، الضفادع حقيقة. إنها موجودة سواء حكيتُ لكم عنها أو لم أحكِ، سواء آمنتُ بها أو لم أؤمن.

www.ibtesama.com

"نتيجة لامبالاة هذه الضفادع الصغيرة بإيمانى (كل ما تريده من الحياة فرصة لالتهام البعوض والغناء؛ والذكور من بينها، التى تقوم بمعظم الغناء، لا تغنى لتملأ هواء الليل بالأنغام بل شكلا من الغَزَل، تأمل أن تكافأ مقابله بالأورجازم، النوع الذى تعرفه الضفادع من الأورجازم، مرات ومرات) ـ نتيجة لامبالاتهم بى أؤمن بهم. وهذا هو السبب، بعد ظهيرة هذا اليوم، فى هذه الكلمة المندفعة بشكل يدعو للأسى والأدبية بشكل يدعو للأسى الذى أعتذر بسببه مرة أخرى، لكننى فكرتُ أن أقدم نفسى لكم بدون أفكار مسبقة، **مجردة تماما**(*) إذا جاز التعبير، وغالبا، كما يمكن أن تروا بأنفسكم، بدون تدوين ملاحظات- لهذا أتحدث إليكم عن الضفادع. عن الضفادع ومعتقدى أو معتقداتى والعلاقة بين الأولى والأخيرة. لأنها موجودة."

تتوقف. من خلفها، صوت تصفيق لطيف، من يدين اثنتين فقط، يدى المرأة المنظفة. يتضاءل التصفيق ويتوقف. كانت هى، أى المرأة المنظفة، التى هيأتها لذلك ـ هذا الفيضان من الكلمات، هذه الثرثرة، هذه الحيرة، هذه **العاطفة**. حسنا، لنرَ أى نوع من الاستجابة تتلقاه العاطفة.

يميل أحد القضاة، الرجل الذى إلى أقصى اليمين، إلى الأمام. يقول: "دلجانون. هل هذا نهر؟"

(*) بالفرنسية فى الأصل.

www.ibtesama.com

"أجل، نهر. إنه موجود. لا يمكن تجاهله. تجده على معظم الخرائط."

"وقد قضيتِ طفولتك هناك، على الدلجانون؟"

تصمت.

"لأنه لا يُذكَر شيء هنا، في جعبتك، عن طفولة على الدلجانون."

تصمت.

"هل الطفولة على الدلجانون قصة أخرى من قصصك، مسز كستلو؟ إضافة إلى الضفادع وأمطار السماء؟"

"النهر موجود. الضفادع موجودة. أنا موجودة. ماذا تريد أكثر من ذلك؟"

المرأة التي بينهم، نحيلة، بشعر فضي جميل ونظارة بإطار فضي، تتكلم. "هل تؤمنين بالحياة؟"

"أؤمن بكل ما لا ينشغل بالإيمان بي."

تومئ القاضية إيماءة بسيطة تنم عن نفاد الصبر. "الحجر لا يؤمن بك. الدغل. لكنك لا تختارين أن تحدثينا عن الحجارة والأدغال بل عن الضفادع، تنسبين لها قصة حياة مجازية جدا، كما تستنتجين. تجسد ضفادعك الأسترالية روح الحياة، التي تؤمنين بها كقاصة."

ليس سؤالا، إنه، في الحقيقة، حكم. هل يجب أن تقبله؟ **تؤمن بالحياة**: هل تعتبر ذلك الكلمة الأخيرة عنها، مرثيتها؟ تميل تماما إلى الاعتراض: تريد أن

www.ibtesama.com

تصرخ: **تافهة. إننى جديرة بما هو أفضل من ذلك!** لكنها تكبح نفسها. ليستْ هنا لتكسب مناقشة، إنها هنا لتكسب مرورا، ممرا. بمجرد أن تمر، بمجرد أن تودع هذا المكان، سيكون ما تتركه خلفها، حتى لو كانت مرثية، عديم الأهمية إلى أقصى حد.

تقول باحتراس: "إذا أحببتِ."

تنظر القاضية، قاضيتها، بعيدا، تزم شفتيها. يخيم صمت طويل. تستمع إلى طنين ذبابة يفترض أنه يسمع فى مثل هذه المناسبات، لكن لا يبدو أن هناك ذبابة فى قاعة المحكمة.

هل تؤمن بالحياة؟ هل تؤمن حتى، من أجل هذه المحاكمة العبثية ومتطلباتها، بالضفادع؟ كيف يمكن للمرء أن يعرف ما يؤمن به؟

تحاول اختبارا يبدو أنه فعال حين تكتب: أن ترسل كلمة فى الظلام وتستمع لصداها. مثل صائغ ينقر جرسا: هل هو مشروخ أم سليم؟ الضفادع: ما النغمة التى تصدرها الضفادع؟

الإجابة: لا نغمة على الإطلاق. لكنها حذرة جدًا، تعرف المسألة تماما، ليخيب أملها حتى الآن. ضفادع طمى الدُّلجانون رحلة جديدة بالنسبة لها. امنحوها وقتا: ربما مع ذلك صنعت لترنَّ رنة حقيقية. لأن هناك شيئا بشأنها يشغلها بشكل غامض، شيئا عن توابيت الطمى وأصابع أيديها، الأصابع التى تنتهى بِكُرَات صغيرة، رقيقة، رطبة، مخاطية.

www.ibtesama.com

تفكر فى الضفدعة تحت الأرض، تنتشر وكأنها تطير، وكأنها تهبط بمظلة فى الظلام. تفكر فى الطمى يأكل عند أنامل تلك الأصابع، يحاول أن يمتصها، أن يذيب الغشاء الرقيق حتى لا يستطيع أحد بعد ذلك أن يميز (بالتأكيد ليست الضفدعة نفسها، وقد ضاعت فى نومها البارد فى البيات الشتوى) بين الأرض واللحم. أجل، ذلك ما يمكن أن تؤمن به: التحلل، العودة إلى العناصر؛ ويمكنها أيضا أن تؤمن باللحظة المضادة، حين تسرى الرجفة الأولى لعودة الحياة فى الجسد وتنقبض العضلات، وتنثنى اليدان. يمكن أن تؤمن بذلك، إذا ركزت بدقة كافية، كلمةً كلمة.

يهمس الحاجب بكلمة للتنبيه. يشير باتجاه المنصة، حيث ينظر كبير القضاة إليها بنفاد صبر. هل كانت فى غيبة، أو حتى نائمة؟ هل نعستْ فى وجوه قضاتها؟ يجب أن تكون أكثر حذرا.

"أحيلك إلى ظهورك الأول أمام المحكمة، حين قلتِ إن وظيفتك 'سكرتيرة المحجوب' وقلتِ العبارة التالية: 'السكرتيرة الجيدة يجب ألا يكون لها معتقدات. إنها لا تناسب وظيفتها ؟'وبعد وقت قصير، 'لى معتقدات لكننى لا أؤمن بها.

"فى تلك الجلسة بدا أنك تستخفين بالإيمان، واصفة إياه بأنه معوق لحرفتك. إلا أنك، فى جلسة اليوم، تظهرين إيمانك بالضفادع، أو بشكل أكثر دقة

www.ibtesama.com

بالمعنى المجازى لحياة الضفدعة، إذا كنتُ أفهم اندفاعك. سؤالى هو: "هل غيرتِ أساس الدعوى من الجلسة الأولى إلى الجلسة الحالية؟ هل تتخلين عن قصة السكرتيرة وتقدمين قصة جديدة، مؤسسة على ثبات إيمانك بالخلْق؟"

هل غيرتْ قصتها؟ سؤال خطير، لاشك فى ذلك، إلا أن عليها أن تكافح لتثبِّتْ انتباهها عليه. قاعة المحكمة حارَّة، تشعر أنها مخدَّرة، ليست متأكدة مما يمكن أن تحتمله من هذه الجلسة. ما تود أن تفعله أكثر هو أن تضع رأسها على مخدة وتغفو، حتى لو كانت المخدة القذرة فى المبنى.

"يعتمد"، تقول، مضيعة الوقت، محاولة أن تفكر (تقول لنفسها: **تعالى، تعالى! حياتك تعتمد على هذا!**). "سألت ما إن كنتُ غيرتُ دعواى. لكن من أنا، من هذه الأنا، هذه الأنت؟ نتغير من يوم ليوم، ونبقى أيضا كما كنا. لا أنا، ولا أنت أساسيان أكثر من أى شخص آخر. ربما تسأل أيضا أيهما إليزابيث كستلو الحقيقية: التى قدمت الإقرار الأول أم التى قدمت الثانى. إجابتى هى، كلتاهما حقيقيتان. كلتاهما. ولا واحدة منهما. أنا أخرى. سامحنى للجوئى إلى كلمات ليست كلماتى، لكن لا يمكننى تحسينها. أمامك الشخص الخطأ. إذا كنت تعتقد أن أمامك الشخص الحقيقى فإن أمامك الشخص الخطأ. إليزابيث كستلو الخطأ."

www.ibtesama.com

هل هذا صحيح؟ قد لا يكون صحيحا لكن من المؤكد أنه ليس خطأ. لم تشعر أبدا فى حياتها أكثر من ذلك بأنها الشخص الخطأ.

يلوح مستجوبها بنفاد صبر. "لا أطلب رؤية جواز سفرك. جوازات السفر لا أهمية لها هنا، كما أنا متأكد من أنك تدركين ذلك. السؤال الذى أسأله هو: أنت، وأقصد بها هذا الشخص الذى أمام عيوننا، هذا الشخص الذى يلتمس المرور، هذا الشخص الذى هنا وليس فى أى مكان آخر- هل تكلمين نفسك؟"

"نعم. لا، بالتأكيد لا. نعم ولا. كلاهما."

يلقى قاضيها نظرة يسارا ويمينا إلى زملائه. هل تتخيلها، أم أن ومضة الابتسامة تمر بينهم، وكلمة مهموسة؟ ما الكلمة؟ مرتبكة؟

يلتفت إليها. "أشكرك. هذا كل شىء. تعرفين رأينا فى الوقت المناسب."

"هذا كل شىء؟"

"هذا كل شىء، اليوم."

"لستُ مرتبكة."

"أجل، لستِ مرتبكة. لكن من الذى ليس مرتبكا؟"

لا يستطيعون السيطرة على أنفسهم، هيئة قضاتها، لجنتها. يضحكون فى البداية ضحكة مكبوتة كالأطفال، ثم يتخلون عن وقارهم ويعوون بالضحك.

***

www.ibtesama.com

تتجول عبر الميدان. الوقت، كما تخمن، بعد الظهر مباشرة. الصخب أقل من المعتاد. لابد أن السكان المحليين فى قيلولتهم. **الشاب فى ذراعى شخص آخر**. تقول لنفسها، ليس بدون مرارة: إذا عشتُ حياتى مرة أخرى، فسوف أقضيها بشكل آخر. بشكل أكثر متعة. أى خير قدمته لى حياة الكتابة، وهى توشك الآن على البرهان الأخير؟

الشمس حامية. يجب أن تضع قبعة على رأسها. لكن قبعتها فى المبنى، وفكرة دخول هذا المكان المكتوم مرة أخرى تصدها.

مشهد مبنى المحكمة لم يفارقها، عاره، خزيه. إلا أنها تبقى فى ظل هذا كله، بشكل غريب، تحت سحر الضفادع. إنها اليوم، كما يبدو، ميالة للإيمان بالضفادع. ماذا سيكون عليه الحال غدا؟ الذباب؟ الجنادب؟ تبدو مواضيع إيمانها عشوائية تماما. تأتى بدون مقدمات، مدهشة وفريدة، برغم مزاجها الكئيب، وتُبَهِجها.

تنقر الضفادع نقرة بظفرها. النغمة التى ترتد واضحة، واضحة مثل جرس.

تنقر كلمة إيمان نقرة. كيف يقاس **الإيمان**؟ هل يصلح اختبارها مع المجردات أيضا؟

الصوت الذى يرتد عن **الإيمان** ليس بالوضوح نفسه، لكنه واضح بما يكفى على أية حال. اليوم، فى هذا الوقت، فى هذا المكان، من الواضح أنها ليست بدون إيمان. إن ما تفكر فيه الآن، ما تعيشه، بمعنى

www.ibtesama.com

معين، بالإيمان. يبدو أن ذهنها، حين تكون نفسها حقا، ينتقل من إيمان إلى آخر، وقفة، اتزان، ثم حركة. تأتى إلى ذهنها صورة فتاة تعبر تيارا؛ تأتى مع بيت لكيتس: **محافظة على ثبات رأسها المثقل عبر غدير**. تعيش بالإيمان، تعمل بالإيمان، إنها مخلوق إيمانى. يا لها من راحة! هل تعود وتخبرهم، أى قضاتها، قبل أن يخلعوا ملابسهم (وقبل أن تغير رأيها)؟

تندهش لأن محكمة تنصب نفسها للاستجواب بشأن الإيمان ترفض مرورها. لابد أنهم استمعوا لكُتَّاب آخرين من قبل، مؤمنين كافرين أو كافرين مؤمنين. الكُتَّاب ليسوا محامين، من المؤكد أنهم لابد أن يسمحوا بذلك، يسمحوا بغرابة التقديم. لكن هذه بالطبع ليست محكمة قانون. وليست حتى محكمة منطق. كان انطباعها الأول صحيحا: محكمة تخرج من كافكا أو '**أليس فى بلاد العجائب**' محكمة المفارقة. سيكون الأول أخيرا والأخير أولا. أو بالعكس. إذا سُلِّم مقدما أن المرء يستطيع أن ينفث فى سمع المرء حكايات من طفولته، متنقلا برأس محمَّل من معتقد إلى آخر، من الضفادع إلى الحجارة إلى الآلات الطائرة، بقدر ما تغير امرأة قبعتها (الآن من أين أتى ذلك السطر؟)، ثم يأخذ كل ملتمس سيرة ذاتية، ويغرق كاتب اختزال المحكمة فى تيارات من التداعى الحر.

إنها أمام البوابة مرة أخرى، أمام بوابتها بوضوح وبوابتها وحدها، مع أنها لابد أن تكون مرئية لأى

www.ibtesama.com

شخص يهتم بإلقاء نظرة عليها. إنها، كما كانت دائمًا، مغلقة، لكن الباب إلى الكوخ مفتوح، ويمكنها أن ترى بالداخل البوابَ، الحارس، مشغولا بأوراقه كالعادة، التى تهتز قليلا فى هواء المروحة.

تشير: "يوم آخر حار."

يهمهم، ولا يتوقف عن عمله.

تواصل، محاولة ألا تُمنَع: "كلما مررتُ بك أراك تكتب. أنت أيضا كاتب، بمعنى ما. ماذا تكتب؟"

"سجلات. أحدِّث السجلات."

"انتهيتُ للتو من جلستى الثانية."

"أمر طيب."

"غنيتُ لقضاتى. كنتُ اليوم طائرا مغردًا. هل تستخدمون هذا التعبير: **طائرا مغردًا**؟"

يهز رأسه بشكل تجريدى: لا.

"لم تكن أغنيتى جيدة، أنا خائفة."

"مم؟"

تقول: "أعرف أنك لستَ قاضيا. مع ذلك، فى رأيك، هل أمامى أية فرصة للمرور؟ وإذا لم أمر، إذا اعتُبِرتُ غير جيدة بما يكفى للمرور، هل أقف هنا إلى الأبد، فى هذا المكان؟"

يهز كتفيه. "أمامنا كلنا فرصة." لم يتطلع إليها، ولو مرة. هل يعنى هذا شيئا ما؟ هل يعنى أنه يفتقر إلى الشجاعة للنظر فى عينها؟

www.ibtesama.com

تؤكد: "لكن ككاتبة، ما الفرصة التى أمامى ككاتبة، مع المشاكل الخاصة بكاتب، الوفاء الخاص؟"

الوفاء. الآن تبينت الأمر، تعرف أنها الكلمة التى يتعلق بها كل شىء.

يهز كتفيه مرة أخرى. يقول: "لا أحد يعرف. إنها مسألة ترجع لِلّجان."

"لكنك تحتفظ بالسجلات- من يمر ومن لا يمر. لابد أنك، بمعنى ما، تعرف."

لا يردُّ.

"هل رأيتَ أناسًا كثيرين مثلى، أناسًا فى موقفى؟" تواصل بشكل ملحٍّ، بدون سيطرة على نفسها، تسمع نفسها بدون سيطرة، تكره نفسها من أجل ذلك. **فى موقفى**: ماذا يعنى ذلك؟ ما موقفها؟ موقف من لا تعرف رأيها هى نفسها؟

ترى شيئًا على البوابة، الجانب البعيد من البوابة، الجانب الذى تنُكَر عنده. أسفل البوابة، مُغلِقًا الطريقَ، يتمدد كلبٌ، كلب عجوز، جلده بلون جلد الأسَد به ندب من تشوهات لا تحصى. عيناه مغلقتان، مستريح، نائم. لا شىء وراءه إلا صحراء من الرمال والحصى، إلى ما لا نهاية. إنها رؤيتها الأولى منذ فترة طويلة، ولا تثق فيها، لا تثق خاصة فى الجناس التصحيفى جود-دوج. تفكر مرة أخرى، أدبى جدا. لعنة على الأدب!

من الواضح أن الرجل خلف الطاولة تَلَقَّى ما يكفى من الأسئلة. يضع قلمه، يثنى يديه، ينظر إليها

www.ibtesama.com

برزانة. يقول: "طوال الوقت. نرى أناسًا مثلك طوال الوقت."

يساوى، فى مثل تلك اللحظات، حتى مخلوق تافه، كلب، فأر، خنفسة، شجرة تفاح معوقة، طريق لعربات الكارو يلتف على هضبة، حجر عليه طحالب، يساوى بالنسبة لى أكثر من ليلة من السعادة مع أجمل السيدات وأكثرهن إخلاصًا. هذه المخلوقات البكم وفى بعض الحالات غير الحية تضغط باتجاهى بالاكتمال والحب، بحيث لا يكون هناك شىء فى مجال عينى المنتشية لا يتمتع بالحياة. وكأن كل شىء، كل ما يوجد، كل ما يمكن أن أتذكر، كل ما يلمسه تفكيرى المشوش، له معنى.

هوجو فون هوفمانستال(*)

"رسالة لورد كَنْدوس إلى لورد بكون"(١٩٠٢)

●●●

(*) هوجو فون هوفمانستال Hofmannsthal كاتب وشاعر نمساوى، من أشهر أعماله "الأمس". (١٨٩١)، "الموت والأحمق" (١٨٩٣).

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

حاشية

رسالة إليزابيث، ليدى كندوس، إلى فرانسيس بيكون

عزيزى وسيدى المبجل،

كنت ستستلم رسالة من زوجى فيليب فى الثانى والعشرين من أغسطس الجارى. لا تسألنى كيف، لكن نسخة من تلك الرسالة وقعت تحت بصرى، والآن أضم صوتى إلى صوته. أخشى أن تظن أن زوجى كتب فى نوبة جنون، نوبة انتهت الآن. أكتب لأقول: إن الأمر ليس كذلك. كل ما قرأتَه فى رسالته صحيح، باستثناء ظرف واحد: لا يمكن أن ينجح زوج فى إخفاء قلق ذهنى بهذه الدرجة عن زوجته الحبيبة. عرفتُ طوال هذه الشهور الطويلة مأساة فيليب، وعانيتُ معه.

كيف جاءت أحزاننا؟ كان هناك وقت، على ما أتذكر، قبل هذه المأساة، يحدق فيه كمسحور فى لوحات الساحرات والحوريات، تواقا لدخول أجسادهن العارية المتلألئة. لكن أين نجد له فى

www.ibtesama.com

ويلتشاير(*) ساحرة أو حورية ليحاول؟ صرتُ، بحكم الظروف، حوريته: كنتُ أنا من يدخل حين يريد أن يدخلها، كنتُ أنا الذى أشعر بدموعه على كتفى حين لا يستطيع من جديد أن يجدها فىَّ. همستُ فى الظلام: **بعض الوقت وأتعلم أن أكون حوريتك**؛ لكن هذا لم يؤاسه.

أسمِّى الوقت الحالى وقت المأساة؛ إلا أننى كنتُ أشعر أيضا، فى صحبة فيليب فى بعض اللحظات، أن الروح والجسد يتحدان، حين أكون مستعدة للاندفاع بلسان الملائكة. أسمى هذه النوبات نشوتى. تأتينى- أكتب بدون خجل، ليس هذا وقت الخجل- فى ذراعى زوجى. هو وحده مرشدى؛ لا يمكن أن أعرفها مع رجل آخر. يتحدث إلىَّ روحا وجسدا، فى حديث بدون كلام؛ فىَّ، روحا وجسدا، يدفع ما لم تعد كلماتٍ بل سيوفًا متوهجة.

ليس المقصود أن نعيش بهذه الصورة، يا سيدى. سيوف متوهجة أسمى ما يدفعه فيليب فىَّ، سيوف لا كلمات؛ لكنها ليست **سيوفًا متوهجةً** ولا كلماتٍ. إنها كالعدوى، قول شىء للتعبير عن شىء آخر باستمرار (**كالعدوى**، أقول: بالكاد تراجعتُ عن قول، طاعون الفئران، لأن الفئران فى كل مكان من حولنا فى هذه الأيام.) مثل عابر سبيل (ضع الصورة فى ذهنك، أتوسل إليك)، مثل عابر سبيل أدخل فى طاحونة،

(*) ويلتشاير Wiltshire: بلدة فى جنوب وسط إنجلترا.

www.ibtesama.com

وأشعر فجأة بألواح الأرضية، متآكلة ومبللة، تغور تحت قدمى وتدفعنى فى مياه الطاحونة المتدفقة: إلا أننى وأنا كذلك (عابر سبيل فى طاحونة) لستُ كذلك أيضا؛ وليس ما يصيبنى باستمرار عدوى أو طاعون الفئران أو السيوف المتوهجة، بل شيئا آخر. ليس **ما أقول دائما بل شيئا آخر**. ومن ثم كانت الكلمات التى كتبتها من قبل: لم يُقصَدْ أن نعيش بهذه الصورة. قُصِد أن تعيش **الأرواح المتطرفة** فقط بهذه الصورة، حيث تنهار الكلمات تحت قدميك **كالألواح المتآكلة** (كالألواح المتآكلة أقول مرة أخرى، لا أستطيع أن أساعد نفسى، إذا لم أقنعك بقلقى وقلق زوجى، أقول اقنع، أين الوطن، أين الوطن (*).

لا يمكن أن نعيش بهذه الصورة، لا هو ولا أنا ولا أنت، أيها السيد المبجل (لأن من يقول فى رسالته، وإن لم يكن فى رسالته ففى رسالتى، إنك ربما لا تصاب بعدوى ما ليس كذلك، عدوى، لكنها شىء آخر، شىء آخر دائما؟). ربما يأتى وقت تكون فيه هذه **الأرواح المتطرفة** كما أكتب قادرة على احتمال مآسيها، لكن هذا الوقت لم يحن بعد. سوف يأتى وقت، إذا أتى، يعتلى فيه العمالقةُ أو ربما الملائكةُ الأرضَ (أتوقف لأكبح جماح نفسى، أنا مرهَقة الآن، أذعن للنماذج، هل ترى، يا سيدى، كيف أُخضَع؟ أسميه **الاندفاع** حين لا أسميه نشوتى، الاندفاع والنشوة ليسا متماثلين، لكنهما مع ذلك بالطرق التى أيأس بها من التفسير

(*) اقنع bring home الوطن home .

www.ibtesama.com

واضحان أمام عينى، أسميها **عينى، عينى الداخلية**، كما لو كانت لى عين داخلية تنظر للكلمات كلمةً كلمة وهى تمر، مثل جنود استعراض، أقول **مثل جنود فى استعراض**).

يقول فيليب إن هذا كله مجاز. كل كائن مفتاح لكل الكائنات الأخرى. يقول، كلب جالس فى بقعة من الشمس يلعق نفسه، يكون فى لحظة كلبا وفى اللحظة التالية إناء من الإلهام. ربما يقول الحقيقة، ربما فى عقل خالقنا (أقول، **خالقنا**) حيث نلف وكأننا نخترق تيار الطاحونة وتخترقنا آلاف من الكائنات المماثلة. لكن ما أسألك عنه هل يمكن أن أعيش مع فئران وكلاب وخنافس تزحف فىَّ نهارا وليلا، تغرق وتلهث، تنبش فىَّ، تشدنى، تشدنى فى الإلهام أعمق وأعمق– كيف؟ أود أن أصرخ: **لا نُخلق للإلهام، لا أنا ولا أنت، يا فيليب**، الإلهام الذى يجعل العين تذوى وكأنها تحدق فى الشمس.

أنقذْنى، سيدى العزيز، أنقذْ زوجى! اكتبْ! أخبرْه إن الوقت لم يحن بعد، وقت العمالقة، وقت الملائكة. أخبره إننا مازلنا فى وقت البراغيث. الكلمات لم تعد تصله، ترتعش وتتحطم، كما لو كان (أقول، **كما لو كان**)، كما لو كان محميا بدرع من البلور. لكنه سوف يفهم أن البراغيث، البراغيث والخنافس مازالت تزحف بجوار درعه، والفئران؛ وأحيانا أنا زوجته، أجل، سيدى، أنا أيضًا أزحف فيه. يسمينا **حضور**

www.ibtesama.com

اللانهاية، ويقول إنه يرتعد منا: وقد شعرتُ فعلا بتلك الرعدات، فى نوبات نشوتى شعرتُ بها، مع أننى لا أستطيع أن أقول إن كانت صادرة عنه أم عنى.

لا اللاتينية، يقول فيليب- أنسخ كلماته - **لا اللاتينية ولا الإنجليزية ولا الإسبانية ولا الإيطالية يمكن أن تحمل كلمات إلهامى**. وهى فى الحقيقة كذلك، حتى أنا ظله أعرف ذلك وأنا فى نشوتى. إلا أنه يكتب لك، كما أكتب لك، المعروف أكثر من كل الرجال بأنك تختار كلماتك وتضعها فى مكانها وتبنى أحكامك كما يبنى ماسونى جدارًا من الطوب. نغرق، نكتب إليك من مصيرينا المنفصلين. أنقذنا.

خادمتك المطيعة

إليزابيث ك.

١١ سبتمبر ١٦٠٣

●●●

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

تنويه

ـ ظهرت نسخة من الدرس الأول بعنوان "ما الواقعية؟" فى Salmagundi العددان ١١٤ ـ ١١٥ (١٩٩٧)

ـ ظهرت نسخة من الدرس الثانى بعنوان "الرواية فى إفريقيا"، Occasional Paper العدد ١٧ من مركز تاونسند للإنسانيات، جامعة كاليفورنيا فى بركلرى، ١٩٩٩ وتم اقتباس فقرات الشيخ حميدو كان عن " Phanuel Akubueze Egejuru? نحو استقلال الأدب الإفريقى" (دار جرينوود، ويستبورت، ١٩٨٠) بإذن من المؤلف. وتم اقتباس بول زمثور عن Introduction à la poésie orale? بإذن من Édition du Seuil.

ـ نشر الدرسان الثالث والرابع، مع تعليقات لكل من بيتر سنجر وماريورى جربر ووِيندى دُنجير وباربارا سموتس، بعنوان "**حياة الحيوان**" (مطبعة جامعة برينستون، ١٩٩٩).

ـ ظهرت طبعة من الدرس الخامس بعنوان 'Die Menschenwissen-schaften in Africa' / " الإنسانيات فى إفريقيا" (Siemens Stiftung ميونخ، ٢٠٠١)

www.ibtesama.com

- ظهرت نسخة من الدرس السادس فى Salmagun di العددان ١٣٧ - ١٣٨) (٢٠٠).

- نشرت "رسالة إليزابيث، ليدى كندوس" فى مطبعة انترميزو، أوستين، تكساس، فى ٢٠٠٢.

●●●

www.ibtesama.com

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «انتير».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

www.ibtesama.com

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية «نجوى شعبان»، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١- «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى ـ «إيتالوكالڤينو» رواية ـ عدد خاص ـ جائزة «فياريچيو».

١٢- القلعة البيضاء ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٣ - أين تذهب طيور المحيط ـ للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد» ـ أدب رحلات ـ «جائزة التفوق».

١٤ ـ قرية ظالمة ـ للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» ـ عدد خاص ـ «جائزة الدولة للأدب».

١٥ ـ الرجل البطىء ـ للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كويتسى» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٦ ـ طحالب ـ للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» ـ متتالية قصصية ـ «جائزة كين».

١٧ ـ شوشا ـ للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٨ ـ شارع ميجل ـ للكاتب من ترينداد ـ «ف. س. نايبول» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

www.ibtesama.com

١٩ ـ الحياة الجديدة ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٠ – عشر مسرحيات مختارة ـ للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» ـ مسرح ـ «جائزة نوبل».

٢١ – الآخر مثلى – للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» – رواية – «جائزة نوبل».

٢٢ – المستبعدون – للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» – رواية – «جائزة نوبل».

٢٣ – الأنثى كنوع– للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس» – قصص – جائزة بن مالامود.

٢٤ – ثلاثة أيام عند أمي – للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» – رواية – جائزة الجونكور.

٢٥– اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

٢٦– الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٢٧ – نار و ريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتَّه كروناور» جائزة «چورچ بوشنر الكبرى».

www.ibtesama.com

٢٨ – الذكريات الصغيرة – للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» – سيرة ذاتية – جائزة نوبل.

www.ibtesama.com

يصدر قريبًا من هذه السلسلة

١ ـ مارتش ـ جيرالدين بروكس ـ جائزة البوليتز ٢٠٠٦.

٢ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جرترود..

بريچتيه كروناور.. جائزة چورچ بوشنز الكبرى ٢٠٠٥

٣ ـ عن الجمال.. زادى سميث.. جائزة الأورانج ٢٠٠٦.

www.ibtesama.com

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. egyptianbook. org. eg
E - mail : info @egyptianbook.org. eg

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

"إليزابيث كُستِّلو" هى أهم شخصية من الشخصيات التي أبدعها "كوتسى".. كاتبة وروائية استرالية مشهورة عالميًا تعيش فى مأزق مبدع كبير فقد كتبت رواية فى منتصف الستينيات بعنوان "بيت فى شارع إيكليس" وظلت هذه الرواية هى مبرر وجودها ككاتبة كبيرة لدى القراء وظلت أعمالها الأخرى مجرد ظلال لها.

ومن خلال عدة حفلات تكريم تدعى إليها الكاتبة فى أنحاء العالم وأثناء إلقائها لمحاضراتها أمام جموع النخب المثقفة تطرح آراءها الفلسفية والتى تبدو صادمة عن التشابه بين المحرقة النازية لليهود والمدافعين عن حقوق الحيوان.. عن الواقعية فى أدب كافكا.. عن أدب جنوب إفريقيا.... أثارت الرواية جدلاً واسعاً.. هل هى رواية أم مجموعة من المقالات والآراء التى أراد "كوتسى" طرحها على لسان كاتبة من اختلاقه، خاصة وأنه من الكُتَّاب الذين لا يلقون محاضرات علنية حتى أنه لم يلق المحاضرة التقليدية للأكاديمية السويدية عندما منح جائزة نوبل عام ٢٠٠٣، وتغيب عن حفل توزيع جائزة بوكر البريطانية الشهيرة فى المرتين التى فاز فيهما بالجائزة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٩ جنيه
ISBN# 9789774202654
6 221149 006959

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com